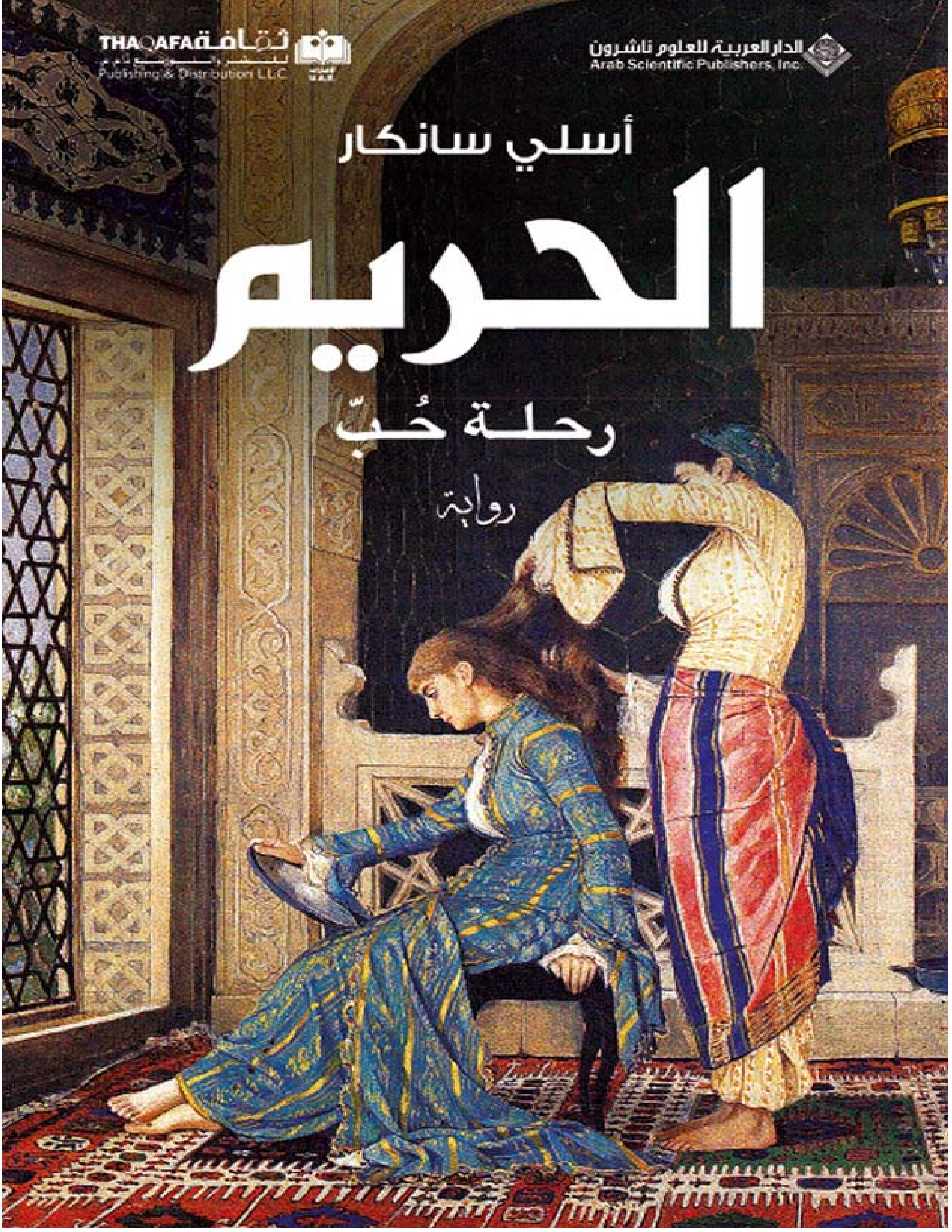


THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution LLC
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
أسلي سانكار
الحريم
رحلة حُبّ
رواية



رحلة حُبّ

HAREM: A Journey of Love

أسلي سانكار

ASLI SANCAR

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير

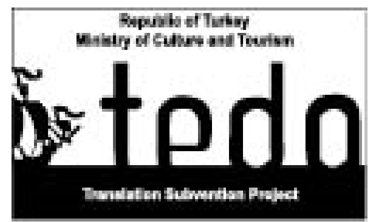
مركز التعريب والبرمجة







8-0380-02-614-978 ISBN
يت ضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة الإنكليزية عن الأصل التركي
Love of Journey A HAREM
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية
ضمن مشروع



TEDA by sponsered is Translation
Bakanligi Turizm ve Kultur . C . T
Mudurlugu Genel Yayimlar ve Kutuphaneler
ıŞ Say Eski) 4 : No ı Bulvar Cumhuriyet Mahallesi a Ş Pa Fevzi
(ı Binas tay
TURKEY / ANKARA / Ulus 06030
tedaproject . www : Web - tr . gov . kulturturizm @ teda : mail - e
com .

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة ، شارع المفتي توفيق خالد ، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961
ص.ب : 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http:// www.asp.com.lb

.

الإهداء

إلى كل من قام أو يرغب في القيام برحلة حب...

أود أن أعبّر عن شكري الجزيل لعفراء جلبي وأفراد أسرتي على كل مقترحاتهم التحريرية ومساعدتهم...

الفصل الأول
ربيع العام 1858
جنوب شرقي شركسيا
كانت العينان الزرقاوان للفتاة الشركسية ثابتتين على الأحصنة الجميلة التي تعدو ذهاباً وإياباً على المرج الأخضر بجوار قريتها، فقد كانت الأحصنة حب حياتها، وكانت الفتاة ذات السنوات السبع تنتهز كل فرصة لتكون قربها.
صرخت شقيقتها الأكبر منها: "ساسا، تعالي! يجب أن نتوثق من فرسنا، ونرى إن كانت تحتاج إلى مساعدة، فقد تلد في أي وقت".
بدأت ساسا تمشي بتثاقل خلف شقيقتها نحو القرية، وعيناها لا تزالان ثابتتين على الأحصنة، وكان من الواضح أن احتمال ولادة مهر جديد يمكن أن يبعدها عن متعة مشاهدة الأحصنة المفعمة بالحيوية التي تتسابق على المرج.
اتجهت الفتاتان مباشرة نحو الإسطبل، وعندما أصبحت ساسا في الداخل، ركضت باتجاه مربض الفرس، لكن بطن الفرس الكبير أنبأها أنها لم تلد بعد. مسّدت برفق شعر عنق الفرس الأسود، وأطعمتها بعض العلف بيدها، وبقيت في المربض أكثر من ساعة حتى استُدعيت إلى المنزل لتناول العشاء.
صرخت ساسا: "يبدو بطن فرسنا على وشك الانفجار، وآمل أن تلد الليلة".
أجابتها والدتها: "لا تقلقي، ستلد حين يحين موعد ولادتها لا قبل ذلك ولا بعده".
كانت ساسا تشعر بإثارة كبيرة تجعلها لا تأكل، وأرادت أن تعود إلى الإسطبل، لكن والدتها لم تسمح لها. وبعد الانتهاء من أعمالها المنزلية، استعدت ساسا للنوم على مضض، وتضرّعت أن تلد الفرس خلال الليل.
استيقظت ساسا في صباح اليوم التالي عند الفجر، وحين دخلت المطبخ، كانت والدتها تحضّر الفطور.
"ساسا، لقد ولد المهر في وقت متأخر من الليلة الماضية، يجب أن تريه. المهر أدهم، باستثناء نجم أبيض كبير على جبينه".
قالت الفتاة الصغيرة متوسلة: " سانّه ، هل يمكننا تسميته "نجم"؟".
ردّت والدتها: "طبعاً، أظن أن هذا اسم ممتاز. إذا أردت، يمكن أن تذهبي وتري المهر إلى أن أفرغ من تحضير الفطور".
أسرعت ساسا بالخروج لترى المهر بنفسها، لكنها لم ترَ الإسطبل بسبب ضباب الصباح الكثيف. كان كل شيء قد أصبح سديمياً في الضباب القوي،

وعندما اتجهت نحو الإسطبل، سمعت جلبة بدت مثل وقع حوافر حصان يجري. اقترب الصوت أكثر فأكثر، وقبل أن تفهم ما يحدث، انبثق حصان وخيّال من الضباب واتجها مباشرة نحوها. وفي جزءٍ من الثانية، مال الخيّال الماهر جانباً، ورفع الفتاة الصغيرة عن الأرض، وألقاها فوق حصانه؛ عندها وعلى الفور عرفت ساسا أنها خُطفت.

صرخت حين انطلق الحصان عبر القرية، لكنْ لم ينتبه لها أحد وسط الضباب. شعرت بالخوف من السقوط، لذا تمسّكت بشعر عنق الحصان بكل قوتها حين خرج الحصان من القرية. عَبَرَ المرج الأخضر نحو الجبال، متجاوزاً أشجاراً وأدغالاً، جارياً بكل سرعته، ومحافظاً على رشاقة خطواته، وبالرغم من السديم الذي غطّى الوادي، لم تنزلق حوافره قطّ، وسرعان ما توارى منزلها وقريتها عن الأنظار خلفها، وعندما وصل الحصان فجأة إلى جدول صغير، وجّهه الخيّال الماهر للقفز فوقه، فوثب مع راكبيه في الهواء، واجتاز الجدول بسهولة. استقر الحصان على خبب أكثر انتظاماً حين ازدادت المسافة التي تفصلهما عن القرية، وأخيراً أبطأ عندما أصبح أسفل سفح. عندها بدأت الرحلة الشاقة صعوداً.

بدا واضحاً أن الحصان معتاد على التضاريس الوعرة، فمشى واثقَ الخطى على الدرب الصخري الضيق. عندما توثق الخيّال من أن أحداً لا يقتفي أثرهما، أوقف الحصان، ثم ترجّل، وأنزل ساسا إلى الأرض. نظر إلى عينيها الخائفتين وقال:

"لا تخافي أيتها الصغيرة، أنت في أيدٍ أمينة".

أخرج الغريب قارورة ماء فضية من السرج، وقدمها إلى الفتاة التي لم ترد، لكنها تناولت منها جرعة كبيرة. كان للماء البارد تأثير مهدئ حين تدفق عبر حلقها وصدرها.

بدا من مظهر الشاب أنه في بداية العقد الثاني من العمر، يرتدي معطفاً طويلاً أسود يصل إلى أسفل ركبتيه، وسروالاً ضيقاً محشوراً داخل جزمته الجلدية التي تصل إلى ركبتيه، وقميصاً أبيض صغير الأزرار يمتد إلى الأسفل من الياقة العالية المدوّرة. كان يعتمر قبعة فرو دائرية سوداء، أما خنجره الفضي المستقر في غمده فكان مستقراً عند خصره.

كان والدا ساسا قد حذّراها مراراً من خطر فرسان غرباء يختطفون فتيات صغيرات، ويبيعونهن كجوارٍ. لم يُسمح لها قطّ باللعب بمفردها خارج القرية من دون وجود قريب أو قروي أكبر سناً بجانبها، لكن في ذلك اليوم حجب الضباب الخيّال الوحيد عن الأنظار وجعله يفاجئ الفتاة.

حمل الغريب عباءته التي كانت مطوية خلف السرج، ولفّ الفتاة الصغيرة بها قبل أن يضعها مجدداً على الحصان. كان البرد يشتد كلما ازدادا ارتفاعاً. لم يمتطِ الخيّال الحصان، لكنه أمسك العنان، وقاد الحيوان سيراً على القدمين. علق ورد بري وأغصان صغيرة بشعر ساسا في أثناء تحرّكهما عبر الدرب، لكنها شعرت بخدر جعلها لا تهتم بذلك، وبدا أن صدمة الخطف قد أوقفت قدراتها الذهنية والعاطفية، ولم تعد حاضرة إلا على المستوى الجسدي فقط. لم يكن بمقدورها آنذاك التفكير في ما سيحدث لها.

تابعا مسيرهما طوال النهار، حتى عبرا قبل الغسق ثغرة ضيقة بين ذروتين جبليتين مغطاتين بالثلوج. صعدا إلى منطقة أعلى، ودخلا أيكة كثيفة الأشجار، فرأت ساسا، بدهشة كبيرة، كوخاً متداعياً منعزلاً في وسط الأيكة. أوقف الخيّال الحصان وساعدها على الترجل، وأشار إليها بالدخول، وعندما قاد الحيوان إلى ملتجأ أصغر قريب، تقدمت ساسا ببطء نحو الكوخ. لم تعرف ما يمكن أن تتوقعه في الداخل، لكن قلب الفتاة الصغيرة كان يخفق بقوة حين رفعت الرتاج ببطء. فُتح الباب، ونظرت ساسا إلى الداخل، وكل ما استطاعت تمييزه في الظلام كان موقداً مبنيّاً كيفما اتفق، وفراشين من القش على الأرضية، وبضعة أكياس مؤن معلّقة على الجدران. لم تشعر بالقلق، لذا دخلت المكان.

دخل الشاب بعد بضع دقائق، وأشعل قنديلاً صغيراً، فبزغ النور باهتاً عبر زجاجه الملطخ بالسخام، طارداً العتمة من الغرفة الموحشة. جثمت ساسا على أحد الفراشين مرتعشة، ثم شعرت بارتياح لرؤية الشاب يشعل ناراً في الموقد. وضع الغريب ماءً وبعض البطاطا والجزر في قدر حديدية، وبدأ يطهو. جعلها الدفء المنبعث من النار تشعر بالنعاس، ولم يبقها مستيقظة إلا الجوع. عندما أصبح الطعام جاهزاً، أكلت ساسا حصتها، ثم غطّت في النوم على الفور.

فجأة، استيقظت ساسا قبل الفجر، واكتشفت أنها تتصبب عرقاً، بالرغم من أن الجمرات في الموقد كانت قد انطفأت منذ وقت طويل. كان هدير وقع الحوافر وصوت صرخاتها يترددان في أذنيها في أثناء عبورها منطقة رمادية بين الكابوس واليقظة. عندما استيقظت تماماً، تلاشت الأصوات ليحل محلها صوت الغريب:

"استيقظي، انهضي أيتها الأخت الصغيرة. يجب أن ننطلق بعد وقت قصير".

جلست فزعة، وعندما تذكرت الأحداث التي جاءت بها إلى هذا الكوخ، شعرت بانقباض في صدرها مجدداً.

سألت بخوف: "إلى أين نحن ذاهبان؟".
رد: "أمامنا رحلة طويلة، لنلحق بالسفينة المغادرة إلى إسطنبول".
ردّدت: "سفينة؟ إسطنبول؟". وفهمت آنذاك ما كان ينتظرها.
كان الفتيان والفتيات ذوو الملامح الجذّابة يختطفون ويباعون إلى نخّاسين مقابل مبالغ كبيرة، وهؤلاء بدورهم يبيعونهم بمبالغ طائلة إلى مسؤولي البلاط العثماني في إسطنبول، أو أفراد من النخبة الحاكمة العثمانية.
عندما سمعت تلك الكلمات، شعرت بخوف أكبر. لم تكن تريد أن تغادر وطنها، فذلك سيقضي على أي أمل في رؤية أسرتها مجدداً...
وضع الغريب بعض الطعام البارد والخبز اليابس أمامها، ثم حضّر بعض المؤن لرحلة ذلك اليوم. عندما رأى الخوف في عينيها، قال لها:
"لا تخافي أيتها الأخت الصغيرة، فقد قامت كثيرات بهذه الرحلة قبلك. وإن شاء الله ستكون حياتك أفضل ممّا قد حلمت به يوماً".
تناولت الفتاة الصغيرة الطعام الذي قدمه لها، وعلى الرغم من أنها لم تفهم تماماً ما يعنيه الغريب، إلا أنها شعرت ببعض الارتياح من نبرة صوته.
كان الشاب متشوقاً إلى بدء الرحلة، وعندما انتهت من الأكل، نهض وخرج ليجهّز حصانه، وأشار إليها أن تتبعه.
مجدداً، وضعها الغريب على السرج، ومشى إلى جانبها وهو يمسك العنان في يد، وبندقية ذات ماسورة طويلة ورفيعة في الأخرى. عندما اتجها نزولاً عبر السفح، كان هواء الصباح بارداً ومنعشاً، وشاهدا جداول صغيرة من الماء تسيل، وتتدفق أسرع مما يمكنهما المشي. كانت الغابة تضج بزقزقة الطيور، ورأت ثلاثة غزلان تهرب مسرعة حين سارا بالقرب منها. ومع مرور الوقت، سطعت أشعة الشمس عبر المساحات الخالية بين الأشجار، فشعرا بالدفء يسري في جسديهما، وظهرت حتى بعض الزهور البرية التي قد بدأت تتفتح في الهضاب التي تجاوزاها.
عندما وصلت الشمس إلى كبد السماء، وبدأت تتحرك نحو الغرب، كانا قد أنهيا انحدار السفح، وبدأا المسير عبر الدرب الذي سيقودهما إلى البحر الأسود في غضون ساعات. إلا أن الطقس كان معتدلاً، والمروج مملوءة بورود الربيع. أشار الغريب إلى شجرة كبيرة قرب ضفة جدول، ثم قاد ساسا والحصان إلى هناك. أنعشا نفسيهما بغسل وجهيهما وأذرعهما في الماء البارد، ثم بعد أن جلسا ليرتاحا قليلاً، أحضر الغريب كيس زاد من السرج، وأعطى ساسا بعض الجبن والخبز والفاكهة المجففة، وعندما بدأت الفتاة

تتناول الطعام، قاد الحصان إلى النهر ليروي عطشه. لم تنبس ساسا ببنت شفة أو تجرؤ حتى على التفكير في الهرب، فقد كانت تعرف أنها ليست نداً للغريب المخيف والخبير.

تابعا طريقهما بعد استراحة دامت عشرين دقيقة. كان عليهما أن يصلا إلى مركب النخّاس الذي يبحر إلى إسطنبول في اليوم نفسه كل شهر، الذي يحمل الرقيق من القوقاز، ويبيعهم إلى سماسرة في إسطنبول، ثم ينقل بضائع إلى القوقاز لتُباع هناك.

عندما وصلا إلى الساحل، شاهدا عدّة شبان على متن السفينة الراسية قرب مستوطنة صغيرة بجانب البحر الأسود. كان هناك بعض الرقيق من الأطفال، وقد باعهم مالكوهم إلى نخّاسين، في حين أُسر آخرون رغماً عنهم مثل ساسا، وقد تطوّع آخرون من أسر فقيرة ليباعوا رقيقاً من أجل ضمان مستقبل أفضل لهم. كان معروفاً على نطاق واسع أن الرِّقَّ في السلطنة العثمانية قد يكون سلّماً للارتقاء إلى مستويات عالية في المجتمع.

كان النخّاس يقف على الشاطئ يتكلم مع بعض الرجال الذين اتفق معهم للتو على صفقة. مشى الغريب إلى تاجر الرقيق، وبدا واضحاً أنهما يعرفان بعضهما جيداً. بعد عشرين دقيقة من المساومة المحمومة، توصل الرجلان إلى اتفاق، فحصل الغريب على نقوده، وأُرسلت ساسا لتنضم إلى مجموعة صغيرة من الرقيق الذين سيُنقلون إلى السفينة الكبيرة في زورق تجذيف ضيق وطويل.

صعدت ساسا على متن السفينة مثقلة بالهموم، تعرف أنها ربما كانت تشاهد وطنها شركسيا للمرة الأخيرة، وتعلم أيضاً أنها لن ترى على الأرجح أسرتها مجدداً أبداً.

شاهدت على سطح السفينة عنبري شحن كبيرين مفتوحين، كان الذكور يُرسلون إلى أحدهما والإناث إلى الآخر. وجدت الفتاة الصغيرة صعوبة في جعل عينيها تتلاءمان عند انتقالها من ضوء النهار في الخارج إلى العتمة في العنبر حين نزلت على السلم، وجعلها الجو الخانق في المكان المزدحم تحبس أنفاسها. نظرت بحذر إلى الوجوه حين تلاءمت عيناها مع الظلمة، وأدركت وجود خمسين شابة وفتاة على الأقل في العنبر المزدحم. أُغلق باب المستودع الأفقي في السقف، الذي حجب آخر أشعة الشمس الغاربة، كما أطفئ أيضاً آخر بصيص أمل في قلب الفتاة الصغيرة.

جعل تمايل السفينة والجو الخانق بأنفاس عدد كبير من الأشخاص في مساحة مغلقة، والتعب من رحلة استغرقت النهار كله ساسا تنام فوراً،

حالها كحال الأخريات. جرت الرياح بما تشتهي السفينة التي أبحرت بسرعة باتجاه إسطنبول، بعيداً عن الوطن الشركسي إلى مملكة جديدة ومجهولة تماماً.
مجدداً، أمضت ساسا الليلة تنتابها كوابيس: قرويون يصرخون، خيول تصهل، أنعام تثغو، كلاب تنبح - سمعتها كلها، لكن لم ترَ شيئاً باستثناء الضباب الكثيف. نادتها والدتها، لكن صوتها تلاشى واختفى في السديم، الذي بدا أنه قد ابتلع كل شيء. أصبح الضباب كينونة - كينونة خطرة وشريرة - ابتلعت القرية كلها، وكان على وشك أن يبتلعها أيضاً، لكنها استيقظت حين فُتح باب العنبر.
جلست فزعة من الصوت، وظهرت أولى علامات ضوء النهار في السماء فوق الباب المفتوح. بدأت فتيات أخريات يتحركن حولها، وشعرت ساسا بالسعادة حين أدركت أن الضباب ليس إلا جزءاً من كابوسها، وأحسّت حتى بالأمان من العدد الكبير من الفتيات الأخريات حولها في العنبر؛ فهي لم تكن بالتأكيد وحدها. بعد بضع دقائق، بدأ أحد أفراد (الطاقم) يُنزل سلالاً ضخمة من الخبز والجبن وأباريق خزفية من الماء، وذكّرت رائحة الخبز والجبن الفتاة بأنها جائعة جداً، لكن الطعام لم يكن كافياً إلا ليسد رمق الجميع.
بدأت الفتيات يتكلمن مع بعضهن، لكن بأصوات خافتة؛ كأن هناك قاعدة تمنعهن من الكلام بصوتٍ عالٍ في السفينة. أصغت جيداً إلى الأخريات حولها، فقدكانت قد سمعت والدتها وخالتها تتحدثان عن الحياة في الحريم العثماني. كانت كلتاهما قد اتفقتا على أن الرِّقَّ يمكن أن يقود إلى مستقبل لامع للفتيات والفتيان الصغار، لذا لم تتفاجأ ساسا حين سمعت فتاة مراهقة تتكلم بحماس عنه:
"في الصيف الماضي، عادت سرايلي لتزور قريتنا. كان أفراد أسرتها رقيقاً في قريتنا، وباع السيد الفتاة حين كان عمرها عشر سنوات. اشتراها القصر وأخذوها لتعيش هناك، وعاملها الجميع بلطف كبير. في الواقع، شعرت أنهم أسرتها. تلقت هدايا جميلة من مجوهرات وثياب في مناسبات خاصة، وعُلّمت حتى العزف على كيمنس . سردت قصصاً رائعة عن أحداث وأشخاص في القصر، وقالت إن العيش هناك أفضل شيء حدث لها على الإطلاق".
سألت فتاة يافعة أخرى: "لماذا غادرت إذاً؟".
"قالت إنها تريد إنشاء أسرة وبيت خاص بها، وقد فعلت هذا. رتّب

السلطان تزويجها من أحد باشاواته ، ومنحها منزلاً وأثاثاً. بعد أن توفي زوجها جاءت لتزور القرية مع ولديها وأحضرت عدّة هدايا معها".
تكلمت مراهقة أخرى عن فتاتين في قريتها تطوعتا لتُباعا، وقد وافق والداهما؛ لأن الأسرة كانت معدمة، وظنّا أن الفتاتين ستحظيان بمستقبل أفضل في إسطنبول. لكن كانت هناك أيضاً قصص محزنة: اختطاف، وانقلاب سفن في مياه البحر الأسود العاتية قبل أن تصل إلى إسطنبول، ومختطفات يمتن على السفن من أمراض معدية. بدا أن كل فتاة تقريباً في الأسر لديها شيء تقوله عن الطريق إلى الرقيق في السلطنة العثمانية.
أصغت ساسا بإمعان إلى تلك القصص طوال اليوم، وبدا بعضها أروع من أن يكون حقيقياً. هل كان سهلاً حقاً الزواج من أمير أو باشا؟ هل تصبح كل الفتيات الشركسيات ثريات؟ لم تظن ذلك، حتى إذا كانت تلك القصص صحيحة، فهي تفضّل أن تعود إلى قريتها مع والديها وأشقائها وشقيقاتها، تلعب تحت السماء الشاسعة وتعتني بنجم، فهي تشتاق إلى أسرتها كثيراً.
بدا الأمر كأن يد المصير الحديدية قد أمسكت بها من القرية، وانتزعتها من وطنها وأسرتها الشركسية، وجرّدتها من كل عزيز عليها. الآن، إنها محصورة في عنبر سفينة عاتم، كانت تتحرك في رحم الحياة، وسواء أأرادت أم لا، ستولد الفتاة الصغيرة قريباً إلى حياة جديدة.
غلّف الظلام السفينة المبحرة، وأنزل أحد أفراد الطاقم حلوى وفاكهة مجففة وماء للفتيات. وبعد أن تناولت كل منهن حصتها، استسلمن مجدداً للنوم.
شقّت السفينة عباب أمواج البحر الأسود الداكنة، تسير بمحاذاة الخط الساحلي في المياه العميقة. وعلى الرغم من أفول النجوم، والهلال الذي بدا كقطعة من الفضة في سماء الليل، وضوؤه خافت جداً، إلا أن تلك لم تكن مشكلة لقبطان السفينة، على كل حال؛ لأنه قد سافر في تلك المياه عدّة مرات، والمسار مألوف جداً له مثل كف يده.
أمضت الفتاة الصغيرة الليلة مضطربة مجدداً، وحلمت أنها تمشي بعيداً عن قريتها على الدرب الطيني الضيق. شعرت أنها قد نسيت شيئاً، لكنها لم تتذكره، وعندما تابعت طريقها، تذكّرت فجأة ماهيته: العلبة الفضية الصغيرة التي منحتها جدّتها إياها، وتضم دعاءً قالت جدّتها إنه سيحميها من الشر، لذا أرادت أن تعود وتأتي بها.
كانت في طريق عودتها إلى القرية حين قفز الضباب أمامها، وهو يعلّق العلبة حول عنقه. حاولت انتزاعها، لكن الضباب تحول إلى عاصفة قريبة، وسقطت العلبة من عنقه إلى قعر جدول وابتلعتها سمكة. خاضت الفتاة

الصغيرة في الماء وكادت أن تمسك السمكة، التي قفزت إلى خارج المياه، وبدأت تثب مبتعدة، فخرجت الفتاة مسرعة من الجدول وركضت خلفها. عندما أصبحت على وشك أن تقبض عليها، خرج دب من الغابة وأمسك السمكة، وتصارعت معه لتحصل عليها، لكنه كان أقوى منها كثيراً. جأر الدب بقوة، وكشف عن أسنانه الحادة، وأوشك أن يغرزها في حنجرتها عندها أفاقت فجأة.

كان قلبها يخفق بقوة، وصوت الدب لا يزال في أذنيها. أدركت أنه مجرد كابوس، ونظرت حولها إلى كل الفتيات النائمات، ومسّت العلبة حول عنقها فشعرت مجدداً بالأمان والاطمئنان في العنبر الضيق، وسرعان ما جعلتها حركة تمايل السفينة تغفو مجدداً.

أيقظها فتح باب العنبر كما حدث تماماً في اليوم السابق، فوقفت ومدّت ساقيها بأفضل ما يمكنها. وبعد تناول المؤن التي أُنزلت لهن من الأعلى، سُمح للفتيات بالخروج إلى السطح. كان الجو ملبداً بالغيوم والشمس تتوارى خلفها. بقيت الفتيات على سطح السفينة عشرين دقيقة فقط قبل أن تهب ريح قوية وتصبح الأمواج متلاطمة. وعندما بدأت أولى قطرات المطر تسقط، طلب أحد مساعدي القبطان من الفتيات العودة إلى العنبر.

بعد وقت قصير بدأت السفينة تهتز في الماء بعنف يميناً ويساراً، ونقع المطرُ مركبَ الأسيرات البائسات. دوّى الرعد في السماء الحالكة ولمع البرق في كل مكان. سرعان ما شعرت ساسا بالغثيان من الاهتزاز المتواصل للسفينة، ونظرت حولها فرأت أن وجوه كل الفتيات تقريباً قد شحبت. بدأت بعض الفتيات يبكين وينتحبن، في حين ركضت أخريات إلى دلاء المرحاض ليتقيأن. بدا أن الريح تلعب بالسفينة، وتختبرها لترى قوة الدفع التي يمكن أن تتحملها. كانت السفينة الخشبية تصر وتئن من الهجوم، معرضةً لخطر داهم بأن تنشطر إلى شطرين.

شعر الجميع بالرعب، بمن فيهم ساسا التي لم يسبق لها أن اختبرت شيئاً مماثلاً، وبدا أن المركب سينقلب في أي لحظة. أحسّت ساسا أن السفينة وكل من فيها تحت رحمة الله تماماً، فتضرّعت كما لم تفعل من قبل، ووعدت ألا تشتكي أبداً إن أنقذ الله حياتها.

استمرت العاصفة طوال الليل، ودفعت قدرة تحمّل الفتيات إلى مستويات جديدة، وفي اللحظة التي شعرت ساسا فيها أنها لم تعد تتحمّل، بدأت العاصفة تهدأ. خفّت سرعة الريح، وتضاءل هطول المطر، وتوقف اهتزاز المركب. غطّت كل الفتيات في النوم عند الفجر، مرهقاتٍ من إجهاد

العاصفة.
عندما استيقظت الفتيات في اليوم التالي سُمح لهن مجدداً بالصعود إلى سطح السفينة. كانت الشمس تشرق ساطعة والبحر ساكناً، وداعب نسيم دافئ عليل وجنات الفتيات حين نظرن إلى الأفق؛ كأنه يعتذر عن قسوة العاصفة.
انقضت الأيام الثلاثة التالية بهدوء، ولم تنزعج ساسا حتى من أي كوابيس أخرى، لكن في اليوم السابع من الرحلة انتشر بين الفتيات شعور خاص بالإثارة، فقد قيل لهن إنهن سيصلن إسطنبول بحلول المساء. من ناحية، أسعد هذا النبأ ساسا؛ لأنها كانت متشوقة للخروج من عنبر الشحن الضيق في السفينة إلى البر مجدداً، لكن من ناحية أخرى، لم تكن لديها فكرة عمّا سيحدث لها. جعل الشك معدتها تؤلمها، وتمنّت من كل قلبها أن تكون في وطنها شركسيا.
هبّت ريح قوية مجدداً على المركب الشراعي الذي اندفع بيسرٍ في البحر. أبحرت السفينة بسرعة ووصلت إلى مدخل مضيق البوسفور أبكر مما توقع القبطان، لذا رمى المرساة هناك وانتظر عدّة ساعات حتى يستفيد من غطاء الظلام. بسبب ضغوط من البريطانيين والفرنسيين، كانت السلطات العثمانية قد حظرت تجارة الرقيق من أفريقيا، لكنها لا تزال تسمح بجلبهم من شركسيا وجورجيا. على كل حال، من أجل تفادي أي تدخل من البريطانيين، انتظر القبطان أن يرخي الليل بظلاله قبل أن يدخل المضيق.
عندما رست السفينة أخيراً، انتقى سماسرةٌ الرقيق وأخذوهم إلى منازل في منطقتي غلطة وبيوغلو. نُقلت ساسا بعربة، مع نحو عشرين فتاة أخرى، إلى منزل كبير في بيوغلو، ودخلن الحديقة المسوّرة عبر بوابة خشبية كبيرة. صعدت المجموعة بعد ذلك على سلالم رخامية طويلة قادتهن إلى رواق فيه بابان. دخل السمسار والسائقون والخدم الآخرون من باب السلملك ، وفتحت زوجة السمسار باب الحريم وقادت الفتيات إلى الداخل، حيث اصطحبتهن إلى حجرة رحبة مزودة بسجاجيد فارسية وأثاث أوروبي. كانت السيدة ثيودورا، زوجة السمسار، امرأة بدينة متوسطة العمر، وترتدي فستاناً برتقالياً وأرجوانياً مقلماً طويلاً أوروبي الطراز لا يلائم شعرها الأحمر الفاقع. بدت نظرةُ المرأة قاسيةً وسلوكُها مهنياً جداً، ولم تثق ساسا بها وبقيت على نحو فطري بعيدة عنها.
أحضرت ثلاث خادمات عدّة صوانٍ معدنية دائرية كبيرة، وبسطن أغطية قماشية على الأرضية، ثم وضعن الصواني فوقها، وأشارت السيدة ثيودورا إلى

الفتيات لكي يجلسن حولها. رأين حساءً وخبزاً وأرزاً وعدّة أطباق خضار قد أُحضرت لهن ليأكلن، فتناولت الفتيات الطعام بصمت. عندما انتهت الوجبة، رُفعت الصواني ورُتّبت فُرُشٌ على الأرضية لتنام الفتيات عليها، وغططن جميعهن في نوم عميق بعد وقت قصير نتيجة إرهاق الرحلة. تُرك مصباح واحد مشتعلاً، وجلست خادمتان من المنزل في الغرفة حارستين في الليل.

نامت ساسا بعمق وسكينة، فقد تركت أحداث الأيام القليلة الماضية أثرها بدنياً في الفتاة الصغيرة، وجسدها ينتهز الفرصة آنذاك ليجدّد قواه الحيوية. قبل الفجر مباشرة بدأت تحلم بقريتها مجدداً، وكان الوقت ليلاً، وريح قوية تهب على القرية، وساسا في الإسطبل مع نجم تمرّر يدها برفق على جبين المهر الصغير.

قالت بنبرة صوت خافتة: "لا تقلق يا نجمي الجميل، لن أسمح لأحد أن يؤذيك".

نظر المهر إلى الفتاة الصغيرة؛ كأنه يفهم تماماً ما تقوله. وضعت ساسا ذراعيها حول نجم وخلد كلاهما إلى النوم. استيقظت بعد بعض الوقت، لكن المهر كان قد اختفى، وركضت ساسا من زاوية الإسطبل إلى أخرى.

صرخت والفزع بادٍ في صوتها: "نجم! نجم! أين أنت؟ أين ذهبت؟".

ناشدت: "أرجوك يا نجم، أعلمني أين أنت!".

فُتح باب الإسطبل وسمعت صوت صهيل خافتاً في الخارج، فانطلقت إلى الباب وركضت إلى الظلام. رأت شخصاً غامضاً ينحني فوق نجم الذي كان مقيداً إلى حيث يقطع الخشب. كان الشخص يحمل بلطة في يده، وعندما رفعها ليضرب المهر البائس، وثبت ساسا في الهواء وأمسكت به. ضربت البلطة، بتأثير الحركة، الغريب بدلاً من المهر، فوقع على الأرض. أمسكت ساسا البلطة وقطعت الحبل الذي يقيّد المهر، ثم نظرت إلى الشخص المستلقي على الأرض فاقداً الوعي، فإذ به السيدة ثيودورا!

استيقظت ساسا فجأة، فتحت عينيها ونظرت حولها في أرجاء الغرفة، ورأت أن معظم الفتيات الأخريات قد بدأن بالاستيقاظ أيضاً. فُتح الباب فدخلت السيدة ثيودورا الغرفة، وتوخّت ساسا حذراً أكبر من زوجة السمسار آنذاك. بدأت المرأة تتكلم مع الخادمتين اللتين أمضيتا الليل تحرسان المكان، وسمعتها ساسا مصادفة تسألهما:

"هل تشخر أي من الفتيات بصوتٍ عالٍ؟".

ردّت إحداهما: "لا يا سيدتي، لا تقلقي، لم نسمع مثل ذلك الصوت الليلة الماضية".

إذا كانت جارية جديدة تشخر في الليل، فربما يعيدها المشتري إلى السمسار أو يدفع مبلغاً أقل كثيراً من المتفق عليه. بدت على وجه السيدة ثيودورا نظرة ارتياح.

غادرت الخادمتان، ثم دخلت خادمتان أخريان، فرفعتا الفُرش وحملتاها إلى الغرفة المجاورة ووضعتاها في خزائن كبيرة. في أثناء ذلك، جاءت قابلة لتفحص الفتيات وتتوثق من خلوهن من أي عيوب جسدية، ومن عذريتهن، ففحصت كل واحدة منهن بمفردها خلف ستارة حريرية، فقد كانت الفتيات غير العذراوات يُبعن بنصف ثمن البتولات. طمأنت السيدة ثيودورا الفتيات ألا شيء يقلقن بشأنه، وأن كل الجاريات يجب أن يُفحصن قبل بيعهن. على الرغم من ذلك، على كل حال، شعرت الفتيات بخجل وإحراج شديد. لحسن الحظ تصرّفت القابلة مثل أم وعاملت الفتيات بلطف، وكانت السيدة ثيودورا سعيدة حين علمت أن كل الفتيات عذراوات.

عندما انتهت الفحوص، وُضعت الصواني مجدداً لتناول الطعام، وأُحضرت سلال كبيرة من الخبز والكعك، ووُضع جبن الماعز، وبيض مسلوق، وزيتون أسود، ومربّى الورد، وشاي ساخن على الصواني. لاحظت ساسا مناديل الكتّان المطرّزة على نحو جميل التي أُعطيت للفتيات ليضعنها على حجورهن خلال تناول الطعام.

بعد أن أكلت الفتيات مِلْءَ بطونهن وغسلن أيديهن، اصطُحبن جميعاً إلى غرفة في الوسط بين السلملك والحرملك. عندما فُتح الباب من غرف الذكور، دُهشت ساسا لرؤية رجل أسود وسيم يدخل عبر الباب. لم تكن قد رأت شخصاً أسود من قبل؛ وفي الواقع، لم تكن تعرف حتى بوجود أشخاص بشرتهم سوداء.

اتضح أن الرجل، رؤوف أفندي، آغا "بيت السعادة"، أو حرملك السلطان. كان المخصي الأسود هو الأعلى مرتبة في الإدارة العثمانية، ومنصبه مهيباً جداً ويتحمّل مسؤولية كبيرة، وبدا ذلك واضحاً من ثيابه. كان يرتدي بذلة ثمينة داكنة ويعتمر طربوشاً أحمر على رأسه، وياقة سترة بذلته الطويلة مصنوعة من مخمل أسود، ويبرز داخل السترة قميص أبيض ناصع وربطة عنق حمراء ورمادية. كان خاتمه مصنوعاً من ياقوتة حمراء كبيرة تبرز من ذهب يلمع على إصبعه.

جاء رؤوف أفندي لشراء بعض الفتيات للقصر، وعندما كان سمسار الرقيق يُطري بإفراط على ميزات الفتيات اللواتي كان يراهن للمرة الثانية فقط، نظر الآغا بإمعان إلى كل منهن بعين خبيرة. كان قد اشترى كثيراً من

الجواري من قبل، ويعرف جيداً معايير القصر العالية. اختار أربع فتيات فقط، وكانت ساسا واحدة منهن...

بعد إنهاء الصفقة، أُخذت الفتيات إلى الخارج حيث كانت العربة تنتظرهن. لفتت الخيول الجميلة انتباه ساسا وتساءلت عمّا حدث لنجم. جلس رؤوف أفندي بجانب السائق، وانطلقت الفتيات الأربع داخل العربة، ووقف حارسان يرتديان ثياباً جميلة على جانبي العربة قرب المقدمة. لم تستطع ساسا رؤية الخارج بسبب وجود ستائر مغلقة بإحكام على النوافذ، ولاحظت أن داخل العربة منجّدٌ بمخمل أحمر مترف، والسقف مذهّب بتصميمات معقدة. كانت الفتاة الصغيرة مهتمة بالعالم الخارجي، لكنها لم تجرؤ على فتح الستارة، وحدّقت الفتيات إلى بعضهن بصمت؛ لا فكرة لديهن عمّا سيحدث لهن آتياً.

الفصل الثاني

صيف 1858

بلربي، إسطنبول

على الطرف الآخر من شاطئ البوسفور في بلربي، كانت جميلة خانم تعدّل حجابها أمام مرآة بيضوية كبيرة في مدخل الحريم في قصرها المطل على البحر، والتي تعد العلامة الوحيدة تقريباً على التأثير الغربي في أثاث القصر. كانت جميلة وزوجها كامل بيك ملتزمين تماماً بالعادات والتقاليد العثمانية، وعلى الرغم من أن "كامل" قد درس الطب في فرنسا، إلا أنه لا يزال محافظاً في أسلوب حياته. كان والد كامل قد بنى القصر الخشبي الكبير المكوّن من طابقين بما يتوافق مع فن العمارة العثماني التقليدي وزوّده بأثاث عثماني، وللمنزل مدخلان منفصلان، أحدهما للرجال والآخر للنساء. كان الضيوف الذكور يجلسون في حجرة الاستقبال الكبيرة في الطابق الثاني في قسم الرجال، وغرف نوم الرقيق الذكور في الطابق الأول.

كانت حجرة الاستقبال الرئيسة في الحرملك كبيرة وضخمة، وفيها نافورة رخامية ثلاثية الطبقات، والماء يخرخر في أثناء تدفقه من طبقة إلى أخرى. كانت الغرفة مضاءة جيداً بعدد من النوافذ الطويلة التي تواجه المضيق، وتوجد فوقها نوافذ أصغر من الزجاج الملون تسمح بمرور مزيد من الضوء، ومؤثثة أساساً بأرائك عثمانية منخفضة مغطّاة بقماش حريري رقيق أبيض ومكلف مطرّز بخيط فضي. توجد عدّة سجاجيد كبيرة فوق حُصر مصرية مصنوعة من القصب تغطي الأرضيات الخشبية، في حين أن الخزائن الخشبية المدمجة في الجدران والسقف مطلية بنقوش زهرية ملونة زاهية تمنح جواً من البهجة للغرفة. كانت قطع الأثاث القليلة الأخرى عبارة عن طاولات مثمّنة صغيرة مطعّمة بالعاج، ومناقل نحاسية كبيرة تستخدم للتدفئة في الطقس البارد، وتزين أعمال مؤطرة من فن الخط الجدرانَ؛ أغلبها آيات من القرآن الكريم. وعلى الرغم من عدم وجود أثاث كثير، إلا أن كل قطعة بدءاً من إبريق ماء الورد الصغير إلى النافورة الرخامية الكبيرة بدت، بحد ذاتها، عملاً فنياً؛ لأن كل شيء بدا مزخرفاً بمهارة وإتقان بنقوش معقّدة.

كانت جميلة على وشك أن تغادر مع اثنتين من جواريها المميزات (كالفا) لتزور رابية خانم، إحدى صديقات طفولتها التي تعيش في كانليكا، الواقعة أيضاً على مضيق البوسفور. لم يكن مقبولاً اجتماعياً للنساء العثمانيات - باستثناء العجائز منهن - أن يخرجن من دون جوارٍ. إضافة إلى ذلك، كانت

الجاريتان خياطتين بارعتين، وتجتمع ذلك اليوم العديد من صديقات رابية في قصرها في كانليكا لإعداد جهاز عروس لشابة يتيمة من الحي ستتزوج قريباً. أحضر السائق العربة إلى أمام المنزل، واستقرت جميلة وجاريتاها فيها. عندما بدأت العربة رحلتها البطيئة على الطريق الضيق المملوء بالمنعطفات على طول الساحل، عادت أفكار جميلة إلى الوقت الذي ساعدت فيه في إعداد جهاز عرسها. وعلى الرغم من أن والدتها قد بدأت تجهيزه منذ وقت ولادتها، كما تفعل معظم الأمهات العثمانيات، إلا أنه كان لا يزال هناك عدد من تفاصيل اللحظة الأخيرة التي ينبغي إنهاؤها حين طلب كامل يدها من والديها للزواج.

كانت جميلة قد تلقت عروضاً بالزواج منذ بلغ عمرها خمس عشرة سنة. ولأن والدها رجل دين محترم، وبسبب ثروة الأسرة وجمال الفتاة الصغيرة، فقد سعى كثيرون للزواج منها، إلا أنها عقدت العزم ألا تتزوج حتى يخبرها قلبها أنها تفعل الصواب. لم يلبِّ أحد من العرسان المحتملين توقعاتها حتى تقدم كامل لخطبتها.

عندما أصبحت جميلة في الثامنة عشرة من العمر، أحضرت مقبولة خانم، وهي قريبة بعيدة، رسماً لكامل الذي كان قد عاد للتو من فرنسا بعد حصوله على شهادة الطب، وعُيّن في القصر الملكي على أنه طبيب للتلاميذ الذكور الصغار في المدرسة هناك. كانت مقبولة خانم تعرف معايير جميلة العالية وتوقعاتها، وظنّت أنه من الحكمة أن تستشير الفتاة قبل أن تشجع والدة كامل على المجيء ورؤية العروس المحتملة.

نظرت جميلة إلى الرسم بإمعان، بدا كامل وسيماً وذكياً، وأثّر مظهره في الشابة. ظنّت جميلة أنها رأت لطفاً وقوةً في عيني كامل الداكنتين، وهما ميزتان تتطلع إليهما في من ستتزوجه. وبعد الحصول على موافقة الشابة، أبلغت مقبولة خانم والدة كامل أن موعداً قد رُتّب لها للقاء جميلة ووالدتها في منزلهما في كانليكا.

في المجتمع العثماني، كان معتاداً أن يرتّب الزواج طرفٌ ثالث، قد تكون قريبة أو خاطبة أو مجرد شخص من المعارف، وإن لم يكن العريس والعروس يعرفان بعضهما في الطفولة، بدا محتملاً ألا يشاهد أحدهما الآخر قبل الزواج. على كل حال، كان قبول العروس ضرورياً.

في صباح يوم الموعد، نهضت جميلة باكراً، واختارت بعناية ما سترتديه ذلك اليوم: قفطاناً أخضرَ مطرّزاً ضيقاً عند الخصر فوق سروال حريري أزرق، وثوباً مخملياً أسودَ قصيراً مطرّزاً بخيط ذهبي. اعتمرت قبعة خضراء صغيرة،

وانتعلت خفّين مخمليين أسودين، وتقلّدت قلادة من زمرد كانت جدّتها قد وهبتها إياها، وجعلت جول - شاه دادي طفولتها تضفر مجوهرات صغيرة في شعرها الأسود الكثيف والطويل. كانت الدادي جول - شاه امرأة شركسية في منتصف العمر لم يبدأ جمالها يذوي إلا أخيراً، وقد اعتنت بجميلة منذ كانت رضيعة، وتعدُّ أماً ثانية للفتاة، وعرفت أن ذلك يوم مهم من الوميض غير المعتاد في عيني جميلة الداكنتين.

عندما وصلت مقبولة خانم ووالدة كامل، سنية خانم، في الموعد المحدد، قابلتهما خادمة رافقتهما إلى غرفة استقبال كبيرة في الحريم حيث كانت والدة جميلة، صفية خانم، تنتظرهما. وفقاً للعادة، وبعد التعارف وتبادل بعض الدعابات وقتاً قصيراً، أحضرت جميلة ثلاثة فناجين صغيرة من القهوة التركية على صينية فضية. وعلى الرغم من أنه كان يجب على الفتيات أن يخفضن أبصارهن، إلا أن جميلة توخت الحذر لتلقيَ خلسة نظرة متفحصة على والدة كامل. كانت تعرف أن للأمهات تأثيراً كبيراً في تطور شخصية الولد، لذا أرادت جميلة أن ترى أي نوعٍ من الأشخاص هي تلك المرأة. ومن المعتاد أيضاً في المجتمع العثماني أن تعيش النساء الأرامل مع أبنائهنّ، وعلى الرغم من أن سنية خانم لم تكن أرملة، إلا أن هناك دائماً احتمالاً بأن تصبح كذلك في المستقبل، حتى إذا لم تعيشا معاً، كانت جميلة تعرف أن للحموات سلطة كبيرة في الأسرة.

فعلت سنية خانم الشيء نفسه، وتبعت كل حركة فعلتها جميلة بعين بصيرة؛ لأن ابنها لن يحظى بفرصة رؤية العروس المحتملة من تلك المسافة إلا بعد أن يتزوجها، لذا كانت انطباعات سنية خانم عن جميلة بالغة الأهمية. كانت قد تكلمت بأدق التفاصيل مع مقبولة خانم عن خلفية أسرة جميلة وطفولة الفتاة وشخصيتها، وطرح زوجها أيضاً أسئلة جدّية عن والد جميلة، وأجداده أيضاً، وجاءت نتائج كل تلك الاستفسارات مشجعة. لكن مظهر جميلة الجسدي، وشخصيتها وسلوكها اكتسبت أهمية فائقة أيضاً. كانت جميلة ستصبح زوجة (دنك) كامل أو نداً له، والعرف لا يسمح بوقت لرؤيتها. عندما أُفرغت فناجين القهوة، جمعتها جميلة معاً على الصينية، واستأذنت، ثم غادرت الغرفة. بعد بضع دقائق أخرى من الحديث المهذب، طلبت الضيفتان إذناً بمغادرة المكان، ورافقتهما صفية خانم إلى الخارج.

عندما أغلقت الباب، طلبت صفية خانم من خادمة أن تستدعي جميلة إلى غرفة الجلوس، وعندما دخلت الشابة لاحظت أمُّها أن وجه ابنتها متورد

قليلاً.
سألتها والدتها: "حسناً يا جميلة، ما رأيك؟".
ردّت جميلة: "أنسيجم (أمي العزيزة) ، أريد أولاً أن أعرف رأيك".
تابعت صفية خانم كلامها بحذر، لا ترغب أن تشجّع ابنتها كثيراً قبل أن يسمعوا شيئاً من أسرة كامل.
"حاولت أن أفهم أي أم ستكون لك يا جميلة: هل ستكون لطيفة معك وتهتم بمشاعرك؟ هل ستدعمك؟ هل ستكون منصفة؟ تلك هي الأسئلة التي جالت في ذهني حين كنا نتحدث. فيم كنت تفكّرين يا جميلة؟".
ردّت جميلة: "أنسيجم (أمي العزيزة)، طرحت على نفسي أسئلة مماثلة".
تابعت صفية خانم: "فهمت من مقبولة أن منزلة الأسرة الاجتماعية ونمط معيشتها منسجمان تماماً معنا. هم أيضاً تقليديون جداً من ناحية، لكن، واضح أنهم منفتحون للتغيير أيضاً؛ لأنهم أرسلوا ابنهم الوحيد ليدرس في فرنسا. لكن الحقيقة، يا عزيزتي جميلة، أنه من الصعب جداً أن تعرفي شخصاً كما يجب إن لم يرغب بذلك، والسؤال المهذب ليس كافياً. إذا طلبوا يدك، فسأصلّي صلاة استخارة وأرى ما تكشفه أحلامي قبل أن نرد عليهم. وماذا كان انطباعك العام يا عزيزتي؟".
ردّت جميلة: "كان انطباعي الأول إيجابياً. لكن، طبعاً من المبكر إبداء رأيي". أعطت هي أيضاً جواباً حذراً؛ لأن ذهنها أخبرها ألا ترفع آمالها قبل أن تعرف نوايا كامل، لكن قلبها، على كل حال، كان قد مال آنذاك.
لم تتأخر الإجابة في الوصول، وكان والد كامل وأعمامه سيطلبون يد جميلة للزواج، من والدها حكمت أفندي. بدأ والد جميلة فوراً يسأل عن أسرة كامل، وطلب معلومات من معارف مشتركين كانوا قد عرفوا الأسرتين منذ وقت طويل. لم يتوثق من حياة والد كامل المهنية فحسب، وإنما اتصل أيضاً بالسفير العثماني في باريس الذي كان يعرف بالتأكيد نشاطات كامل في فرنسا.
في تلك الأثناء، أدّت صفية خانم صلاة خاصة على نية معرفة ما إن كان الزواج ميموناً أم لا، ثم خلدت إلى النوم. رأت في حلمها كفيلتها الراحلة خيرية آنا التي كانت امرأة تقيّة وورعة جداً، وفي أي وقت ترى صفية خانم خيرية آنا في حلمها تعرف أنه أمر جيد. شاهدت أنها وكفيلتها تصعدان على سلالم طويلة، وعندما وصلتا أخيراً إلى أعلى البناء، في الطابق السابع، وجدتا غرفة قد فُتح بابها أمامهما. نظرت المرأتان إلى الداخل، ورأتا جميلة تجلس في وسط الحجرة، لكنها مجرد طفلة عمرها ست سنوات أو

سبع، تلعب بدمية ولا ترفع بصرها إلى الأعلى. استدارت صفية خانم إلى كفيلتها وسألت:

"ماذا تفعل جميلة هنا؟".

ردّت خيرية آنا: "أوه، لا تعرفين بعد، لكن جميلة سترتقي عالياً جداً في هذه الحياة".

استيقظت صفية خانم بعد ذلك، وهي لا تزال تشعر بوجود كفيلتها، وتستطيع حتى أن تشم شذا زيت الورد الذي كانت خيرية آنا تستخدمه دائماً. تنهّدت صفية خانم، وفسّرت الحلم على أنه إشارة إيجابية على زواج جميلة من كامل.

عندما عاد والد جميلة إلى المنزل ذلك المساء، أخبرته صفية خانم عن حلمها.

قالت والدة جميلة: "حكمت أفندي، لقد صلّيت صلاة الاستخارة اليوم، ورأيت حلماً. إنه فأل خير إن شاء الله".

سألها زوجها: "ماذا رأيت يا خانم؟".

شرحت صفية خانم كل تفاصيل الحلم، وذكرت أنها شمّت شذا زيت الورد الذي كانت خيرية آنا تستعمله.

قال حكمت أفندي: "أقول إنه حلم جيد. لكن، للتوثق فحسب، سنقصّ ذلك على حسنو بابا ونسمع رأيه".

كان حسنو بابا شيخاً يعيش في تكية قرب كانليكا، وقد عرف هو ووالد جميلة بعضهما بعضاً منذ الطفولة. وعلى الرغم من أن رجال الدين كانت لديهم تحفّظات، وأحياناً عداء صريح، نحو الشيوخ والصوفية، إلا أن حكمت أفندي يكنُّ احتراماً كبيراً لحسنو بابا. كان سبيلاهما الدينيان مختلفين: سلك حكمت أفندي درباً ظاهرياً، في حين اتبع حسنو بابا مذهباً باطنياً. لكن والد جميلة يعرف يقيناً، على كل حال، أن حسنو بابا رجل متنور وجدير بالثقة.

سألت صفية خانم بفضول: "هل حصلت على أي معلومات من السفير في باريس؟".

رد حكمت أفندي: "تلقيتها فعلاً. أسبغ أساتذة كامل ثناءً كبيراً على مهاراته الطبية وتهذيبه، وقالوا إن مستقبلاً زاهراً ينتظره. لم يكن لدى كل من تكلم القنصل معهم إلا أشياء جيدة يقولونها عن كامل. ما رأي جميلة في هذا كله؟ هل تُبدي اعتراضاتها المعتادة؟".

ردّت والدة جميلة: "جميلة تحاول إخفاء مشاعرها، لكن يمكنني رؤية

الوميض في عينيها كلما ذُكر اسم كامل. لا أظن أن هناك أي اعتراض هذه المرة".
استنتج حكمت أفندي، وصوته يرتعش قليلاً: "إذاً، إذا فسّر حسنو بابا الحلم على نحو إيجابي، أخمّن أنه لا يوجد سبب لرفض هذا الطلب".
نظرت صفية خانم إلى زوجها، ورأت ابتسامة على شفتيه، لكنها شاهدت في عينيه قلقاً من تزويج ابنتهما الوحيدة. كانت جميلة أكبر نعمة وبهجة في الحياة، وبدا صعباً حتى أن يتخيلا منزلهما من دون ضحكة جميلة وحماستها. كلما كان أحدهما يصاب بوجع أو ألم جسدي، كانت جميلة تواسيه وتعتني به، فحنانها، مثل مشاعرها الأخرى، متأصل في نفسها. كانت تعتني بكل الكلاب والقطط الشاردة في الحي، أو أي طائر يعاني كسراً في جناحه، وغيابها سيترك فراغاً كبيراً في حياتهما.
أيضاً، برز سؤال يتعلق بسعادتها، فقد وضع والد جميلة ووالدتها سعادة ابنتهما دائماً في المقام الأول. هل سيستطيع كامل أن يضع دائماً مصالح جميلة قبل مصالحه؟
ردّت صفية خانم على زوجها بالارتعاش نفسه في صوتها: "مفلام ني إيلرز غوزل إيلر" . [الخير في ما اختاره الله عزَّ وجل].
كان اليوم التالي يوم خميس، وأرسل عثمان أفندي - والد كامل - رسالة تفيد أنه سيأتي مع عمَّي كامل ذلك المساء ليطلبوا من والد جميلة يدها للزواج. كان حكمت أفندي قد سأل عن حسنو بابا أول شيء ذلك الصباح، لكنه عرف أن الشيخ قد ذهب إلى مكة المكرّمة ولا يُتوقع أن يعود قبل شهرين. لم يكن يتوقع من أسرة كامل أن تنتظر تلك المدة، لذا استدعى جميلة إلى مكتبه.
قال حكمت أفندي، وهو ينظر بحنان إلى عيني ابنته: "عثمان أفندي واثنان من أعمام كامل يرغبون بالمجيء هذا المساء ليطلبوا يدك للزواج. أولاً، أريد أن أعرف رأيك وشعورك بشأن هذا الزواج. هل كامل مقبول لك؟".
تورّدت جميلة خجلاً، لكن الاقتناع في صوتها بدا واضحاً: "بابا، أظن أن كاملاً هو الرجل الذي كنت أنتظره. قلبي يخبرني أنه هو المنشود".
تريّث حكمت أفندي لحظة؛ كأنه يزن شيئاً في ذهنه، ثم ردَّ بعد ذلك: "إذا كنت واثقة يا جميلة، فكل ما بقي لي هو أن أدعمك في هذا القرار وأصلّي من أجلك. لك مباركتي".
مالت جميلة، وقبّلت يد والدها اليمنى، وقبّل والدها جبينها، وسُوّيت المسألة، ثم أرسل خبراً إلى عثمان بيك أنهم موضع ترحيب ذلك المساء.

زار والد كامل واثنان من أعمامه- محمّلين بهدايا من الحلويات والورود- حكمت بيك ذلك المساء بعد العشاء، وطلبوا يد جميلة، وتلقوا موافقته على زواجها من كامل. كان العرف يفترض أن يقوم الرجال الكبار في السن من الأسرتين بإعداد ترتيبات الزواج واتفاقياته نيابة عن الشابين، وعلى الرغم من أنهم لم يناقشوا أي تفاصيل تلك المرة، إلا أن حكمت أفندي دعا كل أسرة كامل إلى العشاء بعد أسبوع.

عندما التقت الأسرتان في الأسبوع التالي، تناول الرجال والنساء العشاء منفصلين. وفي غرفة استقبال الذكور، رأى حكمت أفندي "كامل" شخصياً لأول مرة، ولم يخب أمله. كان سلوك كامل متواضعاً وواثقاً بالنفس في الوقت ذاته، ويجعل الناس يشعرون فوراً بالارتياح له؛ وتلك ميزة نفيسة لطبيب.

ناقش الرجال الكبار في السن مجدداً تفاصيل ترتيبات الزواج. أولاً، أُثيرت قضية المهر ، واقترح والد كامل هبة زواج بقيمة 20,000 قطعة ذهبية، يُدفع نصفها قبل الزواج والنصف الآخر مؤجل. ظنَّ حكمت أفندي أن ذلك مبلغ سخي، لذا وافق من دون إطالة النقاش.

بعد ذلك، ناقشوا مكان إقامة الزوجين، ومجدداً تولى عثمان أفندي زمام المبادرة، واقترح أن يسكن كامل وجميلة معه ومع سنية خانم في قصر أسرتهم في بلربي. ولأن "كامل" ابنهم الوحيد، سيكون القصر مُلكاً له بعد وفاتهما. وحتى ذلك الوقت، أرادا أن يمضيا سنواتهما الباقية من عمرهما قرب ابنهما.

رحّب حكمت أفندي بذلك العرض؛ لأنه يعني أن جميلة ستبقى قرب منزل أسرتها، وسيكون والداها بجانبها في حال احتاجت إلى شيء ما. وافق حكمت أفندي بتردد، لكنه أراد أولاً أن يناقش القضية مع جميلة ووالدتها.

في غضون ذلك، كانت صفية خانم وجميلة تستقبلان سنية خانم وزوجتَي عمَّي كامل اللتين رافقتاها في الحرملك. كانت إحدى النساء، نزلي - شاه خانم، جورجية جميلة خدمت في الحرملك السلطاني قبل زواجها، وقد أثارت قصصها عن حياتها في القصر اهتمام جميلة، لكنها لم ترغب بأن تبدو فضولية جداً.

بعد العشاء، وفي أثناء تناول النساء القهوة، استدعت صفية خانم إحدى جارياتها اليافعات التي تجيد العزف على العود. بعد أن عزفت الجارية عدّة مقطوعات بمهارة، سألت نزلي - شاه خانم إن كان بمقدورها أن تمسك العود، ولدهشة جميلة ووالدتها، بدأت سرايلي تعزف مقطوعة صعبة

من موسيقى عثمانية تقليدية. لاحقاً شرحت نزلي - شاه خانم أنها قد تدرّبت في القصر وعزفت، في الواقع، في الأوركسترا طوال خمس سنوات.
قبل أن يغادر الضيوف، دعت سنية خانم أسرة جميلة لتناول العشاء في منزلهم في الأسبوع القادم، وحصلت جميلة على وعدٍ من نزلي - شاه أن تعزف على العود مجدداً آنذاك.
عندما دخل حكمت أفندي الحرملك بعد أن غادر الضيوف، نظرت جميلة إلى والدها بترقّب، وفهم أنها تريد معرفة انطباعه عن كامل.
قال حكمت أفندي: " كانيم كيزيم (ابنتي الغالية) ، أنا، طبعاً، التقيت "كامل" هذا المساء".
ردّت جميلة بتشوّق: "نعم بابا".
رد والدها بابتسامة قولاً تركياً مأثوراً: "أظن أن الطنجرة وجدت غطاءها (يعني أنهما ملائمان لبعضهما تماماً)".
هتفت جميلة: "حقاً يا بابا؟ أرجوك أخبرني كل شيء عنه!".
تابع حكمت أفندي: "حسناً، كامل طويل ووسيم، لكن الأهم أنه يبدو شاباً جاداً وذكياً. يكِنُّ احتراماً كبيراً لتقاليدنا من ناحية، لكنه منفتح الذهن للتجديد أيضاً. وهو متحرر من القيود على نحو طبيعي، بعد أن درس ست سنوات في الخارج".
سألت جميلة: "وهل ستكون سعيداً بأن تدعوه ابنك يا بابا؟".
رد والدها، وهو يمسّد شعر الشابة: "نعم، ما دام يعتني بجميلتي جيداً، سأكون سعيداً جداً بأن أدعوه ابني".
ظنّت جميلة أن قلبها سينفجر. كان مهماً جداً لها أن تحظى بموافقة والديها على كامل، فذلك يجعلها تثق بأنها تتخذ القرار الصائب.
قال الوالد لجميلة: " ابنتي ، استدعي والدتك إلى هنا حتى نتكلم بشأن بعض التفاصيل".
نظرت الشابة إلى الغرفة المجاورة حيث رأت والدتها تجلس على سجادة صلاة. كانت صفية خانم قد أنهت للتو صلاتها وتقول أسماء الله الحسنى على خرز سُبْحتها. عانقتها جميلة بقوة، وذهبتا إلى غرفة الاستقبال حيث كان حكمت أفندي ينتظرهما.
بعد أن جلست صفية خانم، أخبرهما والد جميلة عن مهر الزواج. ظنّت والدة الشابة أيضاً أنه عرض سخي، فهي لم تكن قد سمعت بمبلغ أكبر في حلقتها الاجتماعية.
عندما أخبر حكمت أفندي جميلة ووالدتها عن اقتراح عثمان أفندي أن

يعيش الزوجان الشابان معهما في بلربي، رأى نظرة ارتياح على وجه صفية خانم التي كانت سعيدة لأن ابنتها لن تبتعد كثيراً عنهما.
سأل والدها: "ما رأيك بالسكن مع حمويك يا جميلة؟".
ردّت جميلة: "بابا، أولاً لن أكون بعيدة كثيراً عنك وعن أمي ، وهذا يسعدني كثيراً. ثانياً، سنية خانم امرأة ناضجة، وتتمتع بخبرة كبيرة، وأمضت وقتاً طويلاً في أوروبا حين كان كامل يدرس في باريس. أنا واثقة أن بمقدورها تعليمي أشياء عديدة".
عندها أضافت صفية خانم مازحة: "أنا واثقة أن كل الكلاب والقطط الشاردة في بلربي ستكون سعيدة بانتقال جميلة إلى هناك". فضحكوا جميعاً.
في الأصيل التالي أُرسل مُقدَّم مهر جميلة إلى منزلهم، وردّت أسرتها بإرسال ما يدعى رزمة الخطوبة إلى أسرة كامل، وهي مجموعة من الهدايا لكل أفراد الأسرة، ومن بينهم عمّا كامل وزوجتاهما. لُفّت الهدايا، التي ضمت أيضاً فاكهة وحلوى، بقماش ساتان مزخرف على نحو جميل، ثم رُبط القماش بحزمة نقلتها مربية جميلة، جول - شاه، إلى منزل كامل.
وفقاً للعرف، عندما تتلقى أسرة كامل رزمة الخطوبة ، تردّ بإرسال طقم الخطوبة ، ويتكون من خمس صوانٍ كبيرة، كل منها تُغلّف بقماش وتُربط بشريط كبير. تضم الصواني ورودا،ً وفاكهة، ومربّيات، وتوابل، وقهوة، وحلوى، وحنّة. كانت هناك هدايا لكل أفراد الأسرة وأشياء خاصة لجميلة، مثل مواد استحمام كالعطور، وأمشاط عاجية، وقباقيب مطعّمة باللؤلؤ، ومرآة فضية اليد، وحوض غسيل فضي صغير. حملت إحدى الصواني قماشاً مخملياً أحمر من أجل فستان العرس إضافة إلى أقمشة أثواب أخرى، والأهم علبة فضية فيها درج صغير يضم خاتماً يحمل ماسة كبيرة.
عندما ذهبت جميلة ووالداها إلى قصر بلربي لتناول العشاء، ناقش الرجال مجدداً تفاصيل ترتيبات الزواج، وقرّروا إقامة حفل الزفاف الرسمي بعد ثلاثة شهور في منزل العروس، ما يسمح بوقت لإنهاء التحضيرات. وجرياً على العادة، سيُوقع العريس والعروس عقداً قانونياً، وسيجري تسجيله في المحكمة، وينص على مقدار المهر وشروطه، ومبلغ النفقة أو المصروف اليومي الذي سيُدفع للعروس من أجل احتياجاتها الشخصية، وشروط خاصة أخرى. كان احتفال الزفاف، الذي يعد مناسبة عامة، سيُقام بعد عدّة أيام من المراسم الرسمية، ولن يتم الزواج قبل ذلك الوقت.
في قاعة الاستقبال الكبيرة في الحرملك، نظرت جميلة حولها في أرجاء الغرفة التي ستكون جزءاً من منزلها الجديد. كان خرير الماء المتدفق بانسيابية من

النافورة الرخامية شجياً في أذنيها. نظرت إلى خارج النافذة نحو المضيق، ورأت مركباً شراعياً كبيراً يبحر هناك. كان الوقت مساءً والشمس القرمزية تبدو مثل ذهب سائل يذوب خلف التلال البعيدة، وشاهدت صيادين في قوارب صغيرة يعودون إلى منازلهم برزق ذلك اليوم. بدا أن للبوسفور تألّقاً وحيوية خاصة به، وذلك فاتن ويخلب الألباب. شعرت جميلة بالسكينة والقناعة وهي تجلس في تلك الغرفة، وأحسّت أنها في دارها ؛ في منزلها الجديد.

كانت النساء يناقشن الأزياء ونماذج فساتين العروس، ووصفت سنية خانم بعض عباءات العروس البيضاء وفاتحة الألوان التي قد رأتها في أوروبا. كانت تلك الأزياء قد بدأت تدخل ببطء مجتمع إسطنبول، لكنها لا تزال نادرة جداً. أثنت صفية خانم على نموذج قفطان الزفاف الأحمر التقليدي الذي ارتدته هي ونساء عثمانيات أخريات طوال قرون.

قالت: "لا شيء أكثر جمالاً من قفطان أحمر مطرّز بخيط ذهبي أو فضي بتصميم بن دالي (ألف غصن)".

سألت سنية خانم: "وما رأي جميلة؟".

ردّت: "أتفق مع آن. أشعر بالشرف لارتداء فستان من التصميم نفسه الذي ارتدته والدتي وجدّاتي من قبلي".

وافقت النساء الأخريات على ذلك وغيرن موضوع الحديث.

بعد العشاء، وفت نزلي - شاه بوعدها وعزفت عدّة مقطوعات على العود، وغنّت الجواري أيضاً ورقصن أمام الضيفات. كانت أمسية رائعة، ولم ترغب جميلة حقاً بتوديعهن، لكن التقاليد تقضي ألا تبقيا وقتاً طويلاً، فلم يكن يُفترض بعروس المستقبل أن تبدو متشوقة جداً أبداً.

بدأت في اليوم التالي سلسلة نشاطات في منزل جميلة، فقد كانت هناك فساتين يجب خياطتها ومواد من جهاز العروس ينبغي إنهاؤها. كانت صفية خانم بارعة في حرفتي التطريز وصناعة المخرّمات، كما هي حال معظم النساء العثمانيات، ومنذ ولادة جميلة، بدأت والدتها تستعد لذلك الوقت. كانت العشرات من ملاءات السرير، وأغطية الوسائد، والمناشف، والمناديل، وأغطية المائدة، والملابس الداخلية، والأوشحة، والمناديل اليدوية، وعدد آخر لا ينتهي من الأشياء قد أُعدّت بمهارة ومحبة لجهاز عرس جميلة. أُخرج كل ذلك من الصناديق الكبيرة حيث كانت مخزّنة، وعُرّضت للهواء، وفُحصت بحرص، ثم جرى إنهاؤها عند الضرورة.

طبعاً، كان ينبغي خياطة فستان العرس، وقررت جميلة أنها تريد أن يكون

قفطان زفافها مطرزاً بخيط فضي ومزيناً بلآلئ صغيرة. استُدعيت خيّاطة أرمينية ماهرة لإنجاز ذلك، وشرعت في العمل على المخمل الأحمر الذي أُرسل في طقم الخطوبة. ساعدت كل الجاريات في تحضير جهاز العروس وفقاً لمهاراتهن، وجاءت حتى الجارات لتقديم يد العون، فأضحى منزل جميلة يعج نشاطاً.

أراد حكمت أفندي ذلك المساء بعد العشاء أن يناقش الشروط الخاصة التي يجب إضافتها إلى عقد الزواج. استدار إلى صفية خانم، وسأل زوجته: "صفية، هل لديك أي اقتراحات تتعلق بعقد الزواج؟".

ردّت صفية خانم: "نعم، لدي. أنصح ألا تنتقل جميلة وكامل إلى خارج إسطنبول. أظن أنه من الحكمة أن تكون جميلة قريبة كفاية حتى نتمكن من مساندتها في وقت الحاجة".

سأل والدها: "جميلة، ماذا عنك؟ هل لديك أي شروط خاصة؟".

قالت جميلة: "لا يا بابا، لا يمكنني التفكير في أي شيء".

سأل حكمت أفندي: "ماذا عن شرط أن تحصلي على الطلاق من دون أن تفقدي مؤخر المهر في حال تزوج كامل امرأة أخرى؟".

دُهشت جميلة قليلاً، لكنها ردّت: "لكن يا بابا، كنت أظن أن رجالاً قلائل يتزوجون امرأة ثانية. أليس تعدد الزوجات غير مقبول اجتماعياً؟".

رد والدها: "جميلة، إنه غير مقبول اجتماعياً إلا إن كانت زوجة الرجل الأولى عاقراً، إلا أن الشرع يجيز للرجل المسلم أن يتخذ أربع زوجات. إذا لم تضعي شرطاً خاصاً في عقد زواجك، فلن يكون كامل مسؤولاً عن دفع مؤخر مهرك في حال أردت الطلاق".

لم تتخيل جميلة شخصاً متنوراً مثل كامل يتخذ زوجة ثانية، لكن من ناحية أخرى لم ترغب أن تعارض والدها، لذا وافقت.

قالت: "حسناً يا بابا، إن كنت تظن أنها فكرة سديدة".

قالت والدتها: "والدك محق يا جميلة. تضع العديد من النساء العثمانيات هذا الشرط في عقودهن. إضافة إلى ذلك، درهم وقاية الآن خيرٌ من قنطار علاج لاحقاً".

مدركاً عدم وجود شروط أخرى، اقترح حكمت أفندي أن تخلدا إلى النوم؛ لأن أمامهما أشياء كثيرة تفعلانها.

انتابت جميلة مشاعر مختلطة بانقضاء الأيام والأسابيع. كانت قد عاشت حياتها كلها في كنف والديها الآمن، ولم تضطر قط إلى أن تطلب شيئاً منهما؛ لأنهما عرفا دائماً احتياجاتها سلفاً. كان اهتمامهما وعنايتهما بها قد

جعلا حياة جميلة في منتهى السهولة. أدركت أنها ستنطلق قريباً، على كل حال، على درب جديدة مع رجل غريب عليها، وجعلها غموض ما هو مخبّأ لها تشعر ببعض القلق والتوتر.

من ناحية أخرى، أحسّت بانجذاب قوي نحو كامل، بالرغم من أنها لم تتكلم إليه بعد. كان قلبها قد أخبرها أن الزواج من كامل قرار صائب. ونظراً إلى عدم وجود طريقة لتتوثق من أنها تقدم على الخطوة الصحيحة، لم يكن بمقدورها إلا أن تثق بفطرتها أن ذلك لن يؤدي إلى خيبة أمل...

الفصل الثالث

قصر دولمبهس، 1858

كانت أعمار ساسا وكل الفتيات الشركسيات الثلاث الأخريات في العربة تقل عن العاشرة. لم يكن تدريب الجواري أسهل حين يكنّ صغيرات فحسب، ولكن لأن مدة خدمة الفتيات البيضاوات اليافعات تسع سنوات، كان الصبا ميزة للانتقاء من أجل الخدمة في قصر السلطان. بعد أن يخدمن المدة المحددة، تحصل أولئك الشابات على حريتهن ويُمنحن وثيقة قانونية تثبت ذلك. وإذا لم يلفتن انتباه السلطان أو يُنتقين محظيات لأمراء، يمكن أن يسلكن إحدى طريقين مفتوحتين أمامهن: يمكن أن تبقى الشابات الموهوبات والبارعات في القصر ويرتقين السلم الإداري، أو يتزوجن من النخبة العثمانية الحاكمة. بسبب تدريبهن، وكياستهن الاجتماعية، وعلاقاتهن بالأسرة المالكة، كان كثيرون يسعون إلى الزواج من أولئك الفتيات.

بعد بعض الوقت، غادرت العربة الشارع الرئيس، ودخلت أراضي القصر عبر بوابة السلطانة الوالدة. توقفت الأحصنة أمام الحرملك، وفتح رؤوف أفندي باب العربة فخرجت الفتيات الأربع منها. لم تكن ساسا قد رأت قط مثل تلك المباني الضخمة، وشعرت بالارتباك قليلاً. تجاوزت الفتيات حارسين أسودين حين دخلن الحرملك، وقابلتهن جارية في العقد الرابع من العمر تدعى فرح - شاه.

قالت فرح - شاه، بابتسامة واسعة على وجهها: "أهلاً إلى منزلكن الجديد أيتها الأخوات الصغيرات. آمل أن تحظين بإقامة ممتعة". تكلمت إلى الفتيات بلغة شركسية.

كانت ترتدي قفطاناً أزرقَ فيروزياً من النسيج المطرز بأزهار مذهّبة، وقميصاً حريرياً شفافاً ، وشروالاً حريرياً أصفر تحت قفطانها، وتعتمر قبعة مخملية دائرية صغيرة تدعى هوتاز ، وتضع قلادة لؤلؤ حول عنقها، وتنتعل خفّين مزينين بمعدنٍ لامع. كان سلوك فرح - شاه موقراً جداً، وبدا أنها أرستقراطية وليست جارية، وتصرفاتها تنم على تهذيب كبير.

عندما اقتيدت الفتيات على طول الممر، رأين عدّة جوارٍ يافعات أخريات، كلهن يرتدين ثياباً جميلة، وابتسمت الشابات مرحّبات بالوافدات. اصطُحبت الفتيات إلى غرفة كبيرة تضم جواري جديدات يتدرّبن. كانت القاعة مضاءة ورحيبة، فيها أرائك عثمانية منخفضة مدمجة بالجدران في ثلاث جهات منها. شاهدن خزانة خشبية كبيرة في الطرف الآخر من الغرفة تضم فُرشاً ضمن أشياء أخرى، وكانت حُصر مصرية مصنوعة من القصب تغطي تماماً الأرضية

الخشبية، وهناك سجادة كبيرة في وسط القاعة.
بعد وصول الفتيات الجديدات بوقت قصير، استُدعيت خياطتان ومساعداتهما؛ اللواتي سيخطن فوراً ثياباً جديدة للوافدات، وسُجّلت مقاساتهن حتى تستطيع الخياطتان البدء بالعمل. منُحت كل الفتيات شراويل ساتان ملونة، وقمصان كتان صفراء، وسترات مطرّزة، وأحذية ينتعلنها بعد الاستحمام، ثم اصطُحبن فوراً إلى الحمام .
يتكون الحمّام من غرفتين كبيرتين فيهما ركائز من الرخام الرمادي، تدعى الأولى غرفة البارد، وهي التي تعتاد فيها المستحمات على هواء البخار الدافئ قبل أن يدخلن غرفة الساخن. بعد الخروج من غرفة الساخن، يمكنهن أيضاً الاستلقاء هناك قبل العودة إلى غرفة تبديل الملابس. توجد في كلتا الغرفتين أحواض رخامية كبيرة يتدفق إليها ماء بارد وساخن من صنابير. وتوجد حجرة تغيير ثياب فسيحة ملحقة بالحمام، حيث تنزع الفتيات ثيابهن قبل أن يدخلن للاستحمام، ثم يرتدين ملابسهن بعد الانتهاء من ذلك.
عندما دخلت ساسا والفتيات الأخريات غرفة تبديل الملابس، مُنحن ملاءات كتانية كبيرة ليضعنها حول أجسادهن، وعلّمتهن الخادمة هناك كيف يلففن أنفسهن ليغطين أجسامهن من صدورهن إلى ركبهن. توارت الفتيات بعد ذلك واحدة تلو الأخرى خلف ستارة حريرية مطرّزة بفراشات ملونة كبيرة، وخلعن ثيابهن، لففن الملاءات الكتانية حول أجسادهن. مُنحت كل فتاة أيضاً علبة صابون معدنية صغيرة مزوّدة بمقبض في أعلاها كي يسهل حملها، وثقوب في أسفلها لاستخراج المادة، وتضم أيضاً مشطاً وقطعة حرير خام، إضافة إلى الصابون.
قادت الخادمة في غرفة تبديل الملابس الفتيات إلى غرفة البارد وسلّمتهن إلى خادمتي حمام ستساعدانهن على الاستحمام وغسل شعرهن. غُسلت الفتيات بالصابون، وفُركن، ونُشّفن، وعُطّرن، واستغرقت العملية كلها ساعتين تقريباً. كانت غرفة الساخن حارة جداً على ساسا، وبالكاد استطاعت أن تتنفس هناك، وعندما ظنّت أنها ستفقد الوعي، أعادتها الخادمة إلى غرفة البارد حيث انخفضت حرارة جسدها تدريجياً. على كل حال، عندما نظرت إلى نفسها في المرآة في غرفة تبديل الملابس، تعرّفت بصعوبة إلى الوجه اللامع المتورد الذي يحدّق إليها. ارتدت الفتيات الثياب واسترحن لبعض الوقت على الأرائك في غرفة تبديل الملابس، وشربن عصيراً بارداً وتناولن فاكهة أحضرتها الخادمة لهن.

بعد بعض الوقت، جاءت مشفقة وهي جارية شابة في منتصف العشرينيات من عمرها، لتعيد الفتيات إلى غرفتهن. كانت إحدى الجواري المهمات الأربع المنتقيات للإشراف على الفتيات العشرين في الغرفة التي ستقيم فيها ساسا، وتعمل آنذاك مع جارية مهمة أخرى، لكن ستحل محلهما امرأتان أخريان في الأسبوع القادم. بعد الاستراحة لمدة أسبوع واحد، ستعودان للقيام بالعمل نفسه. أحبّت ساسا النظرة اللطيفة في عيني الجارية الزرقاوين، وذكّرتها قليلاً بالحنان في عيني والدتها.

عندما عدن إلى غرفتهن، لم تكن الجاريات الجديدات الأخريات قد عدن بعد، لكنهن وجدن الجارية الأخرى هناك. عرّفت الجارية المهمة مشفقة بالمرأة الشابة:

"هذه غولبهار، واسمها يعني وردة الربيع . أليست رائعة مثل وردة الربيع؟".

كانت غولبهار ترتدي ثوباً زهرياً طويلاً ضيقاً عند الخصر، وهناك أزرار لؤلؤ صغيرة من ياقتها نزولاً إلى خط وركها. كانت تنورتها مصنوعة من ثلاث قطع: واحدة في الخلف، واثنتين منفصلتين في الأمام. والجانبان مخيطان حتى الوركين، وتحت ذلك سروال ساتان أبيض فضفاض، وبراعم ورود صغيرة مجدولة في شعرها الداكن الطويل، وتنتعل خفّين زهريين لامعين مطعّمين باللؤلؤ. نظرت الفتيات إليها بإعجاب واضح للعيان، ووافقن جميعاً أنها تبدو، فعلاً، مثل وردة ربيع جميلة.

تابعت مشفقة: "عندما تأتي الفتيات أول مرة إلى القصر، يُمنحن دائماً اسماً جديداً مناسباً". سألت، وهي تستدير إلى الجارية المهمة الأخرى: "أي أسماء يجب أن نختارها لهؤلاء السرايلي(الجواري) الجديدات؟".

قالت غولبهار، وهي تبتسم إلى أكبر الفتيات سناً: "انظري إلى تينك الوجنتين المتوردتين. لماذا لا ندعوها غوليزار (متوردة الخدّين)؟".

عندما نظرت الأخريات إليها، توردت الفتاة خجلاً وازدادت حمرة وجنتيها.

استدارت مشفقة إلى الفتاتين الأخريين الأكبر سناً، وقالت: "ماذا عن ديلارا (محبوبة) وحسنو-ملك (الملاك الجميل)؟ ألا تظنان أنهما اسمان ملائمان؟".

وافقت غولبهار، وهنأت الفتيات الثلاث على أسمائهن الجديدة. استدارت بعد ذلك إلى ساسا وقالت:

"انظري إلى الضياء في وجهها. لا شيء سيفي هذه الأخت الصغيرة حقها باستثناء ديدنور! إنه يعني ضوء عينيَّ".

كرّرت الاسم بنفسها: دي-د-نور. أحبت الطريقة التي يُلفظ بها ومعناه أيضاً.

ابتسمت بخجل لغولبهار.
تمنّت مشفقة أمنية لكل الفتيات الأربع. "آمل أن تكون أسماؤكن الجديدة مفيدة وميمونة!".
عادت باقي الفتيات - اللواتي سيصبحن زميلات ديدنور الجديدات في السكن - إلى غرفتهن بعد ذلك بوقت قصير، وتعرّفن إلى بعضهن بعضاً، وبدأن يتآلفن معاً. على كل حال، لم تكن هناك صرخات أو ضحكات عالية، إنما مجرد غمغمة حديث. كانت معظم الفتيات أكبر سناً من ديدنور، لكن هناك فتاة يافعة واحدة من جورجيا عمرها نحو ثماني سنوات، اسمها سرفتسزا (غنى). بدا جمالها - حتى في ذلك العمر الباكر - أخّاذاً. كانت طويلة مقارنة ببنات جيلها ونحيلة. شعرها أسود فاحم طويل، وعيناها خضراوان. أصبحت الفتاتان اليافعتان صديقتين فوراً، بالرغم من أنهما قد واجهتا بعض الصعوبة في التواصل لعدم إتقانهما لغة مشتركة. بدأت سرفتسزا فوراً تعلّم ديدنور كلمات عثمانية جديدة.
جاءت عدّة فتيات من خدمة أدوات المائدة عند الساعة الخامسة، وبدأن بوضع صواني العشاء في الغرفة. أولاً، بسطن غطاءً دائرياً كبيراً مطرّز الحواف على الأرضية لتسقط عليه أي فتات قد تقع، ووضعن فوقه طاولة صغيرة منخفضة تشبه مَنصباً، لكن بأربع قوائم قابلة للطي. وُضع غطاء مطرّز آخر على الطاولة المنخفضة، ثم صينية نحاسية كبيرة مكسوة بطبقة قصديرية، ووسائد صغيرة حول حافة الغطاء الأول. تكرّر ذلك حتى جُهّزت خمس صوانٍ كبيرة، وحصلت كل فتاة على منديل خاص بها ومجموعة من الملاعق؛ تغسلها بعد كل وجبة.
حُملت صوانٍ خشبية كبيرة من الطعام من منطقة المطبخ على رؤوس تابلاكار أو حمّالين، ووُضعت على مقاعد طويلة ثابتة في ردهة المدخل داخل الحرملك السلطاني. كانت أطباق الطعام على الصواني قد لُفّت ورُبطت بقطع قماشية في المطبخ حتى لا يبرد الأكل، ثم وزّعت الفتيات في خدمة الإطعام تلك الصواني إلى الغرف المختلفة. عندما مشت تلك المجموعة من الفتيات بانسجام في الأروقة، بدون أنيقات جداً في مآزرهن البيضاء المطرّزة عند الحواف.
في الغرف، أشرفت مسؤولات الطعام على الصواني، وغسلت جميع الفتيات أيديهن قبل أن يجلسن باستخدام أباريق ماء وأحواض جلبتها خادمات. سكبت إحدى الخادمات الماء، في حين حملت أخرى الحوض لجمع ما تبقّى منه، وأمسكت خادمة ثالثة منشفة لتجفيف اليدين. جلست الجواري

المهمات إلى طاولة منفصلة، وخدمتهنّ فتيات مكلّفات بذلك، في حين جلست الفتيات المتدربات حول الصواني الأربع الأخرى.
وُضع طبق يضم أوعية صغيرة من الملح والفلفل والقرفة على كل صينية، إلى جانب إبريق زجاجي من عصير الليمون، ووضعت أطباق الطعام في وسط الصواني حيث يستطيع الجميع الوصول إليها. لم يكن هناك طبق خاص بكل فرد، ويقضي العرف أن يأكل كل من يجلس إلى صينية العشاء من تلك الأطباق المشتركة، ويُظنُّ أن الاشتراك في الطبق نفسه يزيد البركة.
بدأت الوجبة بتناول حساء العدس الأحمر، تبعته فطائر مملوءة جبناً، ويخنة باذنجان وضأن، وورق عنب محشو، ثم طبق أرز، واكتملت الوجبة بتحلية من مشمش مجفف.
لاحظت ديدنور كيف تأكل الفتيات بكياسة. كن يتناولن قضمات صغيرة جداً، ولا يأكلن إلا من الطعام أمامهن، وأيضاً يغمسن إحدى حافتي الملعقة في الحساء ويضعن الحافة الأخرى في أفواههن. كن يستخدمن اليد اليمنى فقط، ولا يعبثن بالطعام أو يمددن أيديهن فوق صينية العشاء.
أكلت جميع الفتيات بصمت؛ كأنهن يؤدين فعلاً مبجلاً. بعد الوجبة تلت مشفقة دعاء الشكر، ثم غسلت كل الفتيات أيديهن مجدداً بمساعدة خادمات سكبن الماء فوق أناملهن إلى أحواض نحاسية.
تابعت سرفتسزا تعليم ديدنور كلمات عثمانية جديدة بعد أن نهضن عن صينية العشاء، وبدأت تسمية كل المواد على الأطباق: ملح (توز)، فلفل (بيبر)، القرفة (تارسن)، ثم طلبت من ديدنور تكرارها. لم يسع سرفتسزا إلا أن تقهقه حين قالت ديدنور (تاز) التي تعني الغبار باللغة العثمانية، بدلاً من أن تكرر توز التي تعني الملح؛ وعندما علمت ديدنور بغلطتها، ضحكت أيضاً.
استمرت الفتيات يتحدثن بهدوء حتى صلاة المغرب، حين أُضيئت فوانيس في الغرفة، وأُخرجت سجاجيد صلاة مطرّزة بنقوش معقدة من خزانة كبيرة مدمجة في الجدار ومُدّت على الأرضية. لم تعرف ديدنور كيف تؤدي صلاة المسلمين، لكن سرفتسزا أخبرتها أن تفعل الأشياء نفسها التي تقوم بها بالضبط. قلّدت ديدنور صديقتها الجورجية الجديدة، وقامت بحركات الصلاة. عند الانتهاء من ذلك قرأت إحدى الفتيات الأكبر سناً بعض آيات القرآن الكريم. وعلى الرغم من أنها لم تفهم معناها، إلا أن صوت الترتيل مسّ على ما يبدو شيئاً عميقاً في روح ديدنور، وشعر قلبها بطريقة ما بمزيد من الطمأنينة.

بعد رفع سجاجيد الصلاة، وإعادتها إلى الخزانة، جلست كل الفتيات على الأرائك العثمانية ليستمعن إلى قصة من غولبهار.
جالت ببصرها في أرجاء الغرفة؛ لتتوثق من أنها تحظى باهتمام الجميع، شرعت غولبهار:
"قصة الليلة عن فيلة أم وابنها: في سالف العصر والأوان، في الهند، كان حكيم يمشي على طريق ترابي حين رأى مجموعة من الرجال. كانوا جائعين، من دون زاد، وعراة تقريباً، وبدا واضحاً أنهم يسافرون منذ وقت طويل. انشرح قلب الحكيم لهم، وبعد أن حيّاهم زوّدهم بنصيحة حكيمة.
قال: أعرف أنكم تتألمون بسبب الجوع والإرهاق، لكن، حباً بالله، لا تجعلوا صغير الفيلة طعاماً لكم! إن الفيل موجود في الاتجاه الذي تسلكونه، لا تحرقوا قلب الأم على صغيرها. انتبهوا لكلامي.
الفيل الصغير على طريقكم، وأعرف أن قلوبكم ترغب باصطياده.
إنه ضعيف وواهن وبدين جداً، لكن والدته تبحث عنه وتنتظره.
ستجول نائحة مسافة مئة ميل بحثاً عن صغيرها.
احذروا من إيذاء صغيرها العزيز على قلبها.
تابع الحكيم الصادق: أصغوا إلى هذه النصيحة مني؛ حتى لا تُبتلى قلوبكم وأرواحكم.
اقنعوا بالأعشاب والأوراق، ولا تطاردوا صغير الفيلة.
لقد أدّيت واجبي الآن في تحذيركم. جئت لأنقل هذه الرسالة، حتى أستطيع إنقاذكم من ندم لا يفيد.
احذروا! لا تدعوا الجشع يتربص بكم!
قال الحكيم هذا وغادر بعد أن ودّعهم".
توقفت غولبهار لحظة لتلخّص باللغة الشركسية ما قد سردته حتى ذلك الوقت، لتتمكن الوافدات الجديدات من متابعة القصة، ثم تابعت بالعثمانية:
"ازداد إرهاق الرجال وجوعهم مع كل خطوة على الطريق.
فجأة، رأوا في اتجاه الطريق الرئيس فيلاً صغيراً بديناً، مولوداً حديثاً.
هاجموه مثل ذئاب ضارية، وقاموا بشيّه وأكلوه، ثم غسلوا أيديهم.
لم يأكل أحدُ المسافرين، وتوسل إلى الآخرين للامتناع عن ذلك؛ لأنه تذكر قول الحكيم الدرويش.
منعته تلك الكلمات من تناول لحمه المشوي، وعرف أن الحكمة القديمة تهب حياة من جديد.
ثم استلقوا جميعاً على الأرض وناموا، باستثناء الجائع الذي بقي مستيقظاً

مثل راعي قطيع.
رأى الفيلة الأم تقترب، وركضت أولاً نحوه.
شمّت فمه ثلاث مرات: لم تخرج منه رائحة كريهة.
دارت حوله عدّة مرات ثم ابتعدت، ولم تؤذه.
شمّت رائحة شفتي كل نائم، واكتشفت أن رائحة لحم ابنها اليافع تنبعث من كلٍّ هؤلاء الرجال النائمين.
فما كان من الفيلة الأم إلى أن داست ومزقت كل من أكل من لحم صغيرها ولم تخشَ في ذلك شيئاً.
لقد قذفت كل رجل في الهواء بقوة، فارتطم بالأرض ثم سحقته تحت قوائمها".

* * *

"أوه يا آكلي السحت، أكلتم صغيري. اعلموا أن سيد الفيلة سيكتم أنفاسكم!... لقد شمَّ ذلك حقاً، لكنه أخفى الحقيقة عنا. ترتفع الروائح العطرة والنتنة إلى السماء. عندما خلدتم إلى النوم، وصلت رائحة ذلك الفعل الشرير إلى السماء الزرقاء... ستصبح رائحة الغرور والجشع والرغبة مثل رائحة البصل حين تتكلمون. أقسمتم أنكم لم تأكلوا بصلاً وثوماً، لكن رائحة أنفاسكم تشهد ضدكم... لم تُقبل صلوات عديدة بسبب الرائحة...".
كانت الجاريات اليافعات قد أصغين جميعهن إلى القصة باهتمام بالغ، ولخّصت غولبهار باقي القصة بلغة شركسية، ثم طلبت من الفتيات أن يخبرنها عن مغزى القصة بكلماتهن. علّقت إحدى الفتيات الأكبر سناً أن العبرة يمكن أن تنطبق على أي إثم، وقالت أخرى إنه حتى إذا لم يستطع أشخاص آخرون أن يشموا رائحة خطايانا، فإن الله يعرفها بالتأكيد. أثّرت القصة بقوة في ديدنور، وأقسمت سراً ألا تثير غضب الفيلة الأم أبداً.
بعد تمرير أطباق الفاكهة المجففة والمكسرات بينهن، أُخرجت السجاجيد مجدداً لأداء صلاة العشاء. وعندما قلّدت ديدنور حركات سرفتسزا تلك المرة، طلبت من الله أن يجعل أنفاس روحها نقية وطاهرة.
بعد الصلاة، مُدّت الفرش للنوم، ونامت كل فتاة على فراش منفصل. في النهار تبقى الفرش مكدّسة في الخزانة الكبيرة. من أجل السيطرة الكاملة على الغرفة، وُضع فراش كل جارية مهمة بحيث تكون فرش خمس فتيات إلى يمينها وخمس إلى يسارها. شعرت ديدنور بالسعادة حين رأت أن فراشها قد وضع بجانب فراش مشفقة. تُرك مصباح مشتعلاً طوال الليل، ولاحقاً ستتوثق مجموعة من جوارٍ خبيرات تلقب كل واحدة منهن بلقب كاتبة

من الغرفة عدّة مرات خلال الليل، ومن واجبهن التحقق أنه ما من شيء ناقص في الحرملك.

في ساعات الصباح الباكر، بدأت ديدنور تحلم، ورأت مجدداً الضباب يحيط بقريتها، لكنه بدا تلك المرة مختلفاً، وأقل شراً. سمعت ديدنور صوت والدتها: "ابنتي العزيزة، لا تقلقي بشأننا، فنحن جميعاً بخير. نجم يصبح أكبر وأقوى كل يوم. نشتاق إليك كثيراً، لكننا نضع مستقبلك بين يدي الله".

استيقظت ديدنور فجأة، وأُصيبت بالارتباك للحظة ولم تفهم أين هي، ثم رأت مشفقة تجلس على فراشها وتتلو أسماء الله الحسنى باستخدام سُبحتها. مالت مشفقة نحو ديدنور، وربتت على رأسها وطلبت منها أن تعود إلى النوم؛ لأن الوقت لا يزال باكراً جداً. استمدت ديدنور الراحة من وجود مشفقة ومن حلمها، ووضعت رأسها على الوسادة وغطّت في النوم.

استيقظت كل الفتيات قبل وقت قصير من الفجر ليؤدين صلاة الفجر. رُفعت الفرش ورُتّبت الغرفة مجدداً، ثم بدأت الفتيات يقرأن ويدرسن القرآن الكريم، وساعدت اللواتي يمتلكن بعض المعرفة الأخريات. كانت مدرّستهن تستمع إلى تلاوتهن مرة أسبوعياً، وإذا أبلت إحدى الفتيات حسناً، تحظى بدرس جديد للأسبوع القادم. بدأت ديدنور والوافدات الجديدات تعلّم الأبجدية العربية والآيات القصيرة التي تُتلى في أثناء الصلاة. في البداية، بدت الأحرف العربية غريبة جداً عليها، لكن بعد وقت قصير أضحت مألوفة لها.

بعد انتهاء الدروس الدينية، بدأت دروس اللغة العثمانية، ومجدداً ساعدت اللواتي يعرفنها في تعليم الأخريات. عندما أنهت سرفتسزا درسها، ساعدت ديدنور في حفظ كلمات جديدة، وبابتسامة واسعة على وجهها، سألت صديقتها الجديدة عن كلمة ملح، ولفظتها ديدنور هذه المرة على نحو صحيح.

قضين ساعة في تناول الفطور، تبعها درس في التطريز. كانت هاندرو، مدرّستهن، قد جلبت حزمة كبيرة من قطع التطريز لتستخدمها الفتيات كنماذج في العمل، وفيها أغطية وسائد، ومناشف، وسجاجيد صلاة، وأغطية مائدة، ومناديل، وثياب، وحتى ملابس داخلية مزخرفة بتصاميم رائعة من الورود، والخزامى، والقرنفل، وزهرة الربيع، والنرجس. دُهشت ديدنور من مهارة تطريز تلك الأشياء، وتساءلت إن كان بمقدورها أن تنجز مثل تلك الأعمال الفنية الجميلة. وبعد رسم تصميم أزهار بسيط على قطعة قماش

صغيرة، بدأت ديدنور تطرّز الخطوط، واستغرق الأمر منها ساعة لإنجاز وردة بسيطة. عندما انتهت، أُصيبت بخيبة أمل كبيرة جعلتها تسحب الخيط وتبدأ كل شيء من جديد. أخبرتها سرفتسزا ألا تُصاب بالإحباط، وأن كل الفتيات تقريباً في القصر يصبحن في النهاية بارعات في التطريز.

نظرت سرفتسزا إلى ديدنور بعينين متقدتين، وقالت: "هل تعرفين ما سنفعله الليلة؟".

هزّت ديدنور رأسها "لا".

هتفت الفتاة الجورجية: "ستقام الليلة حفلة موسيقية في جناح السلطانة الوالدة. ستكون نساء الأسرة الحاكمة جميعهن على الأرجح هناك، وربما السلطان نفسه! لا يسعني الانتظار".

تساءلت ديدنور إن كانت قد فهمت جيداً. هل يمكن أن ترى السلطان حقاً تلك الليلة؟

ذلك المساء بعد العشاء، ارتدت كل الفتيات ثياباً جميلة، وأولين عناية خاصة لشعرهن، وساعدت الجواري المهمات الجواري اليافعات على الظهور بأبهى حلة؛ فقد كانت كل أولئك الفتيات مسؤوليتهن، وأردن أن يتركن أفضل انطباع ممكن لدى الأسرة الحاكمة. ارتدت سرفتسزا ثوباً حريريًّا أخضر طويلاً مزركشاً بخيط ذهبي حول الياقة العالية والردنين والحاشية، فانسجم الأخضر مع لون عينيها، وضُفرت خرزات ذهبية في شعرها الأسود الطويل. لبست ديدنور أحد الفساتين الجديدة التي خيطت لها، وكان ثوباً حريرياً أزرق داكناً طويلاً مع سترة فضفاضة قصيرة مبطّنة، وضُفرت لآلئ في خصلتين من شعرها تتدليان على جانبي وجهها، في حين تُرك باقي شعرها منسدلاً فوق كتفيها. عندما نظرت ديدنور إلى نفسها في المرآة لم تصدّق عينيها، فلم تكن قد امتلكت أو حتى رأت مثل ذلك الثوب الجميل في قريتها.

رافقت الجواري المهمات التي تلقب كل واحدة منهن بلقب كالفا الفتيات إلى الطابق الأعلى عند السابعة، وانضممن إلى حشد كبير من الجواري الأخريات اللواتي كن قد وصلن للتو ويجلسن على الأرضية على بساط كبير مُدَّ في طرف قاعة ضخمة. وبسبب صغر عمرهن، سُمح لسرفتسزا وديدنور بالجلوس أمام الفتيات الأكبر سناً مع عدد من الجواري اليافعات الأخريات. نظرت ديدنور حولها بذهول في أرجاء القاعة الرائعة التي كانت مضاءة على نحو ساطع من ثريا كريستالية ضخمة معلّقة في وسط السقف، ورأت ثريات مثبتة في زوايا القاعة الأربع أيضاً. كان سقف القاعة مزخرفاً بإتقان

بأسلوب باروكي، وهناك كراسٍ وأرائك منجّدة بقماش مقصّب قرمزي لامع مطرّز بورود صفراء كبيرة، والستائر مصنوعة من قماش حريري مماثل مقلّم بالأحمر والأصفر. كانت مرايا ضخمة مثبّتة بأُطر مطلية بالذهب على جانبي الغرفة، وسجادة صفراء وقرمزية ضخمة تغطي معظم الأرضية الخشبية، المصممة على نحو هندسي، وهناك مزهريات كبيرة من الخزف الصيني مملوءة وروداً على حوامل خشبية مرصّعة بلآلئ.

في إحدى زوايا القاعة كانت زوجات السلطان الأربع وثلاث نساء محظيات أدنى مرتبة من الزوجة تلقب كل واحدة منهن بلقب إقبال يجلسن على كراسٍ وفقاً لمرتبتهن؛ ابتداءً من السيدة الأولى (قادين خانم)، ثم السيدة الثانية، ... إلخ، وهناك اثنتان من بنات السلطان أيضاً: السلطانة حميدة (عشر سنوات) والسلطانة عليا (سبع سنوات). بدت الزوجات والأميرتان متألقات بهاءً في ثيابهن الأنيقة، وترتدي معظمهن أزياء تقليدية، وكل النساء يتزيّنّ بمجوهرات ثمينة مثل الألماس والياقوت والزمرد. كانت محظيات السلطان نساء شركسيات جميلات قد دخلن في وقت ما الحرملك كجوارٍ صغيرات، وبعد خضوعهن لتدريب وإعداد صارم، استحققن موقعهن الرفيع. وعلى الرغم من أن هؤلاء النساء لم يكن يتمتعن بالمكانة الشرعية للزوجات، إلا أنهن مقبولات اجتماعياً على أنهن زوجات، ويحظين بكل المهابة والاحترام اللذين يرافقان مثل تلك المكانة العالية.

شَغلت أوركسترا مكونة من جوارٍ يحملن أدوات موسيقية شرقية وغربية الزاويةَ المقابلة لنساء الأسرة الحاكمة. كان أفضل الموسيقيين العثمانيين في ذلك الوقت يعلّمون فتيات الرقيق في القصر اللواتي يتمتعن بموهبة طبيعية في الموسيقى. جلست العازفات على وسائد صغيرة على السجادة، وكن جميعهن يرتدين قفاطين مقصّبة طويلة بألوان مختلفة وسراويل ساتان فضفاضة تحتها، ويعتمرن قبعات صغيرة بشكل طربوش فوق رؤوسهن، تتدلى أوشحة حريرية شفافة منها. ظنّت ديدنور أنهن يبدون مثل باقة من ورود الربيع.

دخل الخزندار أو رئيس الخزانة الغرفة للإعلان عن وصول السلطان، فوقف كل من فيها. كان السلطان برفقة والدته، السلطانة الوالدة، وعندما دخل القاعة، أدّت كل النساء الحاضرات - باستثناء والدته - التحية العثمانية التي تسمى تمنّى وهي عبارة عن رفع اليد اليمنى إلى الشفتين ثم إلى الجبين وانحنين كثيراً احتراماً له. حيّا نساء الأسرة الحاكمة واحدة بعد الأخرى، ثم جلس في مكانه على أريكة خاصة معدّة له، وجلست السلطانة

الوالدة والأميرات إلى يمينه، والمحظيات إلى يساره وفقاً لمكانتهن. نظرت ديدنور إلى السلطان بحرص. بدا بديناً قليلاً، عيناه بنيتان واسعتان، في منتصف العقد الثالث، ويتصرف بلطف كبير مع صاحبات السمو. كان السلطان يرتدي بذلة أوروبية الطراز، لكنها مطرزة بخيوط ذهبية كثيرة على السترة، وأزراره والحجارة على ياقة سترته ألماس لامع، ويعتمر طربوشاً أحمر بسيطاً على رأسه.

أشار السلطان بيده، وبدأت العازفات يعزفن على آلاتهن، وبعد أن أنهت الأوركسترا خمس مقطوعات عثمانية تقليدية، أُعلن عن استراحة قصيرة، وقُدّمت القهوة؛ أولاً للسلطانة الوالدة والسلطان، ثم إلى الزوجات. سخّنت الفتيات العاملات في خدمة القهوة بمهارة وأناقة البنّ في قدر ذهبيّة على منقل صغير تحمله إحداهن، وسُكب السائل في أكواب خزفية جميلة وُضعت على صحون مزخرفة بالذهب ومزينة بحجارة كريمة صغيرة. بدت مراسم تقديم القهوة رائعة بالنسبة إلى ديدنور، مثل كل شيء آخر في تلك الأمسية. بعد جمع الأكواب استؤنف الحفل، وعُزفت ثلاث مقطوعات موسيقية غربية كلاسيكية. وعند نهاية البرنامج، هنّأ السلطان العازفات، ومنحهن الخزندار هبات مالية من الخزانة. تكلم السلطان مع صاحبات السمو وقتاً قصيراً، ثم غادر إلى غرفه القريبة، وحذت نساء الأسرة الحاكمة حذوه ثم غادرت الجواري أيضاً. ألقت ديدنور نظرة أخيرة على القاعة قبل أن تغادرها، ورأت الأضواء الساطعة تنعكس عن المرايا الكبيرة على الجدران، وتمنح الغرفة كلها جواً رائعاً.

في اليوم التالي، كانت ديدنور لا تزال تحت تأثير الأمسية السابقة، وفي أثناء صفوفها الصباحية، فكّرت في الحفل الموسيقي والأسرة الحاكمة أكثر من دروسها. تبادلت الفتيات الأخريات أيضاً انطباعاتهن عن الحفل في كل فرصة ممكنة. وعندما حان موعد الفطور، استدعت مشفقة ديدنور وسرفتسزا جانباً.

قالت مشفقة، وهي ترسم على وجهها ابتسامة واسعة: "لدي بعض الأنباء الرائعة لكما أنتما الاثنتين، يا أختيَّ الصغيرتين".

سألت الفتاتان معاً: "ما هي؟".

"لقد أرسلت والدة الأميرة عليا تقول إنها تريد رؤيتكما. شاهدتكما الليلة الماضية في الحفل، وتأمل أن تكونا وصيفتين مناسبتين للأميرة عليا. إذا وافقت هي والأميرة عليكما، فستذهبان إلى جناحها بعد ظهر كل يوم لتلازما صاحبة السمو. تناولا وجبتكما الآن ثم سأصطحبكما إلى هناك".

شعرت الفتاتان ببهجة وإثارةٍ كبيرتين كادتا أن تمنعاهما عن إنهاء وجبتهما. بعد أن ارتدت ديدنور وسرفتسزا أفضل ثيابهما وسرّحتا شعريهما مجدداً، اصطحبتهما مشفقة إلى الطابق الأعلى حيث جناح الأميرة. كانت الأميرة عليا تعيش مع والدتها تيرال خانم في جناح خاص في الطابق الثاني من الحرملك. اقتيدت الفتاتان إلى حجرة انتظار مزوّدة أساساً بأثاث غربي، ورأتا أريكة وكراسيَ منجّدة بقماش حريري ذهبي عتيق، وسجادة كبيرة خضراء وذهبية تغطي أرضية خشبية. وفي وسط الغرفة، كان هناك منقل فضي كبير يعلوه غطاء نحاسي، يُستخدم لتدفئة الغرفة في الطقس البارد. كانت لوحات زيتية لمشاهد طبيعية تزّين الجدران، وهناك إبريق وكؤوس كريستالية على صينية فضية تجثم على طاولة صغير بجانب مزهرية مملوءة وروداً.

شاهدت الفتاتان ثلاث غرف أخرى وحماماً تتفرّع عن الحجرة الرئيسة، إحداها غرفة نوم الأميرة، وفيها سرير كبير بأربع قوائم تحيط به ستائر بيضاء. كان غطاء الفراش مصنوعاً من حرير أحمر عليه تصميم وردة خزامى مطرّز بخيط ذهبي، وتوجد فوق السرير مظلة عليها تاج كبير يشير إلى أنه يخص أميرة. كانت إحدى الغرف الأخرى حجرة نوم والدة الأميرة، وإلى جانب سرير وأريكة وخزانة ملابس، هناك مكتبة على أحد الجدران، وكما هي حال معظم المحظيات الأخريات، تمضي تيرال خانم معظم وقت فراغها في القراءة. تُستخدم الغرفة الثالثة كقاعة جلوس، والباب الرابع يؤدي إلى حمام رخامي رمادي حيث تنقسم المساحة المخصصة للاستحمام والمرحاض إلى مكانين منفصلين، ويوجد بجانب باب الحمام عددٌ مما بدا أنها أبواب خزانة، لكنها تحجب في الواقع سلالم تقود إلى الأعلى والأسفل. كانت رئيسة الجواري المهمات وعدد آخر من اللواتي يخدمن المحظية والأميرة يعشن في الطابق الأسفل، ويمكنهن باستخدام السلالم الوصول إلى الغرف من دون أن يضطررن إلى استعمال الدرج الرئيس للحرملك.

أول شيء لاحظته ديدنور حين دخلت حجرة الانتظار هو البيانو الجاثم بجانب الجدار، الذي لم تكن لديها أي فكرة عن طريقة استخدامه. طلبت الجارية المهمة التي فتحت الباب منهن الانتظار دقيقة حتى تبلغ تيرال خانم والأميرة عليا عن مجيئهن. ثم عادت واصطحبتهن إلى غرفة نوم الأميرة عليا حيث كانت الأميرة ووالدتها تجلسان على أريكة صغيرة، وعندما دخلت مشفقة والفتاتان الحجرة، انحنين كثيراً أمام المحظية السلطانية والأميرة وأدّين التحية التي تسمى تمنّى . أشارت تيرال خانم إلى بعض الوسائد المخملية الحمراء على الأرضية، وطلبت منهن الجلوس.

كانت الأميرة عليا ترتدي ثوباً مجعداً أزرقَ داكناً غربي الطراز، مع شريط أبيض مزركش حول الياقة. شعرها بني داكن قصير يمنحها مظهراً صبيانياً، وعيناها داكنتان، وجلدها شاحب. عندما رفعت ديدنور بصرها إليها، أشرق وجه الأميرة بابتسامة واسعة.

سألت الأميرة، قبل أن تحظى مشفقة بفرصة التعريف بالفتاتين: "أنسيجم، هل هاتان رفيقتا اللعب الجديدتان؟".

ردّت والدتها: "إن أردتِ أن تكونا كذلك".

صرخت الأميرة الصغيرة: "أريدهما، حقاً. لنبدأ اللعب حالاً!". وثبت عن الأريكة، وأمسكت ديدنور وسرفتسزا من يديهما وقادتهما إلى البيانو، ثم جلست وبدأت تعزف لحناً بسيطاً. فتن الصوت ديدنور، ولم يسعها إلا أن تأمل من صميم قلبها أن تستطيع يوماً ما، أيضاً، أن تعزف على هذه الآلة الرائعة.

بعد وقت قصير سألت مربية الأميرة عليا الفتيات إن كن يرغبن برسم بعض الصور، ووافقن جميعهن وجلسن إلى طاولة صغيرة في غرفة الأميرة. أحضرت المربية ورقاً وألواناً مائية جُلبت حديثاً من فرنسا، وانكبّت الفتيات الثلاث بدأبٍ على رسم أفضل صورة ممكنة. رسمت السلطانة عليا طاووساً يعيش في حدائق القصر، في حين رسمت سرفتسزا بقعة من ورود الخزامى، ورسمت ديدنور النجم كما تخيّلت مظهره.

أحضرت جارية مهمة أخرى بعض عصير الليمون وكعكاً بالسمسم للفتيات، وبعد انتهائهن من تناول العصير طلبت الكالفا مشفقة إذناً ليغادرن.

قالت الأميرة المفعمة حيوية: "أمنحكن إذني بالمغادرة، لكن بشرط واحد".

سألت مشفقة: "وما هو يا أميرتي؟".

ردّت الأميرة عليا بابتسامة كبيرة على وجهها: "سأسمح لكنّ بالمغادرة فقط إن وعدتِ أن تعود ديدنور وسرفتسزا غداً".

قالت والدة الأميرة: "يبدو الأمر واضحاً. منذ الآن فصاعداً سنتوقع مجيء الفتاتين كل أصيل".

استأذنت مشفقة والفتاتان بالانصراف، وانحنين احتراماً، ثم غادرن الجناح، وعلى الرغم من أن أحداً لم يتكلم في رواق الحرملك، إلا أن جارية مهمة رأت البهجة في عيون الفتاتين. وقالت: "كم هما محظوظتان هاتان السرايلي الصغيرتان. لا تحظى فتيات كثيرات بشرف وصافة أميرة".

تابعت ديدنور دروسها في الدين واللغة العثمانية وآداب سلوك الحرملك كل صباح، ثم ذهبت يومياً مع سرفتسزا لتزورا الأميرة عليا بعد الظهر. علّمت

جارية مهمة شابةٌ تعمل في خدمة الأميرة الفتيات الثلاث التطريز، ورافقت ديدنور وسرفتسزا الأميرة عليا مرتين أسبوعياً أيضاً إلى درس البيانو، الذي تعطيه جارية مهمة متمرّسة تتلمذت على يدي موسيقي فرنسي شهير. كان ذلك وقت ديدنور المفضّل، وبدا أن الموسيقى ترفع معنوياتها.

سُمح في أحد الأيام للأميرة عليا وديدنور وسرفتسزا باللعب في حدائق الحرملك، وسلّمت مربية الأميرة الفتيات إلى إحدى حارسات الحرملك عند باب القصر. كان يوماً صيفيًّا دافئاً، ورائحة الياسمين وصرخات النورس تملأ الجو. استمتعت ديدنور بالنباتات الخضراء الكثيفة، واستغرقت في أفكار عن وطنها وأحداث الشهور العديدة السابقة، لكن صوت سرفتسزا أعادها فجأة إلى الواقع.

صرخت سرفتسزا: "انظري! انظري! إنه الطاووس الذي رسمته الأميرة عليا!".

نظرت ديدنور والأميرة في الاتجاه الذي تشير سرفتسزا إليه، فرأتا طاووساً أخضر وأزرق جميلاً قد عرض كل ريشه ويمشي مزهواً أمام الفتيات؛ كأنه يلفت انتباههن.

قالت الأميرة: "انتظري لحظة يا سرفتسزا. إذا كان هذا هو الطاووس الموجود في رسمتي، فماذا يفعل هنا؟".

انفجرت الفتيات الثلاث ضحكاً معاً. وبدا أن ذلك قد أزعج الطاووس؛ لأنه أغلق ريش ذيله فوراً وركض عائداً إلى الأجمة.

الفصل الرابع

بلربي، 1858

في أثناء انتقال العربة التي تحمل جميلة واثنتين من جواريها نحو قصر رابية، حيث كانت نساء من النخبة العثمانية يحضّرن جهاز العروس لفتاة فقيرة من الحي، تابعت جميلة تذكّر الأحداث بعد خطبتها من كامل:

حلَّ يوم مراسم الزواج الرسمي أخيراً، وقد حصل الإمام المحلي على إذن من القاضي لتزويج الشابين، وجاء إلى منزل حكمت أفندي بعد ظهر الخميس. انتظرت جميلة ووالدتها وسنية خانم في غرفة ملحقة بابها مفتوح. كان عقد الزواج سيُوقّع بحضور الإمام وشاهدين ذكريْن، وراقب كامل ما يحدث حين بدأت الإجراءات.

قبل التوقيع، قرأ الإمام شروط العقد بصوتٍ عالٍ، وفيها البندان اللذان طلبهما حكمت أفندي. عندما سأل الإمام جميلة إن كانت تقبل بالزواج، ردت "نعم"، ثم وقعت جميلة وكامل والإمام العقد الذي سيسجّله الإمام قانونياً.

تبع هذه المراسم البسيطة حفلُ عشاء فخم لكلتا الأسرتين والإمام والشاهدين، لكن الرجال والنساء تناولوا الطعام منفصلين طبعاً. وعلى الرغم من أن جميلة و"كامل" كانا متزوجين رسمياً آنذاك، إلا أنهما سيبقيان غريبين عن بعضهما بعضاً حتى حفل وليمة الزفاف العامة.

بعد انتهاء العشاء وذهاب والديها إلى النوم تلك الليلة، استلقت جميلة مستيقظة في سريرها، لا تصدّق تقريباً أنها امرأة متزوجة رسمياً آنذاك. تساءلت جميلة عن أفكار كامل ومشاعره، وهل يتوق إلى النظر لعينيها كما تتوق للنظر إلى عينيه؟ لو كان بمقدورها فقط أن تكون معه آنذاك... لكن الأعراف والتقاليد لا تسمح بذلك، وعلى جميلة أن تتحلّى بمزيد من الصبر.

يوم الاثنين من الأسبوع التالي حُمل جهاز عرس جميلة من منزل أسرتها في كانليكا إلى بيتها الجديد في بلربي في موكب عروسٍ جميل. حمل عدد من الخدم الذكور على رؤوسهم سلالَ خيزران كبيرة مملوءةً مناشفَ، ووسائدَ، وأوشحةً، وأقمشة، ومزهرياتٍ، وخزفاً صينيًّا، ... إلخ، وكل أنواع المواد المنزلية الصغيرة. نقل آخرون صوانيَ من الفاكهة والورود والحلويات، وكان كل وعاء مغلّفاً بقماش ناصع البياض، ومربوطاً بأشرطة حمراء كبيرة. حملت خيول وبغال الفُرشَ الحمراء والسجاجيد وأدوات منزلية كبيرة أخرى، ونُقلت مواد ثقيلة مثل صناديق البياضات والملابس والمناقل المعدنية على متن عربات

تجرّها ثيران.
في نهاية الموكب كانت هناك عدّة عربات من صديقات جميلة وقريباتها، وطبعاً مربيتها جول - شاه، التي ستتولّى مسؤولية الإشراف على عرض جهاز العروس في منزلها الجديد، ومع تقدم الموكب ببطء على طول الطريق الساحلي الضيق، عبّر مشاهدون وعابرو سبيل عن أطيب الأمنيات والآمال للزوجين الجديدين. سدَّ بعض الصغار طريق الموكب حتى حصلوا على قطع نقدية صغيرة، جرياً على العادة، فقد كان المال يُوزّع دائماً بسخاء في أثناء كل نشاطات احتفالات الزواج؛ للفوز بقلوب القوم ودعائهم.
عندما وصل الموكب إلى قصر بلربي، حُمل جهاز جميلة إلى جناح العروسين المؤلف من غرفتين، والمخصص لكامل وعروسه الجديدة. كانت غرفتان لهما إطلالة رائعة على مضيق البوسفور قد أُعدّتا للزوجين، وضُمَّ إليهما حمام صغير خاص أيضاً.
أشرفت دادي جول - شاه على ترتيب الأثاث وعرض جهاز العروس. ووفقاً للعرف، عُرضت في إحدى الغرفتين كل الملابس، والبياضات، والمناشف، والأغطية، والأوشحة، وأغطية الأرائك، ومجموعة قهوة فضية، وأدوات الطعام، والأحواض، والأباريق، والمرايا اليدوية الخاصة بجميلة على نحو بديع لتشاهدها الضيفات. كان هناك أيضاً عدد من الأحجار الكريمة التي مُنحت على أنها هدايا للعروس من أقرباء الأسرة وأصدقائها، وعُرضت تحت علب زجاجية مربوطة معاً بشرائط حتى يكون بالإمكان رؤية المجوهرات، لكن من دون أن تُفتح العلب.
في زاوية الغرفة الأخرى صُنعت مظلة من أوشحة جميلة ومطرزاتها الحريرية وأكاليل ورود لتجلس تحتها وتستقبل زوجها أولاً، ثم كل الضيفات يوم الخميس. بحلول المساء كانت الغرفتان قد جُهّزتا على نحو كامل، وأُعدّتا للعروس والعريس، وسرعان ما سيقام حفل الزفاف هناك.
كان الثلاثاء يوم استحمام العروس، وذهبت جميلة وصفية خانم ودادي جول - شاه ودزينة أو نحو ذلك من الخادمات إلى حمّام كبير في الصباح الباكر. أمضت جميلة عدّة ساعات في الحمام وهي تُغسل بالصابون، وتُفرك، وتُدلّك، وتُعطّر، ووُضعت خلطة أعشاب خاصة على فروة رأسها لجعل شعرها صحياً ولامعاً.
عندما غادرت جميلة غرفة الساخن، كانت دادي جول - شاه تنتظرها في غرفة البارد لتضفر شعرها، ولم تستطع المربية أن تحبس الدموع في عينيها حين جدلت شعر جميلة. بالمحصلة كانت هي من مشّطت شعر جميلة

وجدلته في ضفائر منذ طفولتها الباكرة، وتضرّعت بصمت أن يكون مستقبل حبيبتها الغالية سعيداً. استغرقت مهمة جَدل الشعر نحو نصف ساعة، ثم عادت جميلة إلى غرفة تبديل الثياب الكبيرة حيث تنتظر كل ضيفاتها.

كان الصخب كبيراً هناك، مع موسيقى غجرية وراقصات وثرثرة النساء والفتيات. قبّلت جميلة، وهي ترتدي ثوب استحمام مطرّزاً على نحو مترف بخيط ذهبي حول الحواف، أيدي النساء ووجنات نظيراتها اللواتي قدّمن بالمقابل تهنئتهن. وبعد ارتداء ثوب حريري بلون الدراق، ستبقى فيه حتى تلبس فستان عرسها، اصطُحبت جميلة إلى عرش العروس المصنوع من قماش أبيض وشرائط ملونة. جلست مثل ملكة، وشاهدت أداء الراقصات الغجريات، وبعد انتهاء عرضهن، قُدّمت عصائر للضيفات.

على الرغم من انقضاء الأصيل، إلا أن الجميع ترددن في ترك العروس المتألقة، فزيارة الحمّام تعدُّ دائماً تجربة اجتماعية ممتعة للنساء، وفرصة لهن لرؤية صديقات قديمات ومعرفة آخر الأنباء. كان ذلك اليوم على كل حال خاصاً جداً، والجو مملوءاً بأطيب الأمنيات وأفضل الآمال لجميلة، ومعظم النساء هناك قد عرفنها منذ نعومة أظافرها ويتمنين كل الخير لها. كن جميعاً سعيدات وفخورات بالاشتراك في انتقال جميلة من مرحلة الصبا إلى الأنوثة الكاملة.

في وقت باكر من أصيل الأربعاء استضافت جميلة ووالدتُها سنية خانم قريباتِها وصديقاتِها. استُقبلت النساء الضيفات عند الباب، واصطُحبن إلى غرفة الاستقبال الكبيرة في الحرملك، وقُدّمت لهن هناك قهوة وحلوى. بعد ذلك بوقت قصير، دخلت جميلة الغرفة، وقبّلت أيدي النساء، ابتداءً من والدة كامل، وبعد الجلوس زمناً وجيزاً بجانب حماتها، خرجت من الغرفة. بقيت الضيفات، على كل حال، يشاهدن الترفيه الذي تقدّمه موسيقيات وراقصات، وزادت الموسيقى الجذلة وأداءُ الراقصات الحماسي متعةَ احتفال الزفاف. عندما همّت الضيفات بالمغادرة، جاءت جميلة إلى الباب لتوديعهن، وقذفن جميعهن قطعاً نقدية فوق رأسها نحو الشوارع إلى الباعة والأطفال الذين ينتظرون بصبر تلك اللحظة هناك.

كانت تلك ليلة الحنّة، وهو الوقت الذي تودّع فيه جميلة مرحلة الصبا. وبعد اجتماع كل الصديقات والقريبات وجارات كلٍّ من العروس والعريس في قاعة الاستقبال، دخلت جميلة الغرفة مع حشدٍ كبير من صديقاتها الشابات غير المتزوجات. بدت كل الفتيات أنيقات بفساتينهن الجميلة، وشعرهن مزيّن بمجوهرات وورود، وكن يحملن شموعاً مضاءة في أيديهن.

أنشدت وصيفات العروس أغاني زفاف تقليدية مهيبة في أثناء مرافقتهن جميلة. بعد ذلك بوقت قصير، على كل حال، ازداد صخب الموسيقى ودخلت الراقصات للترفيه عن الضيفات.

في أثناء تقديم أطباق من كل نوعٍ يمكن تخيّله من الفاكهة المجففة والمكسّرات، خرجت جميلة من الغرفة مع اثنتين من وصيفاتها. نزعت ثوبها الحريري، وارتدت قميصاً كتانياً وشروال ساتان، ووضعت خماراً أحمر فوق وجهها، وعادت إلى الغرفة، وجلست على كرسي في وسطها. دُهنت طبقة كثيفة من الحنّة على راحة يدها اليمنى، ووضعت سنية خانم قطعة نقدية ذهبية كبيرة عليها، وحذت الضيفات الأخريات حذوها. دُهنت الحنّة على يد جميلة الأخرى، وغُلّفت كلتا اليدين بكيسين صغيرين حتى تثبت الحنّة. استمر الغناء والرقص حتى غادرت معظم الضيفات، لكن معظم صديقات طفولة جميلة بقين لتمضية الليلة معها، وسهرن يتحدثن مع جميلة حتى ساعات الفجر الأولى، وهكذا أمضين الليلة الأخيرة من مرحلة صبا جميلة معاً.

في صباح اليوم التالي، ساعدت صفية خانم، ودادي جول - شاه، وصديقات جميلة اللواتي أمضين الليلة معها، والخادمات في تجهيز العروس. أولاً، ارتدت جميلة قميصاً حريرياً أبيض شفافاً مزيّناً بقطع فضية صغيرة، وشروالاً حريريًّا أحمر مطرّزاً بخيط فضي حول الخصر والساقين. ساعدت صفية خانم جميلة في ارتداء قفطانها المخملي الأحمر القرمزي المطرّز كله بخيط فضي ومزيّن بلآلئ صغيرة بيضاء بتصميم غصن أنيق. ألبستها خادمتان حذاءَها المصنوع من جلد البقر المزخرف أيضاً بخيط فضي ولآلئ. أما دادي جول - شاه فساعدت جميلة في تقلّد مجوهراتها؛ عقد من حجارة كريمة وقرطين مماثلين أهدتها إياها أسرة كامل، وأكثر من عشرين سواراً ذهبياً من أقرباءِ كلا الجانبين. وضعت في إصبعها خاتم ياقوت كبيراً؛ هبة من والدتها ووالدها، إضافة إلى خاتم زواجها.

جلست جميلة على أريكة ومشّطت دادي جول - شاه شعرها الداكن، وجدلت ثماني ضفائر تدلّت خلفها، وحُبكت خيوط فضية طويلة تدعى شرائط العروس في كل ضفيرة. وعندما أصبح شعرها جاهزاً، فعلت صديقات جميلة ما يدعى زينة الوجه . أولاً، بيّضن وجه جميلة بمسحوق، ووضعن مستحضر تجميل أحمر على وجنتيها، وبعد ذلك وضعن خطاً رفيعاً من سورمي (مخطط العين)، ثم ثبّتن حجارة كريمة صغيرة على جبينها ووجنتيها وذقنها. بعد ذلك، حان دور خمار العروس الحريري الأحمر الطويل المطرّز

بخيط فضي، الذي امتد فوق فستان عرسها. وُضع تيبليك مخرّم أو عَمرَة عروس مزيّنة بمجوهرات على رأسها فوق الخمار. وبعد انتهائها من ارتداء كسوة عرسها، بدت جميلة اسماً على مسمى وفاتنة.
أمسكت صفية خانم ذراع ابنتها، وقادتها إلى مكتب حكمت أفندي. كان الوالد جالساً يقرأ القرآن الكريم، وعندما رأى جميلة، وقف ونظر إليها كأنه يراها للمرة الأولى. لم تعد جميلة ابنته الصغيرة الحلوة، فقد أصبحت شابة مدهشة.
حان آنذاك وقت قيام حكمت أفندي بتنفيذ آخر واجباته تجاه ابنته قبل أن تغادر منزل والدها: مراسم حزام العروس. جثت جميلة وقبّلت يد والدها، ثم رفعها وطوّقها بحزام فضي مزركش رائع على مشبكه ياقوتتان كبيرتان. كان الحزام لوالدتها، ووضعته صفية خانم حول خصرها حين كانت عروساً. ترقرقت الدموع في عيون الجميع، ممزوجة بالفرح والحزن معاً، فالحياة لن تكون نفسها مجدداً لأي منهم. كانت صفية خانم وحكمت أفندي يرسلان ابنتهما المحبوبة إلى مرحلة جديدة مجهولة المعالم من رحلة حياتها.
قال والدها وهو يتكلم بصعوبة: " كانيم كيزيم (ابنتي العزيزة) ، أستودعك عناية الله".
ردّت جميلة: "وأستودعكما عناية الله أيضاً".
لم يقل أحد أي كلمات أخرى، فلم تكن هناك حاجة إليها.
في تلك الأثناء، كانت مجموعة كبيرة من قريبات كامل قد وصلن لاصطحاب العروس ومرافقتها إلى منزلها الجديد، وكان والد كامل وأقاربه الذكور على صهوات أحصنتهم، في حين كانت السيدات في العربات. دخلوا جميعاً المنزل لتناول العصائر، وبعد تبادل أطراف حديث لطيف، رافقت المجموعة جميلة إلى عربة العروس، وجلست دادي جول - شاه بجانب جميلة، وبصفتها ممثلة أسرة العروس، كان لها دور مهم تلعبه في ليلة العروس الأولى.
تقدم موكب العروس ببطء على طول الطريق الساحلي بين كانليكا وبلربي. كانت أوشحة طويلة ملوّنة معقودة حول أعناق كل الأحصنة، وعدد من قارعي الطبول يرافقون المجموعة التي تعلن عن اقتراب العروس الجديدة. بدت شمس الأصيل ساطعة على مياه البوسفور، وأضافت بهاءً إلى يوم رائع. مجدداً سدَّ أطفال ومتسولون طريق الموكب بين الحين والآخر على طول الطريق، ووُزّعت قطع نقدية عليهم بسخاء.

مع تقدم الموكب، بدأ حزن مغادرة منزل والديها وطفولتها يتلاشى حين فكّرت جميلة في كامل وحياتهما الجديدة معاً، وشعرت بحرارة تتقد في قعر معدتها. عندما وصل موكب العروس إلى مقصده، كان كامل ينتظر عند بوابة الحديقة. توقفت عربة العروس أمام القصر، وفتح كامل الباب، أمسك ذراع جميلة، وساعدها على الترجل منها، وخرجت دادي جول - شاه أيضاً من العربة، ومشت جميلة بينهما عبر الحشد الكبير من النساء اللواتي تجمّعن في انتظارها. شعرت جميلة بدفء يد كامل على ذراعها عبر ردن فستان عرسها. وعلى الرغم من أن قلبها كان يخفق بقوة، إلا أن العروس الجديدة بدت هادئة ورابطة الجأش. دخلوا المنزل، ورافق كامل ودادي جول - شاه جميلة إلى غرفة العروس. بقيت دادي جول - شاه عند باب الغرفة لتمنح الزوجين بضع دقائق وحدهما معاً قبل أن تدخل الضيفات.

قاد كامل جميلة إلى عرش العروس الذي أعدَّته لها صديقاتها وقريباتها يوم الاثنين. وبعد أن جلست جميلة عليه، رفع خمارها ونظر إلى عينيها بإمعان. قال كامل برفق: "لقد كنت أنتظر هذه اللحظة منذ سمعت عنك لأول مرة. جميلة، أنت أكثر جمالاً مما تخيّلت".

أخرج كامل ماسة كبيرة مزوّدة بمشبك من جيبه، وثبّتها في شعر جميلة، وكان العرف يقضي أن يقوم العريس بمنح عروسه هدية دلالةً على إعجابه بها حين يرى وجهها أول مرة. مال كامل إلى الأمام وكاد يقبّل العروس حين قرعت دادي جول - شاه على الباب لتشير إلى أن ضيفات جميلة قد وصلن. استأذن كامل بالانصراف، لكنه وعد بأن يعود في أسرع وقت ممكن، وشعرت جميلة أن قلبها يذوي عندما نظر إلى عينيها حين غادر ليستقبل ضيوفه الرجال في السلملك .

اندفع حشد من النساء اللواتي يحملن هدايا زفاف إلى الغرفة، وهنأت كلٌّ منهن بمفردها العروسَ الجديدة، فشكرتهن على مجيئهن وهداياهن. تفحّصت النساء- معظمهن من الجارات- جهاز عرس جميلة، وأسبغن المديح والثناء عليه. قُدّمت قهوة وحلوى زفافٍ لكل الضيفات، وبعد ساعتين من العرض العلني، ذهبت جميلة إلى غرفة جلوس كبيرة حيث كانت نساء الأسرة وصديقاتها يتناولن العشاء ويتسلّين بالموسيقى. قبّلت جميلة يدي والدتها وحماتها، ثم شكرت كل ضيفة بمفردها على المجيء، وقبلَت تهنئتها.

كان كامل يؤدي طقساً مشابهاً في غرف الذكور، حيث يتناول زملاء وأصدقاء وأقرباء وليمةَ الزفافِ ويتسلّون. بعد الانتهاء من الوجبة، جلس العديد من الرجال يشربون القهوة من فناجين خزفية صغيرة أنيقة،

ويدخّنون نراجيل يجلب جمارها عشرات الخدم الذين يرتدون سراويل فضفاضة سوداء وسترات سوداء وقمصاناً بيضاء، ويلفّون شالات حمراء مقلّمة حول خصورهم ويعتمرون طرابيش حمراء على رؤوسهم. ملأ شذا البن المخمّر حديثاً والتبغ بطعم الفاكهة الجوَّ، وفي إحدى زوايا الغرفة الكبيرة كانت مجموعة من الموسيقيين تعزف على أدوات وترية، وتقرع طبولاً ودفوفاً صغيرة.

عندما سُمع أذان صلاة المغرب من مئذنة مسجد قريب، نهض كل الرجال وذهبوا لأداء الصلاة معاً. هناك، يتركون البهجة والاحتفال خلفهم، ويتساوى الغني والفقير، ويركعون جميعاً لله، جنباً إلى جنب، ويؤدون شعائر الصلاة معاً. بعد الانتهاء من الفريضة، عاد كل الضيوف إلى الاحتفال. وفي أثناء تلقي التهاني والأمنيات الطيبة، قبّل كامل يَدَيْ والده وحميه، ثم استأذن من ضيوفه وعاد إلى غرفة العروس.

كانت جميلة قد عادت أيضاً، وتجلس على عرش العروس وبجانبها دادي جول - شاه. عندما دخل كامل الغرفة، نهضت دادي جول - شاه، ووضعت يد كامل على يد جميلة وقالت: "أتمنى أن تصبحا عجوزين معاً على وسادة السرير نفسه"، ثم استأذنت بالانصراف وذهبت لتعدَّ وجبة خفيفة للزوجين.

أمسك كامل يد جميلة وقبّلها.

قال كامل وهو ينظر بإمعان إلى عيني عروسه: "جميلة، أتمنى إسعادك".

ردّت جميلة برقّة: "أنت تسعدني الآن".

تابع كامل: "عندما كنت أدرس في باريس، حلمت دائماً بالعودة إلى إسطنبول، وأن أتزوج وأؤسس أسرة. حثّني ذلك على العمل والدراسة، حتى عندما لم أرغب بذلك". قال مبتسماً: "كنتِ مصدر إلهام لي حتى قبل أن ألتقيك".

ابتسمت جميلة أيضاً، فقد كانت تشعر بالفضول بشأن حياته قبل أن يلتقيا. سألت: "أخبرني عن حياتك في فرنسا. هل كان صعباً جداً عليك أن تعيش في بلد أجنبي؟".

بدأ كامل يسرد عليها تجاربه في الخارج ويطرح على جميلة أسئلة بشأن حياتها الماضية أيضاً، وقبل أن يدركا مرور الوقت، سمعا قرعاً على الباب. دخلت دادي جول - شاه وهي تحمل حساءً، وعدّة أطباق خضار معدّة باستخدام زيت الزيتون، ولبناً، وحلوى الحليب. وضعت صينية عشاء وتوثقت أن كل ما يحتاجان إليه موجود هناك، ثم غادرت وتركتهما بمفردهما.

لم تأكل جميلة كثيراً، وشعرت بشبع لا علاقة له بالطعام. تساءلت إن كان كامل يحس بالشعور نفسه، لكنها لم تسأله بسبب خجلها الشديد منه. تناول قليلاً من الطعام أيضاً، وسرعان ما ابتعد كلاهما عن صينية العشاء. وضع كامل سجادة صلاة معدّة خصيصاً له على الأرضية، فالعادة تقضي أن يؤدي العريس صلاة خاصة في ليلة زفافه. بينما كان كامل يصلي، دخلت دادي جول - شاه وحملت الصينية، ثم أخبرت جميلة أنها ستعود لتساعدها في نزع فستان زفافها بعد أن تؤدي العروس فريضة الصلاة الأخيرة ذلك اليوم.

على الرغم من أنها بدت هادئة ورابطة الجأش، إلا أن جميلة شعرت بقلق واضطراب، وأرغمت نفسها على التركيز في أثناء الصلاة.

عادت دادي جول - شاه بعد وقت قصير لتساعد جميلة في نزع ثيابها، وذهبتا إلى الغرفة الأخرى حيث زُوِّد سرير العرس بملاءات وأغطية وسائد مطرزة، وغُطّي بلحاف حريري أبيض مزيّن بنثار ولآلئ. نزعت دادي جول - شاه بحرص عَمَرة العروس وخمارها ووضعتهما جانباً، ثم تناولت قفطان جميلة وقميصها وشروالها وعلّقتها بطريقة لا تتجعد بها؛ لأن جميلة سترتديها مجدداً في اليومين التاليين حين تظهر أمام الضيفات.

ساعدت الدادي جميلة في ارتداء عباءة وثوب نوم زفافها اللذين أُعدّا للمناسبة خاصةً. صُنعت العباءة من ساتان أحمر ينثني على الجسم، في حين كان الثوب من حرير أبيض مطرز بتصميم أغصان تحمل براعم ورود، وكلاهما مزركش بشريط مخرّم، والثوب مزّود ببطانة طويلة في الخلف. فكّت دادي جول - شاه ضفائر شعر جميلة ومشّطته فوق كتفيها.

نظرت دادي جول - شاه إلى العروس الفاتنة بقلق وحنان في الوقت نفسه، وقالت: "جميلة، سأنام في الغرفة المجاورة لغرفتك. إذا واجهتك أي مشكلة، فأنا هنا لمساعدتك كما فعلت دائماً".

عانقت جميلة مربيتها العزيزة، واستمدت الراحة من وجود امرأة مستعدة لتضحي بحياتها من أجلها من دون أي تردد قربها.

ردّت جميلة، ونظرة شكر تعلو وجهها: "إن شاء الله لن أحتاج إلى أي مساعدة يا دادي. لكن، إذا احتجت، فسألجأ إليك".

عادت دادي جول - شاه إلى الغرفة الأخرى، وألقت تحية المساء على كامل وغادرت غرفة العروس.

وقفت جميلة حين دخل كامل الغرفة، وساعدته في خلع سترته وربطة عنقه. أحسّت بمشاعر متناقضة؛ من ناحية، شعرت بالخجل؛ لأن "كامل" أول

رجل تبقى معه بمفردها باستثناء والدها. لكن، من ناحية أخرى، أحسّت أنها تحبّه وبدا بقاؤهما وحدهما طبيعياً جداً لها.

شعر كامل بقلق عروسه، وسأل: "هل أنتِ خائفة يا جميلة؟".

ردّت: "قليلاً".

قال كامل وهو يداعب وجهها: "لا تخافي يا جميلة، أنتِ بين يديْن أمينتين...".

في صباح اليوم التالي، كانت جميلة تجلس أمام نافذة تطل على المضيق. الوقت باكر جداً، والشمس بدأت تبزغ آنذاك. بدت المياه ملاءة شاسعة ساكنة تنتشر أمامها، ولم ترَ حتى موجة واحدة، ووحدها طيور النورس عكّرت هدوء السطح حين انقضَّت لتلتقط أسماكاً. كان ذلك الوقت من النهار يتميز بوقار وورع ينعكس على المضيق، وبعد وقت قصير، مع ارتفاع الشمس في كبد السماء، سيصبح كل شيء مجدداً ينبض بالحركة. لكن، آنذاك لم يكن هناك إلا صمت جليل. فكّرت جميلة في الليلة الماضية، وشعرت أنها المرأة الأكثر حظاً في العالم لتحظى بزوج مثل كامل، وكما عرفت منذ أول مرة رأت فيها صورته، كان قوياً جداً، لكنه لطيف أيضاً. شكرت العروس الجديدة في قلبها خالقها على نعمته الاستثنائية، وبعد التأمل في المشهد أمامها وقتاً أطول قليلاً، عادت جميلة إلى جانب كامل من السرير.

أيقظ قرع على الباب المتزوجين حديثاً نحو الساعة العاشرة، وأحضرت دادي جول - شاه قهوة لهما وقالت إن كلتا الأسرتين تنتظرانهما. دقّقت بإمعان في وجه جميلة بحثاً عن أي علامات على عدم الارتياح، لكن ابتسامة العروس الجديدة الواسعة طمأنتها أن كل شيء على ما يرام. غادرت الدادي نصف ساعة لتمنح الزوجين وقتاً ليشربا قهوتهما وتسمح لكامل بارتداء ملابسه، ثم عادت لتساعد جميلة في ارتداء ثيابها وتسريح شعرها.

غادر العروسان جناحهما، وذهبا لحضور الوليمتين المقامتين على شرفهما، وحيّا كامل والدته وحماته قبل أن يغادر لاستقبال أقرباء ذكور في السلملك . ومجدداً خضع الزوجان لتدقيق شديد بحثاً عن أي إشارة على نفور بينهما، وقبل أن تدخل جميلة ووالدتها قاعة استقبال الحريم، سألت صفية خانم ابنتها:

"جميلة، تبدين عروساً سعيدة".

ردّت جميلة: "أنا في غاية السعادة".

سألت صفية خانم: "إذاً، نجماكما منسجمان؟".

ردّت العروس الجديدة: "أكثر من منسجمين".
" ابنتي العزيزة أنا مرتاحة جداً لسماع هذا. صلّيت ووالدك من أجلك طوال الليل أمس".
عانقت الوالدة والابنة بعضهما بعضاً ثم ذهبتا إلى غرفة الوليمة، المملوءة قريبات من كلتا الأسرتين. كان ذلك يوم وليمة مقادم الضأن التقليدية التي تُقام دائماً في اليوم الثاني من احتفالات الزفاف، وذكّرت رائحة الطعام جميلة أنها لم تأكل شيئاً تقريباً في الأربع والعشرين ساعةً الماضية. عندما هدأ صخب التهاني، استطاعت إشباع جوعها قليلاً قبل أن يحين وقت عودتها إلى عرش عرسها لتلقّي التهاني مجدداً.
استقبل كامل ضيوفاً في غرف الذكور، في حين استضافت جميلة نساء في غرفة العروس. كانت احتفالات الزفاف مفتوحة للغني والفقير على حدٍّ سواء، وتثير العرائس وجهاز كل منهن دائماً فضول معظم النساء، وكل من تسمع تقريباً بشأن الزواج تأتي لترى العروس وتقدم لها أطيب الأمنيات. من وقت إلى آخر هامت أفكار جميلة بعيداً عن ضيفاتها إلى كامل، وشعرت بحرارة تتقد في معدتها. عندما حلَّ المساء غادرت آخر الضيفات، فاسترخت جميلة حتى عاد كامل من أداء صلاة المغرب في المسجد، وبعد أن تناولا وجبة خفيفة مع والدي كامل، ذهب الزوجان إلى غرفتهما.
أمسك كامل عروسه الجديدة بين ذراعيه، وسألها: "جميلة، لقد كنت مع الضيوف كل النهار، لكن قلبي بقي معك. هل كنتِ تفكرين فيّ أيضاً؟".
أومأت، واستسلمت جميلة لقبلات كامل. كامل يعني "الكامل"، وبدا كذلك تماماً في عيني جميلة؛ فهو خالٍ من العيوب ولا تشوبه شائبة. كان كل ما قد حلمت به جميلة في الرجل، وخضعت على نحو أعمى وتام له؛ جسدياً، وذهنياً، وروحياً.
في صباح اليوم التالي، ارتدى الزوجان مجدداً ثياب الزفاف، وخرجا ليشاركا في اليوم الأخير من الولائم والاحتفالات، ومجدداً جاء أصدقاء وأقرباء كلتا أسرتَي العروسين للاحتفال بالزواج، والمشاركة في فرح وآمال الزوجين الجديدين وأسرتيهما. كانت احتفالات علنية تقام في مناسبات خاصة مثل الزواج، والولادة، والختان، والحج في المجتمع العثماني، وتضيف الأمنيات الطيبة والدعاء من المشتركين معنى وأهمية لأحداث خاصة في حياة الإنسان.
بحلول المساء، شعر الجميع بالإرهاق - الضيوف، والمتزوجان حديثاً، وأسرتاهما - لكنه بدا تعباً حلواً. تبين أن كل الاستعدادات والترتيبات والنفقات تستحق العناء، وأنه زفاف لن يُنسى قريباً.

بعد أن غادر كل الضيوف وحيّا الزوجان والدي كامل، عادا إلى جناحهما. في ذلك المساء، تحدّثا لساعات في السرير عن تجاربهما الماضية، وعملِ كامل، ونشاطاته في فرنسا، وآمالهما وطموحاتهما. شعرت جميلة بالسعادة حين علمت أنهما يفكران بالطريقة نفسها بشأن قضايا عديدة. عرفت أيضاً أن لكامل طموحات سياسية مستقبلية، وأنه يأمل أن يصبح كبير أطباء السلطان يوماً ما، لكنه آنذاك يتشوّق إلى اكتساب خبرة في منصبه الجديد في مدرسة القصر.

غط الاثنان في النوم بين ذراعي بعضهما كما فعلا كل ليلة في أثناء السنة الأولى من زواجهما. لم تحدث بينهما شجارات أو حتى اختلافات جدّية في الآراء، وكانت معظم أفكارهما متطابقة، وفي الحالات القليلة التي اختلفا فيها، امتثلت جميلة دائماً لقرارات كامل بسبب حبها واحترامها له.

بعد وقت قصير من ذكرى زفافهما الأولى، أبلغ كامل والديه وجميلة نبأ غير متوقع إلى طاولة العشاء:

"هناك انتشار خطر للكوليرا في إقليم البحر الأسود، وقد طُلب مني أن أرأس فريقاً طبياً لمعالجة المشكلة قبل أن تتحول إلى وباء. إذا سار كل شيء وفقاً للمخطط، فسأبحر إلى ترابزون بعد يومين من الآن".

تجهم وجه جميلة، فقد كانت تعرف أن هناك مخاطرة كبيرة في معالجة مرضى الكوليرا.

قال عثمان أفندي: "طبعاً يا بني، يجب أن تلبّي نداء الواجب. كم سيطول غيابك؟".

رد كامل: "إذا جرى كل شيء على ما يرام، يجب أن أعود بعد ستة أسابيع أو ثمانية".

قالت صفية خانم: "سنشتاق إليك يا عزيزي. لكن، إذا كنت تستطيع مساعدة هؤلاء الأشخاص المساكين الذين يعانون الكوليرا، فيجب أن تبذل قصارى جهدك. ولا تقلق علينا نحن وجميلة؛ لأننا سنكون بخير حتى عودتك".

تلك الليلة، عندما أصبحا وحدهما، فتحت جميلة موضوع رحلة كامل إلى ترابزون مجدداً.

اقترحت جميلة: "لا يمكن أن أتحمّل فكرة ابتعادك عني كل تلك المدة. ألا يمكن أن أرافقك؟ يمكن أن أساعد في العناية بالمرضى".

رد كامل: "سنعمل ساعات طويلة جداً في ظروف صعبة كثيراً. طبعاً لن نعالج مرضى في ترابزون فقط، إنما سنسافر إلى قرى نائية أيضاً. لن أفكّر

في تعريضك لمثل تلك الظروف، وأفضل شيء يمكن أن تفعليه لإظهار حبك لي هو أن تبقي هنا مع والديَّ، حيث أعرف أنك ستكونين بأمان وموضع رعاية".
أصرّت جميلة: "لكن، أنا واثقة أن بمقدوري تقديم يد العون".
رد كامل: "لا يا حبيبتي، أرجو أن تفهمي". أضاف محاولاً تطييب خاطر جميلة: "إضافة إلى ذلك، سأعود قبل أن تسنح لك فرصة الاشتياق لي".
لم تناقش جميلة القضية أكثر من ذلك، وكالمعتاد امتثلت لقرار كامل، لكنها في قلبها كانت قد بدأت تشتاق إليه آنذاك.
بعد يوم من تحضيرات عاجلة للرحلة، أبحر كامل إلى ترابزون. بعد عشرة أيام نقل قبطان السفينة نبأ أن "كامل" بيك قد وصل سالماً إلى هناك.
بعد أن سافر كامل، استغلت جميلة الفرصة لتمضي عدّة أسابيع مع والديها في كانليكا. كانت تلك أول مرة تقوم فيها بزيارة مطوّلة لهما منذ زواجها، وقد تمنّت أن يجعل وجودها مع والديها الوقت ينقضي بسرعة أكبر بطريقة ما.
أدرك حكمت أفندي وصفية خانم حزن ابنتهما لابتعاد كامل عنها، وبذلا قصارى جهدهما لإبقاء جميلة مشغولة. رتّبا زيارات إلى قريبات وجارات، وخرجوا في نزهات ورحلات، واصطحبا جميلة في جولة على متن قارب ليلي في مضيق البوسفور لترى الإنارة الرائعة المعدّة للاحتفال بذكرى مولد السلطان. كانت كل منازل الشاطئ، وحدائقه، ومتنزهاته مضاءة على نحو رائع بشموع ثُبّتت في فوانيس صغيرة تشريفاً للمناسبة. فتن انعكاس النور على الماء جميلة، حتى تذكرت أن "كامل" بعيد جداً يعالج مرضى الكوليرا، وتمنّت أن يكون إلى جانبها ليشاركها في تلك اللحظات الساحرة.
بعد تمضيتها شهراً مع والديها، أرادت جميلة أن تعود إلى منزلها في بلربي تحسباً لعودة كامل. عند نهاية كل يوم كانت تشطب التاريخ على التقويم، وتشعر أنها اقتربت يوماً من لمّ الشمل مع زوجها.
انقضت ستة أسابيع، ثم ثمانية، لكنْ لم يصلها أي نبأ من كامل، وبدا أن الزمن قد توقف لجميلة، وتباطأت الأيام. كان كل يوم يبدأ مع أمل أنها سترى عودة كامل فيه، لكنه ينتهي في المساء بخيبة أمل.
كانت ثلاثة شهور كاملة قد انقضت منذ أبحر كامل إلى ترابزون. لماذا لم يعد بحلول ذلك الوقت؟ أُصيبت جميلة بحزن وقلق شديدين، وبدأت تخسر وزناً؛ لأنها فقدت شهيتها للطعام.
خشي عثمان أفندي على صحة جميلة، وقرّر أن يرسل ابن شقيقه أحمد

إلى ترابزون ليستفسر عن كامل. عندما عاد أحمد بعد أسبوعين، لم يكن يحمل أنباء تخص "كامل"، وكل ما استطاع أن يخبر به عثمان أفندي هو أن الكوليرا قد انتشرت، وأن ترابزون تخضع لحجر صحي كامل. لم يكن يُسمح للسفن بالدخول أو الخروج من ميناء ترابزون.

لم تنفع تلك الأنباء إلا في زيادة قلق جميلة، وقد أصبح والدا كامل خائفين كثيراً على سلامة ولدهما أيضاً. لم يعرف عثمان أفندي ما ينبغي أن يفعله في مثل تلك الظروف، وقرّر أن يتصل بكبير الأطباء في القصر ليتوثق من أي معلومات لديه تتعلق بكامل.

عرف عثمان أفندي، نتيجة الاستفسار المكثّف، أن "كامل" قد أُصيب أيضاً بالكوليرا، لكنْ لم تكن لدى كبير الأطباء، على كل حال، أي معلومات بشأن حالته. كان وفد رسمي قد أُرسل إلى الإقليم لتقديم تقرير عن أبعاد الوباء، ويُتوقع عودته بعد عدّة أسابيع، وعندها سيتمكن عثمان أفندي من معرفة المزيد عن حال ابنه. أكّد كبير الأطباء لعثمان أفندي أنه سيبلغه بأي معلومات تخص "كامل" حين يعرف شيئاً.

عاد عثمان أفندي إلى المنزل مثقلاً بالهموم، وتردد في إبلاغ صفية خانم وجميلة عن حال كامل، لكنهما فهمتا أن هناك خطباً ما حين رأتا وجهه.

قالت صفية خانم، وقد ارتسمت على وجهها نظرة قلق: "عثمان أفندي، ماذا حدث لكامل؟".

تلعثم عثمان أفندي: "حسناً... لم أعرف الكثير".

توسّلت صفية خانم: "بحق الله، أخبرنا كل ما تعرفه".

شحب وجه جميلة وكتمت أنفاسها تحسباً لجوابه.

أدرك عثمان أفندي أن عدم قول شيء قد يدفع زوجته وجميلة إلى التفكير في الأسوأ، لذا أخبرهما بما قد عرفه بالضبط من كبير الأطباء.

كانت مجرد فكرة خسارة كامل لا تُحتمل بالنسبة إلى جميلة، فقد كان مركز حياتها، وكل أفكارها وأفعالها تدور حوله.

انقضت الأيام والأسابيع التالية ببطء الحلزون، ومرَّ الزمن ثقيلاً على قلب جميلة. حاولت إبقاء نفسها مشغولة، لكنها لم تستطع التركيز على أي شيء آخر. وجدت نفسها تجلس أمام نافذة كبيرة تطل على الخليج في غرفة جلوس الزوجين، تنظر إلى المضيق، وتتضرّع ليستعيد كامل عافيته.

بعد ثلاثة أسابيع من حديث عثمان أفندي مع كبير أطباء القصر، أبلغ مراسل من القصر الملكي الوالد أن الوفد قد عاد من إقليم البحر الأسود، وأنهم سيتلقون أخباراً تخص "كامل" في اليوم التالي.

شعرت جميلة بالارتياح لورود نبأ يتعلق بكامل، وفي الوقت نفسه بالقلق في ما يتعلق بطبيعة ذلك الخبر. لم تستطع جميلة النوم تلك الليلة، فتقلّبت واستدارت في سريرها في انتظار النبأ الذي سيحمله اليوم الآتي.
مرهقة من الأرق، نهضت جميلة في صباح اليوم التالي في وقت الفطور كالمعتاد، وتكلمت مع والدي كامل قليلاً في أثناء الوجبة. حرّكت جميلة طعامها فقط في حين تركّزت أفكارها تماماً على كامل، وعندما ارتشفوا قهوتهم الصباحية، سمعوا قرعاً على الباب الأمامي. وخلافاً للعادة، اندفع عثمان أفندي بنفسه إلى الباب قبل أن يصل أي خادم إليه، فقد أراد أن يحصل على أخبار كامل فوراً، في حين انتظرت صفية خانم وجميلة عند مدخل الحريم.
عندما فتح عثمان أفندي الباب الرئيس، تردد صدى صوته في أرجاء ردهة المدخل كلها.
"بني، الحمد لله أنك سليم وبخير!".
واقفاً على عتبة الباب، كان كامل هزيلاً وشاحباً، لكنه حيّ وسالم. بعد أن قبّل يد والده اليمنى، تعانق كامل ووالده ثم مشى مسرعاً نحو باب الحرملك. سمعت صفية خانم وجميلة صوت الرجلين فترقرقت دموع الفرح في عيونهما. عانق كامل والدته بحماسة ثم استدار نحو جميلة، وعندما التقت عيونهما، شكرت زوجته الله سراً في قلبها، فقد انتهت محنة الفراق. كان الأمر قد استغرق وقتاً، لكن كليهما تحمّلا ذلك، وحان آنذاك وقت لمّ الشمل العزيز.
استعادت جميلة وكامل عافيتهما بعد وقت قصير، وقد جعلت محنة فراقهما عروتهما أوثق، ونعُمَت جميلة بدفء كامل وأمانه وحبه. تُوّجت نعمة زواجها حين علمت بعد سنتين من زفافها أنها تتوقع طفلاً، وبوصفها أماً تنتظر مولوداً شعرت جميلة بالزهو والتواضع في آنٍ معاً؛ بسبب الوديعة الرائعة التي مُنحت إيّاها، وأحسّت أنها أداة فاعلة في عملية الخلق المباركة، وتحمّلت مسؤوليتها بكل جدّية. أمضت ساعات عديدة بمفردها في بقعتها المفضّلة أمام النوافذ التي تطل على المضيق، وعندما كانت تتأمل بهاء خلق الله وجماله الذي ينعكس في الطبيعة، تكلمت إلى طفلها وتخيّلت أن تكون روحه مملوءة حباً وضياءً. اتجهت كل أفكارها ومشاعرها نحو تجميل ذهن طفلها وروحه.
عندما اقترب موعد ولادة جميلة، تكثّفت إجراءات استقبال الطفل. أُثّثت الغرفة المجاورة لغرفة جميلة وكامل لتكون حجرة نوم ملائمة، وأُدخلت

مغسلة أوروبية إلى القصر لأوّل مرة لخدمة احتياجات الرضيع. كان لدى صفية خانم مهد خشبي جميل مطعّم باللآلئ، وجُهّزت ملاءات خاصة، وأغطية، وثياب قماط كما ينبغي سلفاً.

عندما بدأت آلام المخاض، استُدعيت قابلة موثوقة، وكانت سنية خانم، وصفية خانم، ودادي جول - شاه، إضافة إلى عدّة جوارٍ، حاضرات لمساعدة جميلة في الولادة. أعانت النساء جميلة وعملن على إراحتها نحو أربع عشرة ساعة عانت فيها انقباضاتٍ. ساعدت القابلة جميلة على الجلوس على كرسي ولادة خاص كانت سنية خانم قد استخدمته في أثناء إنجاب كامل؛ ظهره عالٍ وله ذراعان جانبيتان لتستند الأم عليهما، ومقعده مقعّر. عندما جلست جميلة على الكرسي، تقدمت الولادة بسرعة، وأنجبت طفلاً ذكراً وسط هتافات "الله أكبر" من النساء.

قطعت القابلة الحبل السرّي، وغسلت الطفل بماء دافئ، ثم دثّرته وأعطت والدته إياه. ظنّت جميلة أنه يبدو مثل أمير صغير. وبعد أن ارتاحت الأم والطفل قليلاً، استُدعي كامل إلى الغرفة لرؤية ابنه الجديد، فأمسك الحزمة بين ذراعيه، ورتّل أذان الصلاة في أذن الطفل اليمنى، ونطق اسمه الجديد: ضياء. قبل الولادة كان كامل وجميلة قد قرّرا أن يسمّيا الطفل "ضياء" إن ولدت صبياً، أو "نور" إن أنجبت بنتاً.

استدار كامل إلى زوجته وسأل: "جميلة، هل أنت بخير؟".

ردّت جميلة، وابتسامة رضا على وجهها: "أنا بخير، لكنني متعبة قليلاً".

قال كامل وهو ينظر إلى ابنه الصغير: "شكراً لك على ولادة ضياء إلى الحياة. إنه طفل قوي وجميل".

أضافت جميلة: "إن شاء الله سيكبر ليصبح رجلاً رائعاً مثل والده".

أُرسل خادمٌ لينقل الخبر السعيد للجيران والأقارب، ويبلغ النساء أن جميلة ستستقبل الزائرات بعد يومين.

في اليوم الثالث، جاءت كل صديقات جميلة وجاراتها وقريباتها لرؤيتها ولرؤية الطفل وتقديم التهاني. أحضرت بعضهن قطعاً ذهبية صغيرة عُلّقت في مسند المهد، وجلبن جميعاً هدايا وفقاً لإمكانياتهن، وقد حاكت بعض النساء كنزات وقبعات للمولود الجديد، فتلك مناسبة سعيدة. زُيّن سرير جميلة بمظلة من شالات ثمينة رُبطت معاً بأوشحة، وكانت أغطية السرير الحريرية مطرّزة بكثافة ومزّينة بحجارة كريمة، وكذلك أغطية المهد.

مستلقية على السرير، كانت جميلة ترتدي حُلّة بهية من قفطان أرجواني داكن وشروال ساتان أبيض وكنزة حريرية بيضاء تحته. تقلّدت عقداً من

ثلاثة خيوط من درر كبيرة يثبّتها مشبك مرصع بالماس بيضوي في الوسط، منحها حمواها إياه تقديراً لحفيدهما الجديد. جُدل شعرها في ضفيرة مربوطة بأعلى رأسها باستخدام دبابيس ألماس وقماش شفاف ذهبي اللون.
ملأ صخب كبير الغرفة، وفي إحدى الزوايا كانت عدّة جاريات يافعات يغنين ويعزفن الموسيقى باستخدام دفوف في أيديهن، وجاريات أخريات مشغولات بتقديم عصير فاكهة خاص لاذع الطعم للضيفات لا يُحضّر إلا بمناسبة الولادة. ساد الاحتفال جوّ من الفرح، وكانت الضيفات يضحكن ويتحدثن مع جميلة وعن زيارة بعضهن بعضاً. بدا ضياء، على نحو مدهش كفاية، يغط في نوم عميق إلى جانب والدته، بعد أن رضع كما يحلو له. قبل أن تغادر النساء، دُعين جميعاً إلى مولد ، وهو احتفال ديني يُقام في اليوم السابع بعد ولادة ضياء.
في اليوم الأربعين بعد الولادة، تُقام مناسبة أخرى للاحتفال بنهاية نِفاس الأم والولد، وحتى ذلك الوقت لا يُترك أيٌّ منهما بمفرده. كان ذلك الحدث هو استحمام اليوم الأربعين للوالدة والطفل. ولاستقبال العدد الكبير من الضيفات، تقرّر إقامة الاحتفال في الحمّام العام. اجتمعت القابلة في ساعات الصباح الباكر مع جميلة، وضياء، وسنية خانم، وصفية خانم، ودادي جول - شاه، وعدّة صديقات وقريبات في مبنى الحمّام العمومي المحلي. عندما كانت الضيفات يستمتعن بموسيقى ورقصٍ غجريين ويتناولن حلويات وقهوة، انهمكت جميلة والطفل داخل غرف الاستحمام. دهنت دادي جول - شاه طبقة كثيفة من العسل قوي الرائحة على كل جسم جميلة ليستعيد نشاطه وحيويته، وتُرك العسل ساعة قبل أن يغسل. في تلك الأثناء، دهنت القابلة جسد الطفل ببيض بط طازج ثم تلت بعض الأدعية الخاصة حين غسلته. استمر الترفيه طوال النهار، وبلغ ذروته بوليمة بعد الظهر.
كان ضياء طفلاً تسهل العناية به، وبعد عدّة شهور من التلاؤم مع عالمه الجديد، بدأ الولد ينام قرير العين طوال الليل. بدا هادئاً وسعيداً، ولا يحتاج إلى اهتمام كبير من والدته وأولئك من حوله. أصرّت دادي جول - شاه على أن تكون مربيته، وقبلت جميلة ذلك بفرح. وعلى الرغم من أنه كان محط رعاية والدين محبين وأربعة أجداد شغوفين به، إلا أن ضياء لم يصبح ولداً مدللاً. وقد أكسبه طبعه الهادئ اهتمام الجميع ومحبتهم، لكن بدا أن المحبة والاهتمام اللذين حظي بهما يزيدانه لطفاً بدلاً من أن يفسداه.
عندما يبتعد كامل عن المنزل، تكرّس جميلة كل وقتها وطاقتها في توجيه

ضياء والعناية به، وقد أضاف بعداً مميزاً لحياتها لم يكن ممكناً فهمه قبل أن تصبح بنفسها أماً. كانت العروة بين الأم وابنها نعمة رائعة حقاً، وفهمت على نحو أفضل آنذاك سبب توقير الأمهات الشديد في المجتمع العثماني.

كان يُحتفل دائماً بالأحداث المهمة في طفولة ضياء الباكرة مع الأسرة والأصدقاء: أول سن، أول ختمية ، أول أيامه في المدرسة، وختانه. عندما بلغ ضياء من العمر أربع سنوات وأربعة شهور وأربعة أيام، بدأ جدّه لأمه حكمت بيك يعلّمه تلاوة القرآن الكريم، وكان يُظن أن تلك هي السن التي يستطيع فيها طفل أن يميز أول مرة بين الصح والخطأ. أحضرت جميلة غلاف قرآن مطرّزاً، وبدأ ضياء يجلس كل صباح على ركبتيه أمام والدته ويتابع درسه في تلاوة القرآن الكريم. كان الولد سريع التعلّم، وعندما أنهى تعلّم القرآن الكريم، أُقيمت مأدبة عشاء أسرية كبيرة.

نُظّم احتفال ضخم بمناسبة ختان ضياء حين بلغ سبع سنوات ضاهى تقريباً حفل زفاف والديه، وخُتن معه عشرة من أولاد جيران أسر فقيرة لا تستطيع إقامة احتفالات خاصة. ارتدوا جميعاً ثياباً جميلة خيطت للمناسبة، واقتيدوا في الحي على صهوات خيول، وحُضّرت أَسرّةٌ للفتيان في إحدى الغرف الكبيرة في القصر التي زُيّنت بألوان زاهية. على الرغم من أن "كامل" أجرى معظم عمليات الختان للأولاد الآخرين، إلا أن زميلاً له ختن ضياء، ومُنح كل الفتيان هدايا من ثياب وقطع نقدية، وتسلّوا بمشاهدة مهرّجين والاستماع إلى الموسيقى. استُضيف بالغون ثلاثة أيام وهم يتناولون الطعام ويصغون إلى الموسيقى في السلملك والحرملك، وأقام كل الفتيان أسبوعاً في القصر حتى استعادوا عافيتهم، ثم عادوا بعد ذلك إلى منازلهم.

تمثّل الأسى الوحيد الذي أفسد سنوات طفولة ضياء في خسارته جدّيه لوالده حين بلغ العاشرة من العمر. كان عثمان أفندي وسنية خانم قد غادرا على متن سفينة تبحر إلى فرنسا لحضور معرض تجاري في باريس، انقلبت السفينة في عاصفة مفاجئة قبالة ساحل اليونان، ولم ينجُ أحد. أثّرت خسارة الوالدين على كامل كثيراً؛ لأنه كان يستشيرهما في كل خطوة يقدم عليها، وقد مكّنته حكمتهما وحرصهما على نجاحه من التقدّم بسرعة في مهنته، وقد ارتقى آنذاك إلى مساعد كبير أطباء السلطان. وبغض النظر عمّا فعلته جميلة لمواساة زوجها، إلا أنها لم تستطع التخفيف من اكتئابه؛ لأن "كامل" شعر أنه قد فقد جناحيه في الحياة.

تذكرت جميلة وفاة والدي كامل في السنة السابقة، فدعت لهما حين

اقتربت العربة من قصر صديقة طفولتها، رابية. أوقف السائق العربة أمام المدخل الرئيس وخرجت النساء منها. كانت زيارة رابية ترفع دائماً معنويات جميلة، فهما صديقتان مقرّبتان منذ الطفولة وتعرفان بعضهما جيداً. وعلى الرغم من أن رابية قد تزوجت منذ عشر سنوات، إلا أنها لم تُرزق بأطفال، لكنها لم تسمح لذلك بأن يؤثر فيها. بدلاً من ذلك، أمضت معظم وقتها وهي تساعد أشخاصاً أقل حظاً منها، واحتضنت عدّة أيتام لتربّيهم في منزلها. كانت قد استدعت ذلك اليوم صديقات وجارات من كل مكان لمساعدتها في إنهاء جهاز عرس فتاة يتيمة محلية على وشك أن تتزوج. ورابية هي من رتّبت أمر زواج الشابة من أحد أبناء تاجر حرير من بورصا.

عندما مشت جميلة عبر باب القصر، استطاعت سماع النشاط الصاخب في الحرملك في الطابق الأعلى؛ وعندما دخلت مع عدد من جواريها المهمات حجرة الانتظار الكبيرة، وجدن نحو مئة امرأة، ومن بينهن خادمات، اجتمعن معاً للعمل على مواد جهاز العرس المختلفة. كانت بعض النساء يقصصن قماشاً، في حين أن أخريات مشغولات بخياطة القطع معاً، وعدّة سيدات يطرّزن زوايا مختلفة من غطاء لحاف كبير. شاهدت عمّتين عجوزين لرابية تصنعان شرائط لحواف أكياس الوسائد، ومجموعة من الجواري اليافعات يطرّزن مناديل وجبات الطعام. كانت رابية مشغولة بقص قماش مناشف إلى قطع صغيرة لتقوم مجموعة من الجارات بصنع حواشٍ لثوب وتزيينها، ورفعت بصرها لترى صديقتها فاستقبلتها بابتسامة واسعة على وجهها، وتعانقت المرأتان.

قالت رابية: "جميلة، أنا سعيدة جداً لمجيئك. لن يكون الأمر على حاله من دونك".

ردّت جميلة، وهي تجيب عن إطراء صديقتها: "في الواقع يا رابية، أنتِ من يُحدث فرقاً كبيراً. لم تكن أيٌّ منا لتوجد هنا اليوم لولاك".

قالت رابية: "اقتربي واجلسي بجانبي، فبهاؤك كافٍ ليلهمنا جميعاً، حتى إذا لم تخيطي غرزة!".

جلست جميلة وجواريها بجانب رابية، وساعدن في تطريز قطع المناشف بخيوط فضية وذهبية. أُعجبت جميلة بالصنعة والمهارة اللتين تعمل بهما كل النساء في القاعة. ولم يمنعهن اشتغالهنّ بعملهن، على كل حال، من تبادل أطراف الحديث مع بعضهن في الوقت نفسه. رأت جميلة في الطرف الآخر من الغرفة إحدى بنات عم رابية، رفيقة خانم، التي قطعت كل

المسافة من سارير على متن مركب لتقدم يد العون. انتاب جميلة شعور كبير بالرضا حين رأت كل أولئك النساء يمضين وقتهن ويبذلن جهدهن في العمل معاً لمساعدة شخص محتاج.

بعد استراحة عند الساعة الحادية عشرة لتناول وجبة الفطور، تابعت كل النساء عملهن بدأب حتى منتصف الأصيل، وأنهين عدداً من مواد جهاز العرس. خطط عدد من صديقات رابية لتمضية الليل في منزلها لإنجاز المواد الباقية، واستأذنت جميلة بالانصراف؛ لأنها يجب أن تكون في المنزل وقت العشاء مع كامل وضياء، لكنها تركت جارية مهمة واحدة للمساعدة.

في طريقها إلى المنزل عدّت جميلة النعم المسبغة عليها، وشعرت أنها محظوظة جداً بوالديها، وكامل، وضياء، ودادي جول - شاه، وصديقات رائعات مثل رابية. كانت تعرف ذلك، لكن بفضلٍ من الله لم تكن مكانَ إحدى أولئك الأقل حظاً منها، وجعلت تلك المعرفة جميلة متواضعة وشاكرة ولطيفة.

الفصل الخامس

قصر دولمبهس، 1867

سرى شعور بالإثارة في كل أنحاء القصر، فقد كانت تلك عشية أول أيام شهر رمضان المبارك الذي سيصوم فيه الجميع، وقد نُظّف المكان كله من أعلاه إلى أسفله استعداداً لذلك الوقت الخاص. كانت ديدنور وسرفتسزا تجلسان مع الأميرة عليا بعد أن انتهت من تناول العشاء، وعلى الرغم من أن عشرين جارية يعملن في خدمة الأميرة، إلا أنها تشعر أنهما الأقرب إلى قلبها. كانت الفتاتان، اللتان تبلغان من العمر آنذاك ست عشرة وسبع عشرة سنة، قد أصبحتا شابتين جميلتين. بدت سرفتسزا فاتنة، وتميّزت بجمال أخّاذ حتى في قصر مملوء بنساء حسناوات. كانت الشابتان قد انتقلتا إلى غرفة تحت جناح الأميرة مباشرة قبل سنة؛ حين فقدت الأميرة عليا والدتها بمرض السل. وبعد وفاة تيرال خانم، أضحت الأميرة عليا أكثر قرباً من رفيقتيها. وعندما بلغت السادسة عشرة خُطبت إلى باشا من قبل والدها السلطان، وستتزوج بعد عيد الفطر بوقت قصير.

حثّتهما الأميرة عليا: "لنسرع بالذهاب، لا نريد أن نتأخر عن صلاة التراويح ".

ردّت سرفتسزا: "لا تزال أمامنا نصف ساعة يا أميرتي".

قالت الأميرة عليا بسخط زائف: "يبدو أنك قد نسيت كم شعرنا بالإحراج حين تأخرنا نحن الثلاث في رمضان الماضي، يا أختي الجميلة. يُتوقع من الأميرات أن يكن مثاليات، ولا يُفترض أن يتأخرن أبداً!".

استجابت ديدنور بأن ابتسمت لسرفتسزا قائلة: "الأميرة عليا محقة يا سرفتسزا. إضافة إلى ذلك، لأن الأميرات مثاليات، فأنت تعرفين على من سيقع اللوم إن تأخرنا!".

نهضت الفتيات الثلاث وتوضأن قبل الذهاب إلى القاعة الكبيرة في الحرملك السلطاني، حيث تؤدي كل النساء صلاة التراويح معاً. عندما وصلن إلى القاعة، وجدن نساءً كثيراتٍ هناك، يجلسن بهدوء ويتلون الذكر. تقدمت الأميرة عليا إلى الصف الأمامي في القاعة المخصص لنساء الأسرة الحاكمة، في حين شغلت سرفتسزا وديدنور مكانيهما بين الجواري الأخريات. بعد ذلك بوقت قصير، بدأ شيخ الأئمة يصلّي، وحذا الجميع حذوه، وقد استغرقت صلاتا العشاء والتراويح أكثر من ساعة، وتلت عدّة جوارٍ يحفظن القرآن سوَراً طويلة في نهاية الصلاة. تمنّى الجميع للآخرين رمضاناً مباركاً، ثم تفرّقت كل النساء.

جهّزت ديدنور وسرفتسزا سريريهما، ثم نزعتا ملابسهما وخلدتا إلى النوم فور عودتهما إلى غرفتهما؛ لأنهما ستستيقظان عند الساعة الثالثة تقريباً في الصباح لتناول السحور قبل أن يبدأ صوم اليوم التالي. سيتقيّد القصر كله بهذا النظام طوال شهر رمضان.

عند الثالثة صباحاً استيقظت ديدنور لتشم رائحة أرغفة الخبز التي تُخبز آنذاك. نهضت وذهبت إلى الغرفة المجاورة لتجد أن العاملات في خدمة الطعام قد حضّرن آنذاك صواني السحور التي تحمل زيتوناً، وجبناً، وسجقاً، وعدّة أنواع من المربّيات. ورأت أيضاً أطباقاً من البيض وفطائر قد أُعدّت آنذاك بحشوة لحم مفروم. وباستثناء أولئك اللواتي يخدمن الأميرات، جلست الجواري والفتيات الأخريات في خدمة الأميرة عليا على الأرض معاً، وتناولن أولى وجبات رمضان. وعلى الرغم من أن ديدنور لم تكن جائعة جداً في تلك الساعة الباكرة، إلا أنها كانت تعرف أن موعد الوجبة التالية - الإفطار - عند غروب الشمس. بعد أن تناولت جميع الفتيات ملء بطونهن، أمضت الجواري وقتهن في العبادة؛ الصلاة، وقراءة القرآن الكريم. وبعد وقت قصير من صلاة الصبح، عدن جميعاً إلى النوم.

استيقظت ديدنور وسرفتسزا عند الثامنة تقريباً وارتدتا ثيابهما. كان عليهما الذهاب إلى غرفة الخياطة لتسجيل قياساتهما؛ لأن ملابس جديدة يجب أن تُصنع قبل عيد الفطر لكل النساء في الحرملك السلطاني؛ أي كل نساء الأسرة الحاكمة والجواري. كانتا قد دُعيتا بعد الظهر لمرافقة الأميرة عليا إلى القاعة الكبيرة القائمة بين الحرملك ومكاتب القصر، حيث سيلقي رجل دين درساً رمضانياً خاصاً، وسيتلو حافظٌ أجزاء من القرآن، ويمكن لصاحبات السمو الاستماع إلى هذين الرجلين وهن متواريات خلف ستائر وحواجز.

عندما وصلت ديدنور وسرفتسزا والأميرة عليا إلى القاعة، وجدن معظم نساء الأسرة الحاكمة جالسات هناك، واتخذت الأميرة مكانها بينهن، في حين جلست ديدنور وسرفتسزا على وسادتين في القسم الخلفي من الغرفة. وعلى الرغم من أن ديدنور لم تستطع رؤية أيٍّ من الرجال من موقعها، إلا أنها كانت تعرف أن من عادة السلطان ووزرائه أن يحضروا تلك الدروس أيضاً. بعد ذلك بوقت قصير، أُعلن عن وصول السلطان فوقف الجميع وأحنوا رؤوسهم، ثم انقضت عشر دقائق أخرى، وبدأ رجل الدين يتكلم عن الصيام وفوائده، وخصَّ بالذكر أهمية تدريب النفس على الطاعة بالامتناع عن أشياء مباحة عادة، وبعد أن تحدّث خمساً وأربعين دقيقة، بدأ الحافظ يرتّل القرآن. تأثرت ديدنور كثيراً بتلاوة القرآن وبجمال صوت القارئ، وعلى

الرغم من أنها لم تعرف السبب، إلا أن دموعاً ترقرقت في عينيها، وعندما نظرت إلى وجه سرفتسزا رأت دموعاً تسيل على وجنتي صديقتها أيضاً. وبعد نصف ساعة من التلاوة، اختُتم البرنامج بدعاءٍ مطوّل من رجل الدين. عندما غادر السلطان ووزراؤه، تفرّقت النساء أيضاً، وعدن جميعهن إلى غرفهن لانتظار دوي المدفع الذي سيعلن نهاية الصيام. كانت ديدنور تشعر بدوار، لكنها تعرف أن جسمها سيعتاد على الصيام في يومين إلى ثلاثة أيام، كما حدث دائماً في السنوات التي صامت فيها. جاءت الفتيات المكلّفات بأدوات المائدة قبل نصف ساعة من مغيب الشمس، وحضّرن صواني العشاء، تبعتهن الفتيات من خدمة الطعام. جلست ديدنور والفتيات الأخريات إلى صواني العشاء وهن ينتظرن دوي المدفع، وقد جعل الصيام الشابة الشركسية دائماً أكثر شكراً لنعمة الطعام. عندما أُطلقت قذيفة المدفع، أنهين جميعهن صيامهن بتناول حبات تمر أُرسلت إلى القصر من الحجاز، وبعد أكل عدّة مشهّيات، أدّت الفتيات صلاة المغرب، ثم جلسن أرضاً ليستمتعن بباقي الوجبة. كانت هناك أطباق حساء، ولحم، وخضار، وأرز، تبعتها حلويات خاصة برمضان حُضّرت من طبقات رقيقة من رقائق النشاء، والجوز، وماء الورد، والحليب المحلّى.

كانت أمسيات رمضان في القصر ممتعة دائماً، وتأتي أحياناً أميرات يعشن خارجه لزيارة أخواتهن، أو تحضر جوار سابقات أعتقن وأنشأن أسرَاً خاصة بهن. وفي بعض الأمسيات تزور الجواري بعضهن بعضاً، وغالباً ما تسرد الجواري الأكبر سناً قصصاً طويلة للترفيه عن الفتيات الأصغر سناً. دعت الأميرة عليا في ذلك المساء ديدنور وسرفتسزا للانضمام إليها؛ لأنه لم يعد أمامها متسع من الوقت قبل أن تغادر القصر وتنشئ أسرتها.

علّقت الأميرة عليا: "يا أختيّ العزيزتين، علمت اليوم أنني سأعيش في فانيكوي حتى انتهاء تشييد قصري الخاص. ستأتيان لزيارتي، أليس كذلك؟".

ردّت ديدنور: "طبعاً سنفعل، وسنشتاق إليك كثيراً".

سألت الأميرة: "سرفتسزا، مدة خدمتك شارفت على الانتهاء. هل ستبقين في القصر أم ستتزوجين وتغادرين مثلي؟".

ردّت الجميلة الجورجية: "آمل أن أغادر وأؤسس أسرة خاصة بي يا أميرتي، لكنني لم أطلب ذلك بعد".

سألت الأميرة عليا: "ماذا عنك يا ديدنور؟ هل ستغادرين أيضاً؟".

أجابت ديدنور: "لم أقرّر بعد يا أميرتي. طلبت مني الجارية فرح - شاه أن أبقى، لكن يجب أن أمعن التفكير في الأمر".

كان هذا الموضوع يشغل بال ديدنور منذ بعض الوقت، فسنواتها التسع من الخدمة الإلزامية قد شارفت على الانتهاء. لقد طُلب منها أن تبقى عضواً دائماً من موظفي القصر، وفي الوقت المناسب ستُرقّى على الأرجح إلى جارية مهمة مبتدئة ثم في نهاية المطاف إلى جارية مهمة، وسيكون بمقدورها الوصول حتى إلى أعلى المناصب في الحرملك مثل القيّمة أو الخازنة، وهما منصبان يتمتعان بمسؤولية ومهابة كبيرتين. كانت القيّمة على الحرملك هي الوحيدة إضافة إلى السلطان والوزير الأول التي يسمح لها بحمل الختم السلطاني، وتحصل من تشغل ذلك الموقع المهم على تعويضات سخية، ولديها فريق موظفين خاص بها، ويتألف من عدّة جوارٍ مهمات راشدات وعشرين جارية مهمة مبتدئة. فضلاً على ذلك، لديها الإمكانيات لبناء صروحٍ تذكاريةٍ عامة، وقد شيّدت القيّمة الحالية على الحرملك مسجداً ونافورة وحماماً عاماً. وعندما تتقاعد أولئك النساء من مناصبهن، يعشن في مبنى مجاور للحرملك السلطاني ويُعتنى بهن طوال الحياة، وذلك مسار مهني آمن يمكن أن تسلكه.

من ناحية أخرى، على كل حال، شعرت ديدنور برغبة قوية في إنشاء أسرة خاصة بها، فقد كانت تحب الأطفال كثيراً وأرادت أن تنجب أولاداً، وبوصفها سرايلي يمكن أن تتوقع الزواج من النخبة العثمانية الحاكمة. كانت فتيات القصر يُزوّجن عادة إلى رجال بدأوا حياتهم رقيقاً في القصر، لكنهم ارتقوا إلى مناصب مهيبة في الجيش أو الإدارة العثمانية. إضافة إلى ذلك، عند عتقها وزواجها، يمنح السلطان كل فتاة من القصر منزلاً، وأثاثاً، وجهاز عروس، وراتباً مدى الحياة، وفي أي وقت تحتاج فيه شيئاً، يمكن أن تعتمد على دعم الأسرة الحاكمة، ولعلاقتها بالقصر وزن كبير في المجتمع. كانت ديدنور تفكّر بإمعان في كلتا الطريقين المفتوحتين أمامها، لكنها لم ترغب باتخاذ قرار نهائي إلا بعد زفاف الأميرة عليا، وأرادت أن تخصص كل وقتها وطاقتها لتلك الأميرة الرائعة التي عاملتها دائماً بلطف واهتمام.

جلست الشابتان وتكلمتا مع الأميرة عليا ساعات، واستعدن ذكريات سنواتهن معاً في القصر، وضحكن جميعهن حين ذكرت الأميرة عليا الطاووس في حديقة القصر. تذكرن المتعة التي شعرن بها في أعياد الفطر حين تتحول حدائق القصر إلى متنزه تسلية، حيث تُنصب مراجيح وألعاب ومقاعد دوّارة هناك للأمراء والأميرات والسرايلي اليافعات ليسلّوا أنفسهم. ترتدي الفتيات ثياباً جديدة، ويلعبن كما يحلو لهن، وعندما يكبرن لاحقاً، ينتظرن إلى المساء ليخرجن إلى هناك بعد أن يغادر كل الرجال. وعندما ذكرت الأميرة والدتها،

ذرفت عيون كل الفتيات دموعاً، فهن يشعرن بحزن الانفصال عن والداتهن، وقد تضرّعن بدعاء خاص من أجل تيرال خانم. ونظراً إلى تأخر الوقت، أصرّت السلطانة عليا على أن تتناولا وجبة السُّحور معها قبل أن يخلدن إلى النوم.
انقضت أيام الصوم بسرعة، وسرعان ما حلّت ليلة القدر، وهي يوم ديني مهم، وتحتفل بها مدينة إسطنبول برمّتها. يذهب السلطان دائماً تلك الليلة إلى أحد المساجد الرئيسة في المدينة لأداء الصلاة، وينتقل في موكب مهيب واحتفال كبير إلى المسجد، وتذهب الأميرات دائماً في عرباتهن الخاصة لمشاهدته. طلبت الأميرة عليا من ديدنور وسرفتسزا مرافقتها إلى الاحتفال في عربتها.
كانت كل الشوارع المؤدية من القصر إلى المسجد مزيّنة ومضاءة بالمصابيح، واصطفت عربات الأميرات جنباً إلى جنب على أرض المدفعية المستوية قبل غروب الشمس تماماً ليشاهدن على نحو واضح مرور الموكب العسكري المرافق للسلطان. كان كل مكان مناراً بمصابيح ملوّنة، حتى إن رايات مضاءة تحمل جمل تقوى معلّقة بين المآذن. عندما سُمع دوي المدفع الذي يعلن انتهاء الصيام، أحضر مخصيون صوانيَ صغيرة من طعامٍ معدٍّ سلفاً إلى الأميرات، وسرعان ما امتلأت الشوارع والشرفات بالمشاهدين.
أعلنت إحدى وعشرون قذيفة مدفعية اقتراب السلطان وحاشيته، وتقدّم موكبه ببطء نحو المسجد، وتبع مروره سلسلة من الألعاب النارية. بعد أن تجاوزها السلطان، تابعت عربات الأميرات طريقها إلى المسجد. في الداخل، ذهبت نساء الأسرة الحاكمة ومرافقاتهن إلى القسم السلطاني الخاص، وشاركن من هناك في الصلاة، واستمعن إلى الخطبة وتلاوة القرآن الكريم. كانت تجربة لا تُنسى لديدنور.
على الرغم من بقاء عدّة أيام صيام، إلا أن أذهان الجميع بدأت تركّز على العيد القادم الذي يستمر ثلاثة أيام، وبدا أن هناك شعوراً كبيراً بالإثارة. كانت لمسات نهائية توضع على الثياب الجديدة التي قد خيطت لكل الفتيات والنساء، وهناك عدد كبير من الطهاة يحضّرون أطعمة العيد- خاصة الحلويات- في مطابخ القصر، ورجال مشغولون في إقامة الألعاب في الحدائق. انتابت ديدنور دائماً مشاعر مختلطة في نهاية صوم رمضان، فمن ناحية كانت تتشوق إلى ابتداء احتفالات العيد، لكنها تشعر أيضاً بالحزن قليلاً؛ لأن ذلك الوقت المبجّل يقترب من نهايته.
أخيراً، حلَّ أول أيام العيد، وصعدت ديدنور وسرفتسزا على السلالم الخاصة

وساعدتا الأميرة عليا في ارتداء ثيابها الجديدة قبل الفجر، وهنّأتا الأميرة بالعيد، فمنحت كلاً منهما فستاناً من خزانتها الخاصة.
قالت الأميرة، وهي تعطي فتاتي القصر الثوبين: "أتمنى أن ترتدياهما بموفور الصحة والعافية والحظ السعيد. آمل أن تتذكراني بحب حين تلبسانهما".
قالت ديدنور: "سنتذكرك دائماً بحب أيتها الأميرة، وبالشكر على لطفك وكرمك".
أضافت سرفتسزا: "آمل أن يشهد كل خيط في هذين الثوبين على كرمك واهتمامك بنا أيتها الأميرة".
غادرت الأميرة عليا بعد ذلك مع الأميرات والمحظيات لمشاهدة انتقال موكب السلطان المهيب إلى المسجد لأداء صلاة العيد. كانت تلك مناسبة بالغة الأهمية، وسينتقل السلطان وحاشيته على صهوات الجياد في شارع يصطف الفرسان على كلا جانبيه، والناس يراقبون الموكب من خلفهم. كان الوزراء الذين يرتدون زياً موحداً يتقدّمون الموكب يتبعهم الوزير الأول وشيخ الإسلام ، ثم يأتي السلطان بعيداً قليلاً عنهم على حصان أبيض سرجه مزركش. وعلى طول الطريق، صدح بوق ثلاث مرات مع اقتراب السلطان، وصرخ الفرسان بانسجام مثالي: "يحيا السلطان!". كان احتفالاً رائعاً شهده عشرات الآلاف.
بعد الاستعراض، عادت الأميرات والجواري إلى القصر، وبدأت الأميرات الأخريات المتزوجات اللواتي يعشن خارجه يتوافدن إليه، ونُقلن جميعهن إلى غرف خاصة حيث استرحن وقُدّمت لهن القهوة والحلويات. وفي الوقت المحدد تماماً، ذهبت الأميرات وخادماتهن إلى رواق يلتف حول ثلاثة أرباع القاعة الرئيسة، حيث سيستقبل السلطان التهاني من كل النبلاء العثمانيين والسفراء الأجانب. كانت هناك ستارة مخرمة في الرواق بحيث يمكن للنساء رؤية النشاطات في القاعة من دون أن يشاهدهن أحد.
كان السلطان يجلس على عرشٍ رائع، وكل الأمراء يرتدون زياً موحداً ويقفون إلى يمينه، والوزراء إلى يساره. اتخذ الضيوف أماكنهم وفقاً للمراسم، واقتربوا واحداً بعد الآخر، انحنوا كثيراً ثم قبّلوا أحد طرفي شريط مخملي كبير مزخرف بالذهب يحمله أحد نبلاء القصر، في حين كان الطرف الآخر متصلاً بالعرش. عزفت الأوركسترا السلطانية موسيقى في الاحتفال المطوّل، وبعد الانتهاء من ذلك، ذهب السلطان لتلقي التهاني في الحرملك السلطاني.
بانتظار مجيء السلطان، وقفت فرقة الحريم المكوّنة من نحو ثمانين جارية - يرتدين شراويل مخملية حمراء وثياباً مطرّزة بخيط ذهبي- بانضباط. أعلن

الخازن وصول السلطان، وتبعته النساء اللواتي يعملن في فريق خدمته الخاصة. بدأت الفرقة تعزف اللحن السلطاني، وجلست السلطانة الوالدة في مكانها إلى يمين السلطان. اقتربت الأميرات واحدة تلو الأخرى وفقاً للعمر، وهن يشبكن أذرعهن على صدورهن إشارة إلى الاحترام، وانحنين كثيراً ثم جلسن في أماكنهن إلى يمين السلطان. على نحو مشابه، اقتربت محظيات السلطان، انحنين وجلسن إلى يساره. أحضرت فتاتان يافعتان بعد ذلك منديلاً كبيراً مطرزاً بالذهب، يضم مئات القطع النقدية الذهبية الجديدة، وقذف الخازن حفناتٍ من تلك النقود إلى الجواري ، وتدحرجت إحدى القطع قرب ديدنور فانحنت بسرعة والتقطتها.

أظهرت كل الجواري احترامهن للسلطان، وعندما اقتربت ديدنور وسرفتسزا منه، أشار إلى أنه يريد أن يتحدث قليلاً إلى سرفتسزا. كان قد طلب من تلك الجارية أن تصبح محظيته في عدّة مناسبات، لكنها رفضت في كل مرة.

سأل السلطان: "سرفتسزا، تبدين مدهشة اليوم كالعادة، وآمل ألا تصرّي على عنادك. ألن تعيدي التفكير في عرضي؟".

ردّت الجارية الجميلة: "يا مولاي، ما دمت حيةً، سأكون مستعدة للتضحية بحياتي من أجلك، ولن أخذلك أبداً. لكن إذا منحتني العالم كله، فلن أصبح محظية لك. يجب أن تكون لدى الرجل الذي سيصبح زوجي زوجة واحدة فقط، أي إنني آمل منه أن يكون لي فحسب، أو لن أتزوج أحداً".

نظر السلطان محبطاً إلى سرفتسزا وقال: "كما ترغبين".

تابعت سرفتسزا وديدنور طريقهما، تتبادلان التهاني بالعيد مع النساء الأخريات في القاعة. أُعجبت ديدنور كثيراً بشجاعة سرفتسزا؛ لأن قلّة من شابات القصر كن سيرفضن امتيازات أن يصبحن محظية سلطانية. في الواقع، إن معظمهن يعتبرن ذلك شرفاً لهن، لكن شخصية سرفتسزا مكوّنة من جبِلّة أخرى. كانت تعرف ما تريده من الحياة، ومصممة على تحقيق ذلك، ورفضت ببساطة قبول غير المقبول بغض النظر عن شدّة الإغراء.

أمضت الفتاتان العيد في لقاء النساء الأخريات في القصر. كانت هناك مسرحيات وموسيقى في الساحة شاهدتها الشابات الأكبر سناً من خلف نوافذ مزوّدة بستائر مخرمة، ومجدداً نُظّمت رحلات ترفيهية من أجل الجواري الصغيرات. في اليوم التالي للاحتفالات فُكّكت كل التجهيزات ونُظّفت الساحة فعادت إلى سابق عهدها.

أبلغت القيّمة على الحرملك سرفتسزا بعد العيد أن السلطان قد رتّب أمر

زواجها من أحد دبلوماسيي القصر، وأن زفافها سيكون بعد شهر، وستحصل على منزل مؤثث، وجهاز عروس فيه مجوهرات، وساعة ذهبية، وجهاز تحضير قهوة، ومجموعة من الملاعق العاجية، وستتلقى أيضاً راتباً صغيراً من الخزانة السلطانية. إضافة إلى ذلك، كان كل من في القصر؛ من أقل الرقيق شأناً وخبرة إلى السلطان نفسه، يحصل على نفقة يومية، وقد ادّخرت سرفتسزا ذلك المال منذ وقت دخولها القصر، كما تفعل الفتيات الأخريات. كانت ترسل مدخراتها كل شهر إلى إحدى الجواري المتقاعدات اللواتي يعشن بجانب الحرملك السلطاني، والتي احتفظت بالمال في صندوق صغير يحمل اسم سرفتسزا، وسترده إليها حين تغادر القصر.

شعرت ديدنور بسعادة غامرة من أجل سرفتسزا، ولكن بقليل من الحزن في الوقت نفسه. كانت الشابتان مثل أختين طوال أيام وجودهما في القصر، وقد كبرتا وأصبحتا امرأتين معاً، وتشاطرتا كل شيء: مشكلاتهما، وأحلامهما، وأفراحهما. وعدت سرفتسزا أن تعود إلى القصر لتزور ديدنور ما دامت فيه، لكن الحال لن تكون كالسابق مجدداً أبداً.

في تلك الأثناء، كانت الاستعدادات من أجل زفاف الأميرة عليا قائمة على قدمٍ وساق، وقد أرسل خطيبها، أحمد باشا، خاتماً ماسياً كبيراً لامعاً إليها وقرطين ملائمين. إضافة إلى ذلك، حصلت على عدّة صوانٍ فضية تحمل عطوراً مختلفة، وأوعية من المسك، وأباريق شراب من الكريستال، كما حصلت على أوانٍ خزفية للمؤن، وأطباقٍ من الخزف الصيني مملوءة فاكهة وحلويات. تشاطرت الأميرة الفاكهة والحلوى مع كل الفتيات في خدمتها، ومنحت أيضاً ديدنور وسرفتسزا عدّة قوارير من العطور، وبالمقابل أرسل القصر هدايا إلى العريس.

كان جهاز عرس الأميرة عليا قد حُضّر جيداً سلفاً، وأعدَّ صاغة أرمن مشهورون في السوق المسقوفة مجوهراتٍ وأدوات مائدة فضية ومطرّزات ذهبية وفضية. أحضر كبير التجار نماذج من المجوهرات والأواني الفضية إلى الحرملك السلطاني لتراها السلطانة الوالدة، وبعد أن اختارت المواد المطلوبة، ثبّتت رئيسة خزانة الحرملك الطلبية بعناية. استُدعيت خيّاطة ماهرة إلى القصر لتحضير ثياب الأميرة.

أمر السلطان أن يكون الزواج الرسمي في قصر شيخ الإسلام. عمل صفوة مخصيي الحرملك السلطاني كمندوبين وشهود للأميرة، ومثّل الوزير الأول العريس، واحتفل الرجال بالمناسبة في مسكن شيخ الإسلام .

عندما اكتمل جهاز العروس وهدايا الزفاف، ساعدت ديدنور وسرفتسزا في

عرضها في إحدى القاعات الكبيرة في الحرملك. ونشرتا، بمساعدة الجواري الأخريات في خدمة الأميرة عليا، أقمشة حمراء فوق ثلاث أرائك ورتّبتا الأشياء هناك على صوانٍ مغطاة بشاش وشرائط. كان بين الهدايا تاج ماسي، وقلادة وقرطان من الألماس واللؤلؤ، وعدّة دبابيس زينة، ومشبك حزام، ومجموعة كتابة مرصّعة بحجارة كريمة، وقرآن بغلاف ذهبي، وأدوات قهوة، وصحاف مطعّمة بمجوهرات، وملاعق بمقابض مرصّعة بالجواهر، وأدوات مائدة فضية، وأطباق خزفية، وأحواض غسيل مع أكواز، وأباريق زجاجية، وكؤوس ومرايا يدوية. كانت عشرة فساتين جديدة قد خيطت من أجل جهاز العروس، لكن لم تُعرض أيٌّ من ثياب الأميرة الشخصية. أولاً، زار السلطان قاعة عرض جهاز العروس، تبعته نساء الحرملك السلطاني، ثم كل النساء والفتيات الأخريات في القصر.

نقلت قوارب شراعية كل تلك الأشياء، باستثناء المجوهرات التي ستتقلّدها الأميرة عليا، عبر المضيق إلى منزل الزوجين في فانيكوي، في حين أُرسلت الصناديق الثقيلة والبياضات والأثاث على متن مراكب مغطاة بقماش أحمر. ذهب مسؤولو القصر، وعدد من الجواري المهمات من فريق الموظفين الشخصيين للسلطان والسلطانة الوالدة والأميرة إلى قصر الزوجين على الساحل؛ للإشراف على استعدادات الزفاف.

في مساء الأربعاء، الليلة التي تسبق يوم الزفاف، أُقيم احتفال كبير في الحرملك السلطاني بين النساء، حضره كل أفراد الأسرة الحاكمة بمن فيهم السلطانة الوالدة والأميرات اللواتي يعشن خارج القصر. قدّمت أوركسترا الحريم وراقصات ترفيهاً للجميع، وقد ارتدت كل فتيات القصر اليافعات والنساء ملابس أنيقة. كان ذلك وقتهن للاحتفال؛ لأنه لن يُسمح للجواري باستثناء الهامات منهن والنساء والفتيات اللواتي يخدمن الأميرة عليا بحضور الزفاف. بدت الأميرة عليا تتألق بهاءً في فستان حريري أزرق فاتح بطراز أوروبي، مزّين بشريط من اللون نفسه، في حين كانت صاحبات السمو الأخريات يرتدين ثياباً رائعة أيضاً ويتزيّن بأفضل مجوهراتهن. عند 10:00 مساءً تقريباً أوت الأميرة عليا والأميرات إلى الفراش، وحذت الجواري حذوهن بعد ذلك بوقت قصير.

في صباح اليوم الآتي، ارتدت ديدنور وسرفتسزا الثوبين اللذين كانت الأميرة عليا قد أهدتهما إياهما بمناسبة عيد الفطر، وصعدتا السلالم فوراً لتعتنيا بالأميرة. كانت الأميرة عليا قد أنهت فطورها للتو، وعلى وشك أن ترتدي ملابسها، وكل النساء والفتيات اللواتي يخدمنها موجودات هناك لمساعدتها.

كان فستان العروس ذا لون أبيضَ يميل إلى الاصفرار ومطرّزاً بخيط ذهبي، ومزيّناً بمجوهرات كريمة. ومنذ طفولتها، ارتدت الأميرة ملابس أوروبية الطراز، لذا بدا طبيعياً لها أن تختار فستان عرس أوروبي التصميم، وقد أكمل ثيابها تاج ماسي، وعقد، وقرطان ماسيان، وساعة ذهبية، ودبوس زينة، وسوار من حجارة كريمة، وعدّة خواتم، ومن بينها خاتم زواجها.

مُدَّ قماش أحمر على كل السلالم من الطابق الثاني للقصر إلى الرصيف حيث ستغادر الأميرة على متن مركب إلى منزلها الجديد. كانت أوركسترا الحريم تعزف في الطابق الأول، وكل نساء القصر قد اجتمعن لرؤيتها وهي تغادر المكان، وقد ارتدت أولئك اللواتي سيرافقنها عباءاتهن الحريرية فاتحة اللون وأخمرتهن. كان بصحبة الأميرة عليا معظم الموظفات الأعلى شأناً في القصر، ومربّيتها التي عيّنها والدها عند ولادتها، وتبعتهن ديدنور وسرفتسزا والنساء الثلاث الأخريات من خدمة الأميرة، وهن يحملن ذيل ثوبها الطويل. وقفت خارج القصر فرقة عسكرية تعزف الموسيقى، واصطف مخصيون سود صفّين على كل الطريق إلى الرصيف، ورفعوا على كلا الجانبين قطعة قماش حمراء، فكوّنوا ممراً يمكن أن تمشي الأميرة عبره من دون أن يراها موظفو القصر الكثيرون الذين ينتظرون قرب الرصيف.

صعدت الأميرة عليا على متن المركب الملكي الرسمي الذي ينتظرها، وفيه أربعة عشر زوجاً من المجاذيف ومقصورة مزوّدة بمقاعد حريرية حمراء مزركشة بحاشية ذهبية تتسع لثمانية أشخاص. جلست الأميرة عليا على المقعد المخصص عادة لوالدها السلطان. وعندما اتخذت ديدنور وسرفتسزا والنساء الأخريات مواقعهن، أُغلقت ستائر المقصورة بإحكام. كان المجذفون يرتدون شراويل وصدريات حمراء مطرزة بالذهب، وقمصاناً بيضاء، ويعتمرون طرابيش حمراء. وقف قبطانان يرتديان ثوبين أخضرين متماثلين عند الدفة، ووقف كبير المخصيين ومساعد آخر - يرتديان زياً موحداً، ويضعان قفازات بيضاء، ويتقلّدان سيفين يتدليان إلى جانبيهما - خلف المقصورة وهما يطويان أذرعهما إلى صدريهما احتراماً. رافقت قوارب أخرى أصغر حجماً تحمل مزيداً من نساء الأسرة الحاكمة وموظفات القصر المركب الرسمي في موكب ملون يحمل رايات سلطانية تخفق في النسيم، في حين أوقفت زوارق بحرية، يقودها بحّارة يرتدون زياً أبيض وضباط يضعون شرائط ذهبية، مئات القوارب الخاصة في البوسفور.

لدى وصولها إلى مرفأ القصر الساحلي، انتظرت الأميرة عليا لبعض الوقت في المقصورة السلطانية حتى لحقت بها كل القوارب الأخرى. وقف العريس،

أحمد باشا، على الرصيف بجانب المركب السلطاني وانتظر نزول الأميرة، فقد كان من عادة الأميرات أن يجعلن أزواجهن، الأدنى مرتبة منهن، ينتظرون قليلاً. عندما نزلت الأميرة عليا من المركب، رافقها زوجها ممسكاً ذراعها اليمنى وكبير المخصيين يمسك ذراعها اليسرى. مجدداً، حملت ديدنور وسرفتسزا والجواري الثلاث الأخريات من خدمة الأميرة ذيل ثوبها حين مشوا على لبّاد أحمر يصل إلى داخل القصر عبر ممر من قماش أحمر يمتد على طول الطريق، واللحن السلطاني يُعزف مع تقدم الأميرة.

عندما أصبحوا في الداخل، اصطُحب الزوجان إلى قاعة كبيرة حيث وضع عرش عرس الأميرة عليا، وبعد تمضية بضع لحظات معاً، خرج العريس إلى السلملك لاستقبال الضيوف الذكور. ووفقاً للعادة، أحضرت فتاتان صغيرتان منديلاً مليئاً بنقود ذهبية، وألقت خازنة الحرملك السلطاني حفنات منها على الضيفات. راقبت ديدنور وسرفتسزا الأميرةَ وهي تستقبل حماتها أولاً ثم الأميرات الأخريات، وبعدهن قدّمت زوجات الوزراء والوزير الأول تهانيهن للعروس الجديدة.

عندما انتهى الاحتفال، ذهب الجميع إلى وليمة الزفاف، وتناولت كل أميرة الطعام في غرفة منفصلة من القصر، في حين جُمعت كل اثنتين أو ثلاث من زوجات أصحاب المقام الرفيع في غرفة، وأكلت باقي النساء إلى طاولات مشتركة وُضعت في قاعات كبيرة. في المساء، بعد ذهاب العريس إلى حجرة الزفاف، تسلّت باقي الضيفات في الحرملك بالغناء والرقص، في حين تسلّى الرجال في السلملك . بعد انتهاء اللهو، بقي الوجهاء وزوجاتهن لتمضية الليلة هناك، في حين غادر معظم الضيوف الآخرين. بقيت ديدنور، وسرفتسزا، والنساء الأخريات في خدمة الأميرة عليا؛ للإشراف على إكمال احتفالات الزفاف التي ستقام في اليوم الآتي.

جاء السلطان والسلطانة الوالدة في اليوم التالي إلى احتفال الزواج، وزار السلطان أولاً الأميرة عليا في حجرة الزفاف، ثم ذهب إلى القاعة الكبيرة حيث تجمّعت كل الضيفات. كانت الأميرات قد شكّلن صفاً واحداً منفصلاً عند أحد جدران القاعة، ووقف السلطان قربهن وعرّفت خازنة الحرملك كل واحدة منهن إليه، وبعد الانحناء لوالدهن، اصطفت الأميرات بجانب السلطانة الوالدة إلى يمينه. وقُدّمت النساء الأخريات، ابتداءً من حماة الأميرة عليا إلى السلطان، ثم وقفن في صفٍّ إلى يساره بعد أن انحنين احتراماً. عندما انتهت المراسم، ذهب السلطان إلى السلملك ، وهنأت الضيفات السلطانة الوالدة ثم غادرن المكان، وانتهى حفل استقبال الزواج الرسمي.

صعد كل الضيوف على متن قوارب صغيرة وعادوا إلى بيوتهم. وبعد أن تلقتا أموالاً سخية من أميرتهما، عادت ديدنور وسرفتسزا إلى القصر مع الجواري الأخريات. كانت تلك تجربة استثنائية وجيّاشة العواطف بالنسبة لهما.

قالت ديدنور بنبرة حزن وعدم يقين في صوتها: "سرفتسزا، أحد فصول حياة أميرتنا يُغلق، وآخر جديد يُفتح. آمل أن يكون مملوءاً حظاً جيداً".

كان القصر حتى ذلك الوقت عالماً آمناً ومريحاً لديدنور، وقد جعل وجود الأميرة عليا وسرفتسزا حياة الشابة الشركسية ذات معنى وممتعة في الوقت نفسه، لكن أحد الأسباب الرئيسة لرفاهيتها قد تزوجت وانتقلت لتبدأ مرحلة جديدة في الحياة، وبعد وقت قصير ستتزوج سرفتسزا وتغادر القصر أيضاً. غير واثقة بما يخبئه المستقبل لها، شعرت ديدنور بقلق غير مألوف.

أحسّت سرفتسزا باضطراب صديقتها، وحاولت التخفيف عنها: "صحيحٌ أن أميرتنا قد أغلقت أحد فصول حياتها، لكن يجب أن تكون هناك دائماً خاتمة قبل أن نشرع في بداية جديدة. ومن يعرف؟ ربما ستكون المرحلة الجديدة في حياتها أفضل كثيراً من السابقة. يجب أن نكبر جميعاً يا ديدنور، وأن نمضي قدماً في الحياة. إذا بقيت يرقةٌ وقتاً طويلاً في شرنقتها، فستموت ولن تحظى أبداً بفرصة أن تصبح فراشة".

فهمت ديدنور ما قالته سرفتسزا. أحياناً، يجب أن نترك الحياة تأخذ مجراها، لكن من الصعب فعل ذلك إن كان الشخص عزيزاً جداً عليك، حتى إن بدا ذلك أفضل له. من ناحية أخرى، ستحظى الأميرة عليا الآن ببلاطها وقصرها الخاص، ولم تعد إحدى أميرات القصر اليافعات، وقد ارتقى موقعها وازدادت واجباتها كثيراً بزواجها. بعد أن دخلت عالم الأنوثة الكاملة، ستحمل الأميرة مسؤولية أكبر كثيراً من ذلك الوقت فصاعداً، لكن ديدنور تعرف أن الأميرة عليا قد أُعدّت جيداً لدورها الجديد، وأنها ترحب به، وتعرف أنها ستصبح فراشة جميلة.

عندما عادت جميع الجواري إلى القصر تابعن الحديث عن الزفاف وقصر الأميرة عليا الجديد، وأمضين الأمسية في وصف احتفال الزواج إلى العديد من الجواري الأخريات اللواتي لم يستطعن حضوره. أردن أن يعرفن كل التفاصيل عن الزفاف، والعريسين، ومسكنهما الجديد. وعلى الرغم من أنهما كانتا مرهقتين، إلا أن ديدنور وسرفتسزا أمضتا ساعات وهما تتكلمان إلى فتيات أخريات، وتدليان بتقارير شاهدتَي عيان عن احتفال زواج الأميرة.

بعد زواج الأميرة عليا فوراً، كُلّفت النساء والفتيات من فريق خدمتها

بمهمات جديدة. ستذهب سرفتسزا وقتاً قصيراً إلى منزل مُعتقة؛ سرايلي متزوجة تعيش خارج القصر حتى وقت زفافها، في حين عُيّنت ديدنور ضمن فريق خدمة جورية خانم، آخر محظيات السلطان. وعلى الرغم من أن تلك المحظية السلطانية كانت فتاة شركسية جذّابة، إلا أنها حادّة الطباع على نحو يثير حنق ديدنور. بدا أن مزيجاً من الطموح والثقة المفرطة بالنفس قد جعل جورية خانم قاسية ومتعجرفة، ولا تتردد في التعبير عن عدم رضاها حين تنزعج.

قالت المحظية السلطانية بصوتٍ قاسٍ: "ديدنور، أتوقع منك اهتماماً كاملاً بطلباتي. لن أقبل كسلاً من جانب جواريّ".

ردّت ديدنور بتهذيب: "نعم يا سيدتي". لكنها انزعجت من الملحوظة الحادة. ففي السنوات التسع التي أمضتها ديدنور في خدمة الأميرة عليا، لم تكن الأميرة قد تكلمت إليها بأسلوبٍ قاسٍ مطلقاً. هل نسيت جورية خانم بسرعة أنها حتى وقت قريب كانت مجرد جارية تخدم السلطانة الوالدة؟ إضافة إلى ذلك، كانت ديدنور معروفة ومحط إعجاب في كل أرجاء القصر لكدّها ومثابرتها. ألم تطلب كبيرة الجواري المهمات شخصياً منها البقاء في الحرملك السلطاني؟ كيف يمكن لتلك المحظية السلطانية الجديدة أن تشير حتى إلى أنها قد تكون كسولة؟

كانت ديدنور تعرف أن جورية خانم غير محبوبة بين فتيات القصر، وقد بدأت تفهم آنذاك السبب. هل كان ذلك بسبب جمالها الطبيعي؟ أم إنها قد فقدت اتزانها بسبب هيبة موقعها الجديد؟ أم إنهما الأمران معاً؟ كانت آداب السلوك المفروضة في القصر كافية عادة لصقل خصائص شخصيات الأفراد، لكنْ بدا واضحاً أن اهتمام السلطان المفاجئ قد جعل جورية خانم تشعر بقوة كافية لتتجاهل مراسم القصر. عرفت ديدنور أنه على المدى الطويل يجب أن تعدّل المحظية سلوكها من أجل مصلحتها. لكن، في هذه الأثناء، ينبغي أن تتوخى ديدنور أقصى درجات الحذر إن بقيت في القصر ضمن فريق خدمة تلك الشابة.

ودّعت ديدنور وسرفتسزا بعضهما ذلك المساء آخر مرة؛ لأن سرفتسزا ستغادر القصر في صباح اليوم التالي. طبعاً، كان بمقدورهما أن تريا بعضهما بين الحين والآخر في المستقبل، لكن ألفة العيش معاً يومياً والاشتراك في كل تفاصيل حياتهما قد انتهت. حاولت ديدنور التركيز على مستقبل أفضل صديقاتها بدلاً من اشتياقها إليها.

قالت ديدنور: "سرفتسزا، أنتِ الآن من تغلق فصلاً في الحياة وتفتح آخر.

ما شعورك بشأن ذلك؟".
"أشعر أن كل شيء كما ينبغي له أن يكون يا ديدنور. نعم، لقد أمضيت أكثر قليلاً من تسع سنوات من حياتي بوصفي جاريةً في القصر، لكنها كانت مدة تعليم مدهشة، ولا أعني تعلّم اللغة والتطريز أو أشياء أخرى مماثلة فقط، وإنما كما تعرفين الانضباط، والمبادئ، والسلوك المهذّب، والاحترام، والاهتمام بالآخرين أيضاً. لقد حظينا بأفضل تدريب تحصل عليه أيّ امرأة في السلطنة، وربما حتى في العالم، ولدينا الآن شبكة رائعة من نساء واسعات النفوذ نعتمد عليها عند الحاجة، فضلاً عن السلطان نفسه. لدي منزلي الخاص، ودخلٌ مدى الحياة، ومجوهرات ثمينة، وملابس، وزوج جديد كان قد تمرّن أيضاً في القصر. سأحصل غداً صباحاً على وثيقة عتقي، وسأحظى بالمكانة نفسها مثل نساء عثمانيات أخريات. في الواقع، أتمتع بميزة القرب من الأسرة الحاكمة. ماذا يمكن أن أطلب أكثر من هذا يا ديدنور؟".
"سرفتسزا، أحب الطريقة التي تدخلين بها صلب الموضوع مباشرة، وترين الحياة بحقيقتها الأصلية. يجب أن تخدمك هذه الهبة جيداً في الحياة".
علّقت سرفتسزا، بابتسامة باهتة على وجهها: "وأنا أحب الطريقة التي تكبحين بها دائماً تهوّري يا ديدنور. ولولا تأثيرك الراسخ فيّ، أعرف أن سنواتي هنا كانت ستمضي بصعوبة أكبر كثيراً. يجب ألا نسمح لعلاقتنا أن تضعف، وكوني واثقة أنني سأتصل بك كلما أقحمت نفسي في مشكلة!".
أدارت ديدنور رأسها إلى الجانب لتخفي دموعها التي ترقرقت في عينيها، وردّت: "لن أقبل بأقل من هذا".
في صباح أحد الأيام، بعد عدّة أسابيع عندما كانت ديدنور في جناح جورية خانم، شُغل ذهنها بأفكار عن مستقبلها. كانت الأميرة عليا قد تزوجت وغادرت القصر، ورحلت سرفتسزا لتتزوج بعد وقت قصير. هل حان دور ديدنور لتغادر أيضاً؟ كانت سرفتسزا محقة، فسنواتهما التسع من الخدمة في القصر تعدُّ تعليماً استثنائياً، لكن ربما حان الوقت حتى تفتح ديدنور فصلاً جديداً في الحياة أيضاً. عندما تزاحمت تلك الأفكار في ذهن ديدنور، انزلقت مزهرية كانت تحملها إلى طاولة صغيرة في جناح جورية خانم من يديها، وتحطّمت محدثة صوتاً عالياً حين ارتطمت بالأرضية وتناثر الماء منها. تكدّست الورود الرطبة وقطع الآنية المكسورة في كومة على الأرضية عند قدمي ديدنور.
سمعت جورية خانم الصوت، فاندفعت فوراً إلى الغرفة، ومن دون أن تمنح ديدنور فرصة الاعتذار، بدأت المحظية السلطانية بتوبيخها.

"انظري إلى الفوضى التي تسبّبتِ بها! سيظن المرء أنك مبتدئة قد وصلت للتو إلى القصر. ألم تتعلّمي شيئاً منذ مجيئك إلى هنا؟ كيف لك أن تكوني خرقاء إلى هذا الحد؟".
أسرعت عدة جوارٍ في خدمة جورية خانم إلى الغرفة وحدّقن إلى ديدنور.
كان أول شيء فكّرت فيه هو أن تعتذر عن الحادثة، لكنْ بعد أن سمعت تقريع الانتقاد الغاضب من المحظية السلطانية، انحنت ببساطة إلى الأسفل والتقطت القطع الخزفية والورود عن الأرضية، ثم طلبت بتهذيب من إحدى المبتدئات أن تمسح الماء ونزلت السلالم إلى مقر الخدم.
جلست ديدنور على أريكة، وسحبت عدّة أنفاس عميقة لتستعيد رباطة جأشها. تذكرت فجأة الحادثة التي كسرت فيها سرفتسزا دمية خزفية جميلة كانت أميرة دانمركية قد أهدت الأميرة عليا إيّاها. وعلى الرغم من كونها الدمية المفضّلة للأميرة العثمانية، إلا أنها سمحت بين الحين والآخر لديدنور وسرفتسزا باللعب بها أيضاً. يوماً ما، عندما كن هن الثلاث يلعبن دور الممرضة، وضعت سرفتسزا الدمية الخزفية على طاولة لتفحصها، وعندما بدأت تقيس درجة حرارتها، ارتطمت سرفتسزا بالطاولة فسقطت الدمية عنها وتحطمت على الأرضية. ومن دون أي علامة على الغضب، قالت الأميرة عليا: "الحمد لله لأن ما انكسر هو الدمية فقط!". استدارت بعد ذلك إلى سرفتسزا التي كانت تبكي، وقالت تواسيها: "لا تبكي يا أختي الجميلة، فأنا لم أحب تلك الدمية على كل حال".
لدى مقارنتها الحادثتين، شعرت ديدنور أن ما حدث ذلك اليوم يمثّل علامة؛ علامة تشير إلى أن الوقت قد حان لتمضي قدماً في الحياة. إذا بقيت في القصر، فلن يكون أمامها إلا خياران فقط، فإما أن تقبل غير المقبول وترضخ لشخصية جورية خانم التي لا تُحتمل، أو تحاول أن تواجه الطبيعة المتقلّبة لتلك الشابة. كانت ديدنور تعرف أن مثل تلك المواجهة تنطوي على مخاطر كثيرة، وبالمحصلة فإن المحظية الجديدة كانت تحظى آنذاك بدعم السلطان. إضافة إلى ذلك، بدا واضحاً أن السلطانة الوالدة قد أُعجبت كثيراً بالشابة وأنها أوصت بالجارية لدى ابنها. أيقنت ديدنور أنها ستحظى برضا جورية خانم على المدى الطويل، فهي تؤمن بالعدل الإلهي، وتعرف أن بذور أفعالنا تتبرعم عاجلاً أو آجلاً، وتنمو بمرور الوقت إلى أشجار مثمرة وتعود علينا في نهاية المطاف على شكل فاكهة - حلوة أو مرة - بحسب البذور التي زرعناها. لكن، في هذا الوقت، لم يكن أي من الخيارين المفتوحين أمام ديدنور في القصر مغرياً لها، وخيارها الوحيد الآخر

كان أن تطلب الزواج وتغادر المكان لتبدأ حياة جديدة؛ فاتخذت ديدنور قرارها.

الفصل السادس

قصر دولمبهس، 1867

جرياً على العادة، سطّرت ديدنور رسالة إلى السلطان تطلب فيها الإذن بمغادرة القصر، وبدا مفهوماً أنها ترغب بالزواج. سلّمتها إلى كبيرة الجواري المهمات التي أعطتها إلى آغا الحرملك، ومرّرها بدوره إلى السلطان. كانت مدة خدمة ديدنور البالغة تسع سنوات ستنتهي بعد أسبوعين، وستتلقى وثيقة تؤكد أنها امرأة حرّة. بحلول ذلك الوقت، ستذهب إلى منزل سرايلي حرّة حتى الانتهاء من ترتيب زواج لها، وسيتولى آغا الحرملك تفاصيل جهاز عرسها، وسيقوم بالإجراءات الضرورية مع الخزانة الملكية.

انقضى الأسبوعان التاليان بسرعة، وتفادت ديدنور التواصل وجهاً لوجه مع جورية خانم قدر الإمكان، ولحسن الحظ لم تقع أي حادثة أخرى بغيضة بينهما. طبعاً، شعرت ديدنور بالحزن لمغادرة القصر، فقد أقامت عدّة صلات عميقة جداً مع الجواري اليافعات وعددٍ من الجواري المهمات. كانت مشفقة قد أصبحت مشرفة، وفرح - شاه قد ارتقت في إدارة الحرملك لتتبوأ منصب مساعدة الخازنة، وقد أظهرت كلتا المرأتين دعماً قوياً لديدنور واعتنتا بها بمرور السنين. كانت ديدنور محبوبة ومحترمة أيضاً من الجواري في مثل عمرها، ومن أولئك الأصغر منها خاصة؛ لأنها تمد يد العون لهن دائماً. ولو أن المصير لم يضع ديدنور في خدمة جورية خانم، ودفعها من ثَمّ برفق إلى خارج الباب، ربما لم تكن لتغادر القصر مطلقاً.

بعد تلقيها وثيقة عتقها، أُرسلت ديدنور إلى منزل نازك خانم؛ سرايلي تعيش في قصر يطل على القرن الذهبي، التي رحّبت بها في منزلها بحرارة. كانت نازك خانم شابة يبلغ عمرها نحو اثنتين وعشرين سنة، وتذكّرت كلتا المرأتين بعضهما من الوقت الذي كانت نازك لا تزال فيه في الحرملك السلطاني، لكنهما لم تكونا مقرّبتين بسبب فارق العمر. كانت نازك، الشركسية أيضاً، قد غادرت القصر بعد وصول ديدنور ببضع سنوات وفقدتا الاتصال ببعضهما، وبعد عتقها، تزوجت من ضابط بحرية ذي رتبة عالية، وأنجبا ابنتين توأماً، خديجة وأمينة، اللتين تبلغان من العمر ثلاث سنوات. ونظراً إلى ابتعاد زوجها عن المنزل معظم الوقت، تمحور عالم نازك حول ابنتيها.

عندما كانت ديدنور في القصر كتمت غرائز الأمومة، لكنْ بعد أن تركت ذلك المكان خلفها آنذاك، أطلقت العنان لتلك المشاعر. فتنَ لطفُ التوأم وبراءتهما لبّ ديدنور، وتهللت البنتان فرحاً بالاهتمام الإضافي، وسرعان ما

انسجمتا معها. كانت إحداهما على الأقل تبقى في حجر ديدنور - وأحياناً كلتاهما - من وقت استيقاظها في الصباح وحتى تخلد إلى النوم في الليل. أظهرت ديدنور حباً واهتماماً كبيرين بهما؛ وكأنها تعوّض عن السنوات التي أمضتها في القصر بعيدة عن أي تواصل مباشر بأطفال صغار، وعندما تأوي إلى السرير في الليل، تتخيّل أنها تتزوج وتنجب أولاداً. وعلى الرغم من أن الأسر الكبيرة لم تكن مألوفة في إسطنبول، إلا أنها أرادت إنجاب عدد كبير منهم؛ كلما ازداد العدد، كان ذلك أفضل.

لم يتأخر النبأ المتعلق بزفاف ديدنور في الوصول. وفي اليوم الرابع من زيارتها، نقلت إحدى زوجات الآغا رسالة أنه قد جرى الترتيب لزواجها من عقيد في الجيش يدعى داوود، وسيُقام الاحتفال الرسمي بعد أسبوع، وسيحضره آغا الحرملك بوصفه ممثلاً للعروس. كان القصر يحضّر جهاز عرس ديدنور وسيُنقل إلى منزلها الجديد قبل يوم من الزفاف، لكن لم ترد أي أخبار أخرى من آغا الحرملك.

لم يكن المسؤول في القصر قد أدلى بما يكفي من معلومات لإشباع فضول المرأتين. بعد أن غادرت زوجة الآغا، قالت نازك إن صديقة مقرّبة لها قد تزوجت من قائد في الجيش سيعرف بالتأكيد العريس العتيد، وإنها ستكون سعيدة بزيارة صديقتها إن رغبت ديدنور بذلك، فشكرتها كثيراً، وقرّرتا المضي قدماً في ذلك. كانت نازك ستزور صديقتها في حين ستبقى ديدنور في المنزل وتشرف على العناية بالتوأم. اصطحبت نازك خانم جاريتين يافعتين معها، وذهبت لتعرف ما يمكن معرفته عن زوج ديدنور المستقبلي.

في أثناء تمضيتها اليوم مع التوأم، شرد ذهن ديدنور أحياناً إلى موضوع العريس، وتساءلت على نحو خاص أي نوع من الآباء سيكون. هل سيرغب بإنجاب أولاد مثلها؟ هل سيكون أباً لطيفاً ومحباً؟ هل سيجعل أسرته مركز عالمه كما خططت ديدنور أن تفعل؟ انتظرت الشابة بنفاد صبر عودة نازك خانم توقعاً لبعض المعلومات عن شخصية زوج المستقبل.

عندما رُفع أذان صلاة العصر من المئذنة، توقفت عربة نازك خانم أمام المنزل. دخلت السيدة منزلها ونظرة ارتياح تعلو وجهها، وبدا واضحاً أنها تحمل بعض المعلومات المهمة إلى ديدنور. بعد أن عهدت بالتوأم إلى كبيرة الجواري، ذهبت نازك وديدنور إلى غرفة جلوس خاصة حيث يمكن أن تتكلما بمفردهما.

"ديدنور، كان فكرت باشا مفيداً جداً، واستطعنا الحصول على تصوّر واضح جداً عن العقيد داوود".

أجابت ديدنور: "لا أعرف كيف أشكرك على مساعدتك".
ردّت نازك: "أنا أكثر من سعيدة لمساعدة سرايلي أخرى. أعرف أنك كنت ستفعلين الشيء نفسه من أجلي. بالحديث عن العقيد داوود، علمت أن عمره اثنتان وأربعون سنة، وأنه وُلد في قرية قريبة من موستار. بعد أن تعلّم اللغة والعادات العثمانية والدين الإسلامي، انتسب إلى كلية عسكرية ودرس هناك ثماني سنواتٍ أخرى. بعد ذلك، أُرسل إلى فرقة الفرسان وارتقى الصفوف هناك بمرور السنين ليتبوأ منصبه الحالي. إنه ضابط معروف بانضباطه الصارم وعمله الدؤوب، وبقي متزوجاً حتى وقت ليس ببعيد حين توفيت زوجته بذات الرئة. لم يُرزق بأولاد من ذلك الزواج، لكن والدته العجوز تعيش معه في بايزيد".
شعرت ديدنور بالسعادة من خلفية العقيد داوود وتدريبه، فتلقيه التعليم في مدرسة عسكرية يعني بالتأكيد أنه قد تمرّن على آداب السلوك والعادات العثمانية. لكن، ظهرت علامة استفهام في ذهن ديدنور بشأن أسرته: لماذا لم يكن هناك أي أولاد من الزواج الأول؟ هل يعقل أنه لم يرغب بإنجاب أطفال؟ كان ذلك سؤالاً لا يمكن أن تجيب عنه حتى زوجة الباشا، وستضطر ديدنور إلى الانتظار حتى وقت ما في المستقبل لتعلم الحقيقة من العقيد نفسه.
مرت الأيام بسرعة، وحلَّ يوم احتفال الزفاف الرسمي بعد وقت قصير. ارتدت ديدنور فستاناً حريرياً جديداً، كان القصر قد أرسله إليها من أجل تلك المناسبة، في حين نُقل باقي جهاز عرسها إلى منزلها الجديد. تقلّدت أيضاً قلادة وقرطي لؤلؤ منحتها إيّاها السلطانة الوالدة لدى مغادرتها القصر. لم يكن حاضراً إلى جانب العريس إلا الإمام، وآغا القصر، وزوج نازك، وضابط بحرية آخر بوصفهما شاهدين على عقد الزواج.
انتظرت ديدنور ونازك في غرفة مجاورة، بالرغم من أن ديدنور التقت العريس قبل وقت قصير من عقد القران. كانت تلك فرصة لها لترى العريس وترفض الزواج إن وجدت سبباً لذلك. عندما التقيا، لم تحظَ ديدنور إلا بانطباع عام عن العقيد داوود؛ لأنها شعرت بخجل شديد منعها من النظر إلى وجهه مباشرة. كان طويلاً ونحيلاً، لكنه قوي البنية، وتظهر عدّة شعرات بيضاء على صدغيه، ويبدو مميزاً في بذلته العسكرية. لم تر ديدنور شيئاً يجعلها ترفضه، لذا تابعت إجراءات الزواج.
بعد المراسم الموجزة، تناول الرجال العشاء في غرف الذكور، والنساء في الحرملك. لم تأكل ديدنور كثيراً؛ لأن معدتها اهتاجت قليلاً، وكانت أهمية

الخطوة التي تُقدم عليها قد بدأت تلقي بظلالها. وباستثناء الأحداث المأساوية التي انتزعتها من وطنها وأحضرتها إلى إسطنبول، عاشت ديدنور حياة سعيدة ورغيدة، وطبعاً يعزى سبب ذلك جزئياً إلى طبعها الهادئ. نظرت إلى العالم بإيجابية، وحاولت التركيز على النِّعَم التي حظيت بها، ومن ثمّ حظيت بانعكاس إيجابي من مرآة الحقيقة. كان زواجها، على كل حال، خطوة نحو مستقبل غامض، ولم يسعها إلا أن تأمل وتتضرّع أن يكون سعيداً.

شعرت نازك بقلق ديدنور، وبدأت تتكلم عن مخاوفها وخشيتها في ليلة زفافها:

"لم يكن الانتقال من عالم أنثوي على نحو كامل إلى ذراعي رجل غريب شيئاً سهلاً، وذكّرني كثيراً بالروليت الروسي، لكن الحمد لله لم يكن لمخاوفي أساس. تبين أن زوجي شخص حنون وعطوف جداً، وقد نما حب عميق بيننا، وازداد صلابة بولادة توأمنا. لا تقلقي يا ديدنور، فأنا واثقة أن كل شيء سيكون على أفضل ما يرام على المدى الطويل".

ابتسمت ديدنور لها شاكرة. ربما كانت تشعر بقلق بالغ نتيجة غموض ما ينتظرها، وبدا طبيعياً بالتأكيد أن تحس معظم العرائس بالخوف في ليلة زفافهن. قرّرت ديدنور أن تدفع مخاوفها جانباً وتستمتع بوقتها.

بعد نصف ساعة، أعلنت جارية يافعة أن العقيد داوود مستعد للمغادرة. ارتدت ديدنور خمارها وشكرت نازك على كل مساعدتها ولطفها. طمأنت نازك العروس الجديدة أن بابها مفتوح دائماً، وأنها ستشعر بسعادة لمساعدتها بأي طريقة ممكنة. تعانقت الشابتان، وغادرت ديدنور لتصعد إلى العربة التي كانت تنتظر عند الباب الأمامي.

رافق العقيد داوود العربة ممتطياً صهوة جواده، وتحرّكت المركبة ببطء على طول الشوارع الضيقة الملتوية، واستطاعت ديدنور سماع صخب الحشود في الطريق، لكنها لم ترَ شيئاً في الخارج بسبب الستائر المغلقة بإحكام. في نهاية ما بدا أنها رحلة طويلة جداً، توقفت العربة فجأة، وفتح العقيد داوود بابها، ثم ساعد ديدنور في الترجل منها. جال بصرها في أرجاء الحي المحيط بهما، وبخلاف المنظر الواسع الذي يمكن رؤيته من منزل نازك ويطل على القرن الذهبي، كانت المنازل هناك مبنية متلاصقة تقريباً ويواجه أحدها الآخر. شاهدت مصاريع مزوّدة بستائر مخرمة تغطي كل النوافذ التي تقع قبالة الشارع. تذكرت ديدنور مباني القصر الضخمة، وأدركت أن الأمر سيتطلب بعض الوقت لتعتاد على المنازل الصغيرة المتجاورة في ذلك

الشارع الضيق.
فتحت جارية متوسطة العمر الباب، وتبعت ديدنور العقيد داوود إلى غرفة جلوس مزوّدة بمزيج انتقائي من الأثاث. شاهدت على طول أحد جوانب الغرفة أريكة عثمانية عليها وسائد بالية قليلاً خضراء وذهبية مطرّزة كانت أنيقة سابقاً، وبجانب الجدار المقابل كانت هناك كراسٍ بتصميمات أوروبية مختلفة منجّدة باللونين الأحمر والأزرق، واحداً بعد الآخر. كان الجدار الثالث يضم خزانة خزفية سوداء لامعة ضخمة، في حين عُلّقت سجادة ألمانية عليها أسد أصفر كبير على الجدار الرابع.
شعرت ديدنور بالارتباك، وحاولت أن تدرك المراد من ذلك كله حين دخلت والدة داوود الغرفة، وبدت المرأة العجوز بطريقة ما مرتاحة تماماً في تلك الغرفة. كانت ثياب المرأة من مصادر مختلفة أيضاً، وترتدي ما بدا أنه كان في الأصل قفطاناً، لكن ياقته قد أُزيلت وزُين بريش، وتنتعل في قدميها خفّين تقليديين، لكنها تعتمر قبعة ريفية أوروبية قطنية بيضاء على رأسها. كانت تتقلّد كمية استثنائية من المجوهرات، وكل إصبع تحمل خاتماً عليه حجر كريم مختلف عن الآخر، وقلادة تتدلّى على صدرها.
مدّت المرأة يدها إلى العروس الجديدة لتقبّلها، وقالت بلهجة ثقيلة جداً: "أنتِ محظوظة جداً، أنتِ محظوظة جداً لتحظي برجل مثل ابني". أشارت إلى أرجاء الغرفة وتابعت: "كما ترين، لن تحتاجي إلى شيء. ستكون حياتك مترفة وسهلة، لكن يجب أن تنجبي لنا ولداً!".
دُهشت ديدنور من كلمات تلك المرأة، ونظرت إلى داوود الذي تفادى نظرتها، ووقف هناك فحسب ونظرة بؤس تبدو على وجهه. عندما أدركت ديدنور أن يد حماتها لا تزال ممدودة في الهواء، استجمعت رباطة جأشها، وقبّلت يد المرأة العجوز بسرعة. لم تعرف العروس الجديدة كيف ترد على كلمات حماتها، فالتزمت الصمت.
عادت المرأة العجوز إلى غرفها وهي تقول: "داوود، أرِ زوجتك الجديدة غرفتك".
استدار العقيد واتجه نحو باب مغلق يؤدي إلى خارج غرفة جلوس الحريم، وتبعته ديدنور. عندما دخلت الغرفة، شعرت بالارتياح قليلاً، فعلى الأقل لم يكن في تلك الغرفة أيٌّ من زُخرف غرفة الجلوس. كانت مؤثثة ببساطة بأريكة عثمانية عند أحد طرفيها، وخزانة مدمجة بالجدار عند الطرف الآخر تضم كسوة الفراش وبعض الثياب. شاهدت طاولة صغيرة للقراءة أو الكتابة، ومنقلاً نحاسياً كبيراً، ومكتبة مملوءة كتباً عند إحدى الزوايا، وباباً يُفتح من

الغرفة إلى حيّز بمساحة خزانة يدعى غوسولهين ؛ لا يتسع إلا لشخص واحد ليستحم بمفرده بأن يصبَّ الماء عليه من أباريق كبيرة.
قرعت خادمة على الباب، ثم دخلت ودلّت ديدنور على المكان الذي وُضع فيه بعض جهاز عرسها في الخزانة.
قالت الفتاة بابتسامة على وجهها: "باقي مقتنياتك وُضعت في غرفة الخزن يا خانم، وسأكون سعيدة لأدلّك على المكان غداً". سألت الفتاة: "هل تريد شيئاً أيها العقيد؟".
ردَّ داوود: "يمكن أن تحضري لنا بعض الفاكهة".
جلس داوود بجانب ديدنور على الأريكة.
قال العقيد: "آمل أن تتسلّي حين أكون بعيداً يا ديدنور. نظراً إلى طبيعة عملي، لن أكون موجوداً في المنزل كثيراً؛ لأنني أمضي وقتاً طويلاً أدرّب الجنود في الميدان".
نهض داوود ومشى إلى المكتبة، ثم سألها: "هل تحبين القراءة؟".
ردّت ديدنور أنها تحبها، فاختار بضعة كتب ظنَّ أنها ربما ستستمتع بها. عندما أعطاها الكتب، حاولت ديدنور أن تنظر إلى عينيه، لكن العقيد لم ينظر إليها.
عادت الخادمة وهي تحمل بعض الفاكهة، بدأت ديدنور تقشّر بعض التفاح، ثم وضعت الشرائح على طبق صغير وأعطت داوود إيّاه. مجدداً، حاولت أن تتواصل بصرياً معه وهذه المرة نظر إليها، لكن النظرة في عيني العقيد جعلت ديدنور ترتعش. لم تكن هناك حيوية في عينيه، ونظرته تبدو خالية من أي انفعال تماماً. شعرت ديدنور بالقلق، وتساءلت إن كان لا يزال حزيناً على زوجته المتوفاة، وأخبرت نفسها أنها يجب أن تتحلّى بالصبر معه. في الوقت المناسب، سينسجم بالتأكيد مع حياته الجديدة ويوليها اهتمامه كله.
استدعى داوود خادمتين لتعدّا السرير. وجدت ديدنور رداء نومها الجديد بين أمتعتها في الخزانة، فنزعت ملابسها، وارتدت بخجل ثوبها الحريري الأزرق الجديد. بدت ديدنور بشعرها الطويل الأشقر بلون العسل الممشط فوق كتفيها فاتنة. لم يكن حُسنها مثيراً مثل جمال سرفتسزا، لكنه أكثر رقّة وتشذيباً، وجاذبيتها ممزوجة بصفاء شخصيتها وخصالها الحميدة. بالمختصر، كانت ديدنور عروساً لا يمكن لرجال كثيرين إلا أن يحلموا بها...
في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، استيقظت ديدنور قبل بزوغ الشمس لتتوضأ قبل صلاة الفجر. عندما سكبت الماء فوق رأسها، اختلط

بالدموع التي سالت على وجنتيها. لماذا لم يجدها داوود جذّابة؟ هل فعلت شيئاً خاطئاً؟ لماذا بقي صامتاً ومنعزلاً عاطفياً عنها؟ لا مديح... لا كلمات حلوة... لا ارتباط عاطفي... لم تفهم ديدنور. لماذا تزوجها؟
أنهت ديدنور الاستحمام، جفّفت نفسها، ولفّت شعرها الرطب بمنشفة، وبعد أن ارتدت ثيابها كلها، مدّت سجادة الصلاة على الأرضية وأدّت صلاة الصبح. جلست ديدنور على سجادة الصلاة وقتاً طويلاً، تتضرّع إلى الله أن يهديها. شعرت بخيبة أمل كبيرة، وارتباك كبير، ووحدة شديدة... عرفت أنها في وضع صعب جداً، وأنه ليس هناك أحد يسديها نصيحة، لذا كان أملها الوحيد أن يرشدها الله إلى ما تفعله.
شعرت ديدنور بحاجة إلى أن تكون بمفردها، لذا قرّرت الذهاب للبحث عن غرفة الخزن حيث وُضع باقي جهاز عرسها، لتشغل نفسها بالأشياء التي أرسلها القصر. سألت إحدى الخادمات عن الاتجاهات، وقيل لها إن غرفة الخزن خارج القاعة التي تؤدي إلى السلملك ، فمشت في الرواق الطويل، توقفت وحاولت فتح الباب، لكنه كان موصداً. عندما حاولت أن تدفع الباب برفق، ركضت خادمة إليها وأخبرتها أنه ينبغي ألا يُفتح الباب أبداً. كان باب غرفة الخزن هو التالي في الممر، ولم تفهم ديدنور سبب كل تلك الجلبة، لكنها تابعت طريقها إلى الباب المنشود ووجدته مفتوحاً ويؤدي إلى غرفة صغيرة تحتوي صناديق من الملابس ومواد التخزين الأخرى. عندما رأت ديدنور الفساتين الجميلة، وأواني المائدة الفضية اللامعة، وطقم القهوة الأنيق، والساعة السويسرية الكبيرة، والمواد المنزلية الأخرى التي أرسلها القصر إليها، شعرت فجأة بالغربة في ذلك المكان. اشتاقت إلى فخامة القصر ووقار الحياة ونقائها فيه. هل اتخذت قراراً خاطئاً؟ هل كان يجب أن تبقى في ذلك العالم النبيل؟ تكاد تذرف دموعاً، تذكرت ديدنور فجأة نزوات جورية خانم. لا، فعلت ما ينبغي عليها فعله، وقد قبلت الخيار الوحيد المقبول، ويجب أن تتحلّى بالصبر حتى يُفتح دربها.
بعد تفحّص جهاز عرسها بحرص، وضعت ديدنور كل شيء في مكانه، وغادرت غرفة الخزن. عندما اقتربت من غرفتها، سمعت حماتها تتكلم بصوتٍ عالٍ إلى داوود في الداخل، ولم تفهم ما يقال؛ لأن حماتها تتكلم بلغتها الصربية الأم، لكنها كانت تتحدث بنبرة قاسية وانفعالية جداً. ردَّ داوود بارتباك: "أعدك يا أمي، أعدك". وعندما دخلت ديدنور الغرفة، أنهيا الحديث. أبلغتهم الخادمة أن وجبة الفطور جاهزة في غرفة الجلوس، فغادروا الحجرة واتخذوا أماكنهم إلى صينية الطعام.

انقضت الأيام العشرة التالية برتابة حتى أصبح لزاماً على العقيد أن يعود لأداء واجبه. حاولت ديدنور أن تتعرّف على داوود على نحو أفضل، لكن الباب إلى عالمه الداخلي كان مغلقاً بإحكام. بقي حديثهما دائماً على السطح، ولم تستطع ديدنور التغلغل إلى أفكاره العميقة. لم يكشف داوود، من ناحية أخرى، عن أي مشاعر، وبدا أن قلبه قد تحوّل إلى حجر.

بعد أن غادر العقيد، بدأت نساء الحي يزرن ديدنور للترحيب بها وتهنئتها. أمضت والدة داوود معظم وقتها متكاسلة تشرب القهوة وتدخّن نرجيلة في بقعتها المفضّلة على الأريكة أمام النافذة التي تطل على الخليج. كانت تجلس هناك ساعات وهي تنظر إلى خارج النافذة؛ وكأنها تنتظر عودة ابنها. لم تكن لديها أي اهتمامات أخرى أو تركّز على شيء آخر باستثناء ابنها.

في البداية، حاولت ديدنور إبقاء نفسها مشغولة بقراءة الكتب التي أوصى داوود بها، ثم اكتشفت بعد عدّة أيام، لسرورها الشديد، بيانو جديداً تماماً في إحدى غرف الجلوس. عندما سألت عنه، علمت أنه ابتيع من أجل زوجة العقيد الراحلة، لكن دروس البيانو توقفت بسبب مرض المرأة. لم يكن أحد آخر في المنزل يجيد العزف عليه.

كانت ديدنور قد تعلّمت العزف على البيانو حين كانت طفلة في القصر، وقد رافقت وسرفتسزا دائماً الأميرة عليا إلى دروس البيانو. في أحد الأيام، عندما بدأت الأميرة تتمرّن، سألت ديدنور إن كانت تودُّ العزف على البيانو معها. ولدهشة الجميع، استطاعت ديدنور فوراً أن تعزف المقطوعة البسيطة التي بقيت الأميرة تتدرّب عليها أياماً. أدركت المدرّسة موهبتها، وأبلغت رئيسة الجواري المهمات فتقرّر أن تتلقّى ديدنور درساً بعد كل درس للأميرة عليا، وأصبحت بمرور السنين عازفة بيانو بارعة. بعد الحصول على إذن من حماتها لتعزف على البيانو متى أرادت، أمضت ديدنور ساعات كل يوم تعبّر عن حزنها وآمالها في الموسيقى.

لم يمضِ وقت طويل حتى انتشر نبأ إتقان ديدنور العزف على البيانو في أرجاء الحي، وطلبت ضيفات منها دائماً أن تعزف لهن حين جئن لزيارتها، ثم بدأت طلبات الدروس تنهال عليها. أرادت كل النساء الثريات في الحي أن تتلقى بناتهن دروساً في العزف على البيانو، وسرعان ما بدأت ديدنور تتلقّى طلبات حتى من نساء يعشن في مقاطعات مجاورة. في البداية، لم ترغب بأن تحصل على أي مال، لكن مع إصرار الجميع أذعنت لذلك.

برز، على كل حال، استثناء واحد: الفتاة اليافعة؛ الجارة التي فقدت والدها

للتو آنذاك. كانت ديدنور قد لاحظت الاهتمام الكبير في عيني الفتاة حين تجلس إلى لوحة المفاتيح، وعندما استدعتها إلى البيانو مرة حين كانتا بمفردهما، أدركت أن الفتاة تتمتع بموهبة موسيقية. كانت ديدنور تعرف أن المعاش العسكري الذي تتلقاه الأسرة بعد وفاة والدها لن يسمح لها بتلقي دروس خاصة، فتكلمت مع والدتها. أصرّت ديدنور على أن تعلّم الفتاة العزف من دون مقابل، وافقت الوالدة في نهاية المطاف حين رأت رغبة ابنتها في التعلّم وموهبتها الموسيقية. أمضت ديدنور أيامها في العزف على البيانو وتعليم طالباتها، ولم يجعلها ذلك تشعر بالرضا لأنها تحقق شيئاً مهماً فقط، وإنما ساعد أيضاً في استقرارها عاطفياً.

لم يعكّر صفو مزاجها إلا موقف حماتها السلبي منها. في البداية، تصرّفت المرأة بودٍ كافٍ نحو ديدنور بعد أن غادر داوود لأداء واجبه. لكن، بعد بضعة أسابيع، أصبح سلوكها بغيضاً فجأة. شعرت ديدنور بالحيرة من سبب ذلك، وتفحّصت بحرص سلوكها نحو والدة داوود، لكنها لم تجد أي خطأ واضح. لاحقاً سمعت ديدنور حماتها مصادفة تشتكي إلى كبيرة الجواري المهمات؛ لأنها لم تحمل، ما أزعج المرأة كثيراً لأنها بدت عاقدة العزم على رؤية حفيد لها قبل موتها. أوضح ذلك الحديث فجأة سبب سلبية حماتها نحوها والنبرة الآمرة التي قد استخدمتها مع ابنها حين كانا بمفردهما. لكن، ماذا كان بوسع ديدنور أن تفعل؟ أرادت هي أيضاً ولداً، لكن الأمر لم يكن بيدها.

لم تغادر حماة ديدنور موقعها أمام النافذة مطلقاً إلا لتأكل وتنام، وبدا أنها تحاول إرغام ابنها على العودة بالجلوس هناك والتركيز على ذلك الأمر. وسواء أكانت قد نجحت في ذلك أم بمحض المصادفة، عاد العقيد فجأة إلى المنزل مساء أحد الأيام بعد شهر من مغادرته. في البداية، شعرت ديدنور بإثارة كبيرة لرؤيته، لكن النظرة الخالية من أي انفعال في عينيه ذكّرتها أن داوود لا يحس بإثارة حين يراها. كان مهذباً، لكنه ليس متحمساً. وبعد العشاء، تكلم داوود وقتاً وجيزاً عن عمله، وأخبرته ديدنور عن تلميذاتها، وعزفت بضع مقطوعات موسيقية له، لكنه لم يظهر اهتماماً كبيراً، لذا ذهبا إلى غرفتهما. بعد أن أويا إلى السرير، ظنّت ديدنور أنها سمعت صوتاً؛ هل كان هناك شخص ما يسترق السمع عند الباب؟

في صباح اليوم التالي، سالت الدموع مجدداً على وجه ديدنور حين توضأت في الحمام الصغير الشبيه بالخزانة الملحق بغرفة نومها. شعرت أنها امرأة غير جذّابة، وباستثناء التّماس الجسدي، لم يبدُ داوود مهتماً إطلاقاً بإقامة

علاقة زوجية. لم يكن ينفر منها شخصياً، وشعرت ديدنور أنه حتى إذا كانت هناك أي امرأة أخرى بجانبه فإن ذلك لن يشكل فرقاً لداوود، ما أربكها. من ناحية، أرادت بقوة أن تنجب طفلاً، وكانت مجرد رؤية أحد أبناء الجيران كافية لإثارة غريزة أمومة عميقة فيها، ومن ناحية أخرى جعلها افتقار داوود إلى أي اهتمام تتوخى الحرص الشديد من إنجاب ولد منه. أخبرتها غريزتها أن طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في لحظة الحمل تؤثر كثيراً في الطفل بطريقة ما. ولأنها ترغب بالأفضل فقط لأبنائها المستقبليين، أرادت ديدنور أن تحمل طفلاً بدافع الحب. بدا واضحاً تماماً أن داوود لا يشعر بأي حب تجاهها، وأن مشاعرها الإيجابية الأولية عنه قد أخمدها عدم مبالاته نحوها.

بعد عدّة أيام، عندما كانت ديدنور تنزل إلى القاعة لتعزف على البيانو، رأت داوود يدخل الحجرة الموصدة بجانب غرفة الخزن. أخرج مفتاحاً من جيبه، ودخل الغرفة، وأوصدها من الداخل. شعرت ديدنور بالفضول، وقرّرت أن تنتظر في غرفة الخزن حتى يغادر داوود، وبعد أكثر من ساعة خرج العقيد من الحجرة وأوصدها مجدداً. لم تستطع ديدنور أن تفهم شيئاً من ذلك. ماذا كان يفعل في الغرفة؟ ولماذا كل تلك السرية؟

بعد يومين، عندما كانت ديدنور تنزل مجدداً إلى القاعة لتعزف على البيانو، رأت أن باب الغرفة الموصدة مفتوح. كانت الخادمة التي تنظف الغرفة قد تركت الباب مفتوحاً مؤقتاً، وانتهزت ديدنور الفرصة فولجت الحجرة، وفهمت فوراً أن تلك غرفة نوم داوود وزوجته السابقة، وعندما نظرت في أرجائها، شعرت أن الزمن قد توقف تماماً. لم يكن شيء في الغرفة قد مُسَّ، وعطور المتوفاة ومجوهراتها موجودة كلها على طاولة؛ وكأنها ستستخدمها في أي لحظة. كان ثوب نومها ورداء نوم داوود مطويين كيفما اتفق عند قائمة السير، وملابس المرأة مكدّسة في أكوام في الخزانة بجانب بعض ثياب داوود. رأت على الأرضية خفّيها الأحمرين المطرّزين بجانب زوجٍ من أحذية العقيد المنزلية الجلدية.

شعرت ديدنور بغثيان في قعر معدتها، وفسّرت حالُ تلك الغرفة سببَ عدم مبالاة داوود نحوها. بدا واضحاً أنه لا يزال يكن حباً كبيراً لزوجته المتوفاة، وأنه يتشبث بالماضي، ويلتمس تحقيق اكتفاء عاطفي في الوقت الذي يمضيه في تلك الغرفة. إذاً، لماذا تزوج مجدداً قبل أن تذوي علاقته العاطفية مع زوجته السابقة؟ لماذا تزوج ديدنور؟

استفسرت ديدنور من داوود عن الأمر في ذلك المساء بعد العشاء.

قالت ديدنور بنبرة صوت طبيعية: "رأيت غرفة زوجتك السابقة اليوم. لا بد أنك لا تزال تحبها كثيراً".
بدا داوود مندهشاً، لا منزعجاً. على كل حال، لم يرد على جملة زوجته.
تابعت ديدنور: "لا يبدو غريباً لي أنك تحبها، لكن لماذا تزوجتني؟".
تفادى داوود نظرة ديدنور، ورد بائساً: "آسف يا ديدنور، لا أريد إيذاءك، لكن والدتي أصرّت على زواجي. فهي تريد أن ترى حفيداً قبل موتها، ولم أستطع إغضابها".
دُهشت ديدنور من جواب العقيد. إذاً، لم تكن رغبة داوود بالزواج، وإنما إصرار والدته هو الذي أدّى إلى زواجهما. لكن، ماذا عن مشاعر ديدنور ورضاها عن العلاقة؟ أليست لها أي أهمية على الإطلاق؟ هل كانت ديدنور مجرد واسطة لتحقيق إرادة حماتها؟ هل يجب أن تضحي بمشاعرها ومصلحتها على مذبح رغبة حماتها في إنجاب حفيد؟
لم تعرف ديدنور في ماذا تفكر أو ماذا تقول، وشعرت بديهياً أن إرضاء رغبة حماتها في إنجاب حفيد ليس سبباً كافياً لتحمل طفلاً. فضلاً على ذلك، ماذا إن حملت بطفل وتبين أنه بنت! كيف ستكون ردة فعل حماتها على ذلك؟ لم ترغب ديدنور حتى بالتفكير في الأمر، فقد بدت المرأة غافلة تماماً عن سعادة ديدنور العاطفية في هوسها للحصول على حفيد. كيف ستعامل حفيدة بريئة وحسّاسة ذنبها الوحيد أنها ليست صبياً؟
تلك الليلة، لم تحاول ديدنور تشجيع داوود على التقرّب منها؛ لأنها لم تشعر ببساطة بحاجة إلى ذلك، وكل ما أحسّت به هو عدم المبالاة فقط.
بعد أن غطّت ديدنور في نوم عميق، بدأت تحلم. رأت أنها محاطة بضباب مجدداً مثل اليوم الذي أُسرت فيه حين كانت صغيرةً في شركسيا. كان الضباب كثيفاً جداً حتى كادت تمسكه بيديها، وهي تبحث عن شخص ما، لكن الضباب يمنعها، وبدا مثل جدار داكن ورطب لا يمكنها التسلل عبره. عرفت أن الشخص الذي تبحث عنه خلف الضباب مباشرة، لكنها لم تستطع آنذاك أن تخترقه.
عاد العقيد في اليوم التالي إلى مقره العسكري، واستأنفت حياة ديدنور روتينها السابق. مجدداً امتلأت أيامها بالعزف على البيانو والتدريس.
بعد عدّة شهور، تلقت ديدنور دعوة من الأميرة عليا لزيارة الأميرة في فانيكوي، وشعرت بسعادة لقبولها. لم تكن تلك فرصة ترحب بها لكسر روتينها اليومي فقط، وإنما أرادت أيضاً أن ترى الأميرة كثيراً. كان أمامها متسع من الوقت للتفكير في سبب غياب العقيد عن المنزل كثيراً، وفكّرت

ديدنور باستمرار في سنواتها في القصر وصداقتها الثمينة مع الأميرة عليا وسرفتسزا. اشتاقت إلى كلتيهما كثيراً، وبدت سعادة حياة القصر وجمالها بعيدين جداً عن حياتها الحالية. طبعاً، زارتها باستمرار نساء من الحي، وكانت لديها تلميذات كما ترغب، لكن سلبية حماتها ألقت بظلال داكنة على حياة ديدنور. تطلّعت قدماً إلى نزهة يمكن أن تبتعد فيها، ولو ليوم واحد، عن الكآبة التي تلوح فوقها هناك.

بعد ثلاثة أيام، في موعد الزيارة التي انتظرتها بفارغ الصبر، استيقظت ديدنور باكراً وارتدت أحد أروع فساتينها. وعلى الرغم من أن ديدنور كانت تعتني عادة بشعرها، إلا أنها ذلك اليوم جعلت خادمتها الشخصية، غولسمال، تصففه بأناقة باستخدام أمشاط مكلفة. اختارت ديدنور، من بين مجوهراتها، قلادة وقرطَي ياقوت كانت جزءاً من جهاز عرسها الذي قدّمه القصر لها. وبعد أن ارتشفت على عجل كوباً من القهوة، ارتدت عباءتها وخمارها، ثم استأذنت حماتها، وصعدت إلى العربة التي تنتظر عند الباب. رافقتها غولسمال، واتجهت الشابتان نحو أقرب رصيف حيث سينقلهما مجذّفو الأميرة ومركبها إلى منزل الأميرة عليا في فانيكوي.

عندما ترجّلت ديدنور من العربة، توقفت لحظة لتنظر إلى مشهد البوسفور البهيج. كانت ترسو في مكان قريب عدّة مراكب شحن أجنبية، وسفينة ركّاب إيطالية واحدة، وقوارب صغيرة تبدو مثل نقاط في المضيق، ورائحة الأسماك تعبق في الهواء. حلّقت طيور النورس فوق الرؤوس تزعق بأصوات حادة لبعضها بعضاً، وبدا النسيم البارد يبدد أي آثار من كآبة باقية، وشعرت ديدنور فجأة بحيوية كاملة مجدداً، وشاهدت فوراً الراية التي تحدد المركب السلطاني، وبدأت تمشي نحوه. تذكّر كبير خدم الأميرة، إسماعيل آغا الذي عمل سابقاً في الحرملك السلطاني، ديدنور وساعدها في الصعود إلى متن المركب مع غولسمال. كانت ستائر المركب مغلقة بإحكام، لذا لم تستطع ديدنور أن تستمتع بالمشهد حين عبروا المضيق، لكن رائحة البحر فقط بدت كافية لجعلها تشعر بانتعاش وبدوار بسيط حتى. شقَّ المركب الخفيف طريقه بسرعة فوق المياه بفضل جهود المجذفين الماهرين، وسرعان ما توقف القارب أمام قصر الأميرة. عندما دخلت القصر، تحولت أفكار ديدنور إلى حفل زفاف الأميرة، وتذكرت أن كل شيء كان فخماً ورائعاً. تساءلت إن كانت حياة الأميرة عليا قد تغيرت مثل حياتها منذ ذلك الوقت.

اصطُحبت ديدنور إلى غرفة جلوس مؤثثة بأناقة تطل على البوسفور، وبدا

ميل الأميرة عليا نحو الغرب واضحاً من طريقة تزيين الغرفة. كانت مجموعة جلوس تقبع أمام النوافذ الطويلة التي تطل على المضيق، وبيانو غافو يجثم إلى اليمين، وتزين ساعة نمساوية ووعاء فاكهة أنيق من خزف ميسن طاولةً إنكليزية الطراز. لم تكن هناك ندرة في العناصر العثمانية في الغرفة أيضاً، فهناك سجادة هيركي كبيرة تغطي معظم الأرضية، والستائر الحريرية المقلّمة بالأخضر والذهبي مُخاطة من نسيج هيركي. شاهدت موقداً أبيض مبنياً من آجر تركي وخزانة إسطنبولية بجانب الجدار إلى اليسار، وابتسمت ديدنور لنفسها حين تذكرت أن الأميرة عليا قد جمعت دائماً كلا العالمين؛ الشرق والغرب.

بعد وقت قصير، دخلت جارية يافعة ترتدي ملابس أنيقة الغرفة، وقدّمت قهوة إلى ديدنور. عندما بدأت ترتشف السائل الأسود الساخن كثيف الرغوة من كوب خزفي مزخرف، رأت ديدنور الباب يُفتح مجدداً، وتوقعت أن ترى الأميرة تدخل، لكنها دُهشت حين وجدت سرفتسزا تقف أمامها. وضعت ديدنور كوب القهوة جانباً بسرعة، وعانقت سرفتسزا بإثارة وابتهاج، ولم تستطع أن تمنع عينيها من ذرف دموع الفرح. تراجعت ديدنور إلى الخلف وألقت نظرة متفحصة على صديقتها التي التقتها بعد طول غياب.

بدهشة، أدركت ديدنور أن سرفتسزا حامل، وأوشكت أن تسأل صديقتها العزيزة عن حياتها الجديدة حين فُتح الباب مجدداً، ودخلت هذه المرة الأميرة عليا. انحنت المرأتان أمام الأميرة التي عانقتهما بحرارة وجعلتهما تشعران بالراحة فوراً.

جلست النساء الثلاث إلى طاولة الطعام التي كانت قد حُضّرت سلفاً باستخدام أطباق خزفية فرنسية أنيقة وأباريق كريستال كارلسباد. على كل حال، استغرقن تماماً بحديثهن ولم تلاحظ أي منهن أدوات المائدة الأنيقة أو الطعام المختار بعناية. استفسرت الأميرة عليا من سرفتسزا عن حياتها الجديدة:

"أخبريني يا أختي الجميلة، هل استطعت التلاؤم بسهولة مع الحياة خارج القصر؟ كيف تمضين وقتك؟ هل أنتِ سعيدة بزواجك؟".

ردّت سرفتسزا بوصف تفصيلي لحياتها الجديدة: "يا أميرتي العزيزة، أنا سعيدة جداً بحياتي الجديدة. زوجي أحد دبلوماسيي القصر، ودائرة معارفه واسعة وأسرته كبيرة جداً. أمضي أيامي بالتسلية مع زوجات دبلوماسيين آخرين وزيارة قريبات في احتفالات أسرية لا تُعدُّ ولا تُحصى. لا يمر أسبوع من دون احتفال في الأسرة بإنجاب طفل جديد أو ختان أو خطوبة أو

زفاف. وأستقبل زوجاتٍ من دائرتنا الدبلوماسية وأزورهن أيضاً. استضفتُ الأسبوع الماضي زوجتَي دبلوماسيَّين نمساوي وإيطالي، اللتين أبدتا اهتماماً كبيراً بالنساء العثمانيات اللواتي يعشن في الحرملك. آمل ألا تكونا قد أصيبتا بالإحباط؛ لأن زوجي ليست لديه إلا زوجه واحدة فقط!".
ابتسمت كل من الأميرة عليا وديدنور من ملحوظة سرفتسزا الأخيرة. أجابت الأميرة: "أعرف ما تعنينه يا أختي الجميلة. تأتي العديد من الغربيات إلى هنا والفضول ينتابهن بشأن تعدّد الزوجات، ويصبن بخيبة أمل حين يعرفن أنه أمر نادر جداً. يكن متشوقات جداً أيضاً إلى تحريرنا من حياة الحرملك، على الرغم من أننا نحن النساء قانعاتٌ جداً لوجودنا في الحرملك بعيداً عن فظاظة الحياة العامة وصعوباتها".
نظرت ديدنور إلى وجه الأميرة، ولاحظت أنه شاحب جداً فسألتها بقلق واضح في صوتها:
"أوه يا أميرتي، هل أنت على خير ما يرام؟".
ردّت الأميرة: "أنا بخير يا أختي العزيزة. إنه غثيان الصباح فقط".
صرخت سرفتسزا: "غثيان الصباح! إذاً، أنت تتوقعين طفلاً أيضاً يا أميرتي؟".
"نعم يا أختيَّ العزيزتين. الحمد لله، أنا أيضاً أتوقع طفلاً".
شعرت ديدنور وسرفتسزا بسعادة بالغة من ذلك النبأ الجيد، وعبّرتا عن تهانيهما الصادقة وتمنياتهما الطيبة للمولود الجديد القادم.
استدارت الأميرة عليا نحو ديدنور وقالت: "أخبرينا يا أختي العزيزة، كيف كانت حياتك منذ غادرت القصر؟".
تريّثت ديدنور لحظة، فلم تكن تعرف ماذا يجب أن تقوله. لم يخطر على بالها قطّ أن بمقدورها أن تكذب على الأميرة عليا وسرفتسزا أو تحاول إخفاء الحقيقة. لكن، لا يمكنها أن توضّح مشكلتها مع داوود ووالدته أيضاً. بقيت صامتة ما بدا أنه دهر.
قالت الأميرة بنبرة صوت حنون وقلق: "ديدنور...".
هتفت سرفتسزا تنبيهاً: "ديدنور!".
كانت الدموع تسيل من عيني ديدنور، وبدأت فجأة تنشج. بدا أن كل الألم والكرب اللذين كبتتهما منذ ليلة زفافها قد تدفقا من أعماق نفسها؛ ألم عدم محبة زوجها وتقديره لها، ألم إلقاء حماتها اللوم عليها على نحو غير منصف لأنها لم تحمل، كرب رغبتها الشديدة في إنجاب طفل، لكن ليس من علاقة تفتقر إلى الحب. بكت ديدنور بقوة حتى بدأ كل جسدها يرتعش على نحو لا يمكن التحكّم به.

فركت الأميرة عليا ماء الورد على وجه ديدنور ويديها لتهدئتها، وعانقتها سرفتسزا بقوة حتى بدأ سيلان الدموع يجف. بدأت ديدنور تستعيد رباطة جأشها ببطء، وشرحت بصعوبة وضعها للمرأتين الأخريين.

استشاطت سرفتسزا غضباً من حالها: "ديدنور، يجب أن تحصلي على الطلاق فوراً!".

اعتمدت الأميرة عليا مقاربة أكثر احتراساً: "ديدنور، ابحثي في قلبك بحرص. إذا قررت الطلاق، فسأصرُّ على أن تأتي إلى قصري لتعيشي فيه. لست وحدك، ويمكن أن تعتمدي على مساندتي في كل الأوقات".

شعرت ديدنور براحة كبيرة من الدعم القوي للأميرة عليا وسرفتسزا. لقد نبتت بذور العلاقة التي زُرعت في القصر حين كانت ديدنور فتاة يافعة في أرضٍ خصبة وتحمل آنذاك فاكهة ثمينة. لم تكن ديدنور وحدها حقاً، وعرفت أن بمقدورها أن تعتمد على الأميرة وسرفتسزا في أي ظروف.

تابعت النساء الثلاث حديثهن عدّة ساعات، وأحياناً استغرقن في ذكريات عن الماضي، وفي أحيان أخرى شاركن بعضهن في أحلامهن عن المستقبل. عندما ذكرت ديدنور تلاميذ البيانو، أصرّت الأميرة عليا أن تعزف لهما على بيانو غافو في الغرفة. أثمرت الشهور الماضية من العزف المكثّف على البيانو والتدريس على نحو رائع، وتأثرت الأميرة كثيراً بمستوى براعة ديدنور.

لسوء الحظ حان وقت مغادرة المكان، فالنهار قصير ويجب على سرفتسزا وديدنور العودة إلى منزليهما قبل الغروب. ودَّعن بعضهن بتردد، ووعدن أن يلتقين مجدداً قريباً، واستأذنت سرفتسزا وديدنور من الأميرة عليا، وذهبت كل منهما في سبيلها. صعدت ديدنور وغولسمال مجدداً على متن مركب الأميرة، وعادتا إلى الطرف الآخر من البوسفور. وفي أثناء انتقالها عبر المضيق في القارب، فكّرت ديدنور في ما قالته الأميرة، وسألت نفسها إن كانت يجب أن تبقى مرتبطة بذلك الزواج، لكنها لم تتوصل إلى جواب واضح. كانت تعيسة جداً، ولا شيء يدل على أن الأمور ستتحسن في أي وقت قريب. من ناحية أخرى، كانت تعرف أن الحياة ملأى بالمحن، وقرّرت أن تحاول وتتحلّى بالصبر حتى تظهر لها إشارة واضحة عن الاتجاه الذي يجب أن تسلكه.

بمرور الأسابيع والشهور، أصبحت والدة العقيد أكثر إحباطاً وتطلّباً بمرور كل يوم، وغلّف هوسها برؤية حفيد قبل موتها حياةَ ديدنور مثل قميص من نار. لم ينقضِ يوم واحد من دون أن توبّخ ديدنور على عدم إنجابها حفيداً، وأنّبت داوود أيضاً، لكنه بقي في الميدان معظم الوقت، وتحمّلت

ديدنور وطأة ازدرائها.
في أحد الأيام، وبعد تقريع غاضب على نحو خاص، أخبرتها حماتها أنه بعد فشل داوود وديدنور في إنجاب حفيد، ستتولى الأمور بنفسها. غادرت المنزل ثائرة، وعادت بعد ساعة مع امرأة متوسطة العمر جعل مظهرها ديدنور ترتعش. فقد منحها حاجباها المقوّسان، وأنفها المدبب، والبثور العديدة الكبيرة على وجهها مظهراً شريراً على نحو مميز، وكانت تمسك صُرّة سوداء قرب صدرها؛ وكأن شخصاً ما قد يحاول انتزاعها منها. أسرعت المرأتان إلى المطبخ، وتكلمتا إلى الطاهية التي تعد الطعام، وسمعتهما ديدنور تتحدثان بالصربية، لكنها لم تفهم ما تقولانه؛ بالرغم من أنها قد سمعت النساء يكرّرن ما بدا أنه نوعٌ من التعاويذ.
بعد نصف ساعة، فُتح باب المطبخ، وغادرت الغريبة من دون أن تودّع أحداً. استدعت الحماة ديدنور إلى المطبخ، وحين دخلت الغرفة شمّت رائحة كريهة مثل بيض نتن. عندما نظرت ديدنور في أرجاء المكان رأت مصدر الرائحة، وتبين أنه وعاء يحتوي مزيجاً عفناً من مكوّنات غامضة يجثم على لوح تقطيع اللحم. أشارت حماة ديدنور إلى الوعاء:
قالت: "تناوليه".
نظرت ديدنور بصمت وذهول إلى المرأة.
كرّرت بصوت أعلى: "كليه".
ردّت ديدنور: "لن آكله. لا يمكنك إرغامي على هذا".
شحب وجه والدة داوود، وأمسكت ذراع ديدنور، ودفعتها بقوة نحو لوح تقطيع اللحم. تعثّرت ديدنور، وعندما وقعت على كتلة اللوح، ضربت ذراعُها الوعاء الذي سقط على الأرضية وتحطّم، وأُريق المزيج الغريب في كل مكان.
وقفت حماة ديدنور بجانبها، وهزّت المرأة الساخطة إصبعها المرتعشة في وجهها: "لن تفلتي بهذا! ستدفعين ثمن عصيانك! سنرى من يتولى زمام الأمور حين يعود ابني إلى المنزل غداًا!".
خرجت والدة داوود مسرعة من باب المطبخ وهي تستشيط غضباً. لم تستطع ديدنور أن تتحمّل الرائحة التي عبقت في المطبخ كله، فخرجت هي الأخرى، وذهبت إلى غرفتها، وبقيت هناك لتتفادى أي مواجهة أخرى مع حماتها الغاضبة.
في اليوم التالي، عاد العقيد إلى المنزل كما هو متوقع. كان باب غرفة نومهما مفتوحاً، وعرفت ديدنور أن زوجها قد وصل، لكنه لم يكد يدخل

عبر الباب حتى بدأت والدته تمطره بشكواها. سمعت ديدنور اسمها يتكرّر عدة مرات بلغة المرأة الحاقدة، لكنها لم تستوعب كلماتها بوضوح؛ لأن والدة داوود تحدّثت بلغتها الأصلية. على كل حال، لم يكن موضوع الحديث يحتاج شرحاً، فديدنور تحفظ شكاوى حماتها عن ظهر قلب.

تلك المرة، على كل حال، كان هناك تطوّر جديد في تقريع المرأة، ولوّحت بثلاث أصابع في الهواء، وأمرت والدة العقيد ابنها أن يتخذ إجراءً. بدا داوود ذاهلاً، وشحب وجهه، لكنه أومأ وقال: "نعم".

مشى داوود ببطء نحو غرفة النوم التي يشترك فيها مع ديدنور، ووجد زوجته تجلس على الأريكة، فتنحنح قبل أن يتكلم. استدار داوود نحو ديدنور، وقال بصوت مرتعش لكن من دون أن ينظر إلى عينيها:

"ديدنور... ديدنور، أنتِ طالق، طالق، طالق...".

أصيبت ديدنور بذهول كبير منعها من الكلام.

تابع العقيد: "طبعاً، سأتوثق من أن تستقري على نحو مريح في مكان آخر، وسأدفع مؤجل مهرك".

تفادى مجدداً التواصل البصري، وقال: "ديدنور، أنا آسف. لكن، لا يمكن أن أعارض رغبات والدتي".

ظهرت ابتسامة مريرة على وجه ديدنور حين فكّرت في الطريقة الملائمة التي انتهى بها زواجها على نحو يدعو إلى السخرية. كانت حماتها من رتّب ذلك الزواج وهي التي أنهته، ولم تكن ديدنور وداوود إلا الممثلين الرئيسين في تلك المسرحية، لكن ديدنور لم تفهم جيداً المعنى في ذلك والحكمة منه.

الفصل السابع

بلربي، 1867

بينما كانت السيدة جميلة تستعد للخروج من أجل شراء بعض المجوهرات لخطيبة ضياء، نظرت إلى شعرها بإمعان في المرآة، وقرّرت أن تضع بعض الحنّة في أسرع وقت ممكن؛ لأن خصلات الشيب فيه تصبح أكثر وضوحاً. كانت أحداث السنة الماضية - وفاة والديها المحبوبين نتيجة الكوليرا - قد أرخت بظلال قاتمة على صحة جميلة ومظهرها. وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال تبدو جميلة، إلا أن البهاء الذي أشرق به وجهها سابقاً بدأ يذوي. وكالمعتاد، جميلة هي التي عملت ممرضة لوالديها في أثناء مرضهما، وبعد أن وضعت حياتها الخاصة جانباً، اعتنت بهما ليلاً ونهاراً بمساعدة الدادي جول - شاه والخادمات الأخريات. لكن على الرغم من عناية جميلة الفائقة بهما ودعائها المتواصل لهما، لم تستطع إنقاذهما من بين براثن الكوليرا، وقد انتقلت والدتها صفية خانم إلى العالم الآخر قبل أكثر من سنة بقليل، وتبعها والدها حكمت أفندي بعد ستة أسابيع. بدا الأمر وكأنه قد حدث بالأمس، ولا يزال الألم والأسى اللذان تشعر بهما نتيجة موتهما قويين وعميقين. وفي ذلك الوقت فقط، مع اقتراب زفاف ضياء، كانت لديها أشياء أخرى كثيرة تشغل بالها بها.

كانت جميلة هي التي تشرف على معظم ترتيبات الزفاف، فكامل يمضي وقتاً طويلاً خارج المنزل، وعندما يعود إليه يبقى منعزلاً، وينأى بنفسه أساساً عن الأحداث التي تجري من حوله، حتى الزواج المرتقب لابنه الوحيد. لم يحقق كامل النجاح المهني الذي تاق إليه قطّ، وبعد وفاة والديه قبل عدّة سنوات، بدا أن مسيرته المهنية قد توقفت، ولم يتمكن من الارتقاء إلى أعلى من منصب المساعد الأول لكبير الأطباء في القصر. كان قد عُيّن كبيرا أطباء مختلفان في السنوات العشر الأخيرة، وجرى إغفال ترشيح كامل دائماً حين شَغَر المنصب. أرهق ذلك الوضع "كامل" تماماً، وأثّر اشتغاله بهاجسه المهني وفشله في أن يصبح كبير الأطباء في القصر سلباً في علاقاته الشخصية، خاصة علاقته بجميلة.

في غياب حوار مجدٍ مع كامل في السنوات القليلة الماضية، تحوّلت جميلة إلى ضياء من أجل المساندة والصحبة، وقد استجاب ولدها لها بحماسة كبيرة، وأصبحت علاقتهما وطيدة دائماً. حتى عندما كان صغيراً، بدا ضياء حكيماً على نحو يفوق سنوات عمره، وقد دُهشت جميلة في عدّة مناسبات من سهولة فهم ابنها لكل ما تقوله، ولم تضطر مطلقاً إلى أن تشرح شيئاً

مرتين. لاحقاً، في أثناء دراسته ليصبح مهندساً معمارياً، كان ضياء قد أدهش أيضاً أساتذته بفهمه العميق للتصاميم المعمارية والفلسفات الكامنة خلفها.
استطاعت جميلة أن تناقش ضياء في كل موضوع، وهو شيء منحها راحة كبيرة. كان قوياً وداعماً على نحو خاص لوالدته في أثناء مرض جدّيه، أكثر حتى من والده. وبوصفه طبيباً، أصدر كامل بيك تعليمات طبية، لكنه كان مستغرقاً تماماً في عالمه الداخلي، ولم يستطع أن يمنح جميلة الدعم العاطفي والنفسي الذي احتاجت إليه لتتجاوز محنة الخسارة تلك. كان ضياء من أنقذ والدته دائماً من الوقوع في براثن اليأس، وساعدها في الحفاظ على توازنها العاطفي والنفسي.
أرادت جميلة آنذاك أن تبذل قصارى جهدها من أجل ضياء، وأن يكون زفافه مثالياً قدر المستطاع. كان ضياء قد خطب قبل شهر شابة فاتنة تدعى نيلوفر تعيش في منزل عثماني كبير على الطرف الآخر من الشارع قبالة قصر كامل بيك وجميلة، وقد عرفت الأسرتان بعضهما منذ عدّة سنوات، وهناك تفاهم ضمني بينهما أن يتزوج ضياء ونيلوفر في نهاية المطاف. كان الطفلان الصغيران قد لعبا معاً في أثناء الزيارات الأسرية، وانتسبا إلى المدرسة الإعدادية نفسها الملحقة بمسجد بلربي، لكن عندما بلغت نيلوفر سن المراهقة وبدأت بارتداء العباءة والخمار، لم يعد التفاعل الاجتماعي بينهما جائزاً بعد ذلك، ووحدها نظرات عابرة في أثناء مغادرة منزليهما والدخول إليهما بدت ممكنة آنذاك. لم يخمد هذا الوضع، على كل حال، مشاعرهما نحو بعضهما بعضاً، إنما قوّاها في الواقع.
غير قادر على التواصل شفهياً مع نيلوفر، عبّر ضياء عن حبّه لها بنظم الشعر، وتوخى الحرص بطبيعة الحال حتى لا يتجاوز حدود الاحتشام في شعره. لم يخاطب نيلوفر مباشرة قطّ، وإنما عبّر دائماً عن مشاعره مجازاً. لم يلتزم ضياء بقواعد اللياقة، على كل حال، حين جعل "نعيم" شقيق نيلوفر الأصغر يهرّب القصائد إلى شقيقته التي قرأتها مراراً وتكراراً في الليل تحت ضوء الشموع بعد أن يخلد الجميع إلى النوم.
تأجّلت خطبتهما سنة تقريباً بعد وفاة والدي جميلة، لكن والدته كانت تريد آنذاك مواصلة خطط الزفاف من دون أي تأخير. تبادلت الأسرتان هدايا الخطوبة، وأُرسل خاتم نيلوفر وقماش فستان عرسها إليها فوراً بعد الخطبة. كانا سيعيشان مع كامل وجميلة، وأُعيدت زخرفة الجناح الخاص في منزلهما، حيث سكنت جميلة وكامل في بداية زواجهما. انتهت كل الترتيبات تقريباً الخاصة بحفل الزفاف الذي سيُقام بعد عشرة أيام؛ أي بعد أسبوع

من مراسم الزواج الرسمية. حصلت جميلة على قفطان حريري أزرق داكن أنيق فُصّل للمناسبة خاصة، وعلى الرغم من عدم وجود رغبة أو اهتمام لديها بالملابس الجديدة، إلا أنها أرادت أن تظهر بأبهى حلّة من أجل ضياء. خططت ذلك اليوم لإنجاز آخر مهمة رئيسة لها؛ شراء قلادة ستقدّمها إلى نيلوفر في مراسم الزفاف الرسمية بعد ثلاثة أيام. أرادت جميلة أن تكون شيئاً مميزاً، وأن تعرف عروس ابنها المستقبلية نيلوفر كم تقدّرها.

ارتدت جميلة عباءتها، وغطّت وجهها بخمارين أبيضين شفافين؛ تقيداً بالعادة في ذلك الوقت. غطّى الخمار الأول شعرها وجبينها، والثاني وجهها من تحت عينيها إلى أسفل ذقنها، وربطت كليهما على قفا عنقها. رافقتها اثنتان من خادماتها، ونزلن على درج تحت المنزل يقود إلى رصيف خاص صغير، وهناك شاهدن كبير العمّال وثمانية مجدّفين ينتظرون في مركب كبير لنقل سيدتهم والخادمتين عبر مضيق البوسفور إلى أمينونو، حيث سيستأجر كبير العمّال عربة تنقلهن إلى السوق المغطاة.

عندما أبحر المركب عبر المضيق، جال بصر جميلة على المنازل على طول الشاطئ، ولم تستطع أن تتخيل شيئاً أكثر جمالاً من ذلك. كانت قصور خشبية أو منازل ساحلية رائعة مطلية بألوان فاتحة منتشرة على الشريط الساحلي الأخضر، تجثم وسط حدائق كبيرة مملوءة بأشجار الفاكهة ونوافير وورد، ومظهرها يلفت الانتباه. وبخلاف الكثير من المنازل التي تواجه بعضها بعضاً في الشوارع، ونوافذها مغطاة بمصاريع وشبكات خشبية لتحجب ما يوجد خلفها، لم يكن في المنازل التي تواجه الماء إلا ستائر بيضاء مزركشة على النوافذ المفتوحة التي يتلاعب بها عادة نسيم الصيف. لفتت انتباه جميلة شجرة دُلب قديمة مهيبة في حديقة جارتها، وبدا أن عمرها مئات السنين، وتساءلت عن القصص التي ستسردها إن استطاعت الكلام.

كان للماء تأثير مهدئ على جميلة، وطفت على سطح ذهنها مجموعة ذكريات حلوة: رحلات على متن مراكب مع والديها، اصطياد السمك على الرصيف مع والدها حين كانت طفلة، السباحة مع صديقاتها الفتيات أسفل أحد منازل الشاطئ في مراهقتها. كانت حياتها مع والديها مريحة ومترفة، مثل مُطرَّزة جميلة محبوكة بالحب والفرح. امتلأ النصف الأول من سنوات زواجها بالسعادة والرضا أيضاً، لكن بعد وفاة والدي كامل بدأت علاقتها بزوجها تتداعى، وتساءلت إن كانا قد ارتطما بقاع صخري، أم إن الأسوأ لا يزال أمامهما.

شعرت جميلة باليأس في ما يخص علاقتها الزوجية. وكما فهمت الأمر،

كانت المشكلة الرئيسة تتعلق بمفهوم كامل للحقيقة وليس الحقيقة نفسها. برأي كامل، كان فاشلاً لأنه لم يتبوأ منصب كبير الأطباء في القصر. وفي الحقيقة، على كل حال، عدَّ معظم الناس أنه مساعد ناجح لكبير الأطباء؛ وهي مكانة تعجب كثيرين ويحسدونه عليها. كانت لديه زوجة متفانية وابن مثل جوهرة، وكان أكثر ثراءً مما يحتاج، وذا منصب مهم في النخبة العثمانية، ويتمتع بصحة جيدة، ومظهره حسن وشخصيته جذّابة؛ وهذه نِعَمٌ لا يتمتع بها كثيرون. مع ذلك، جعلته حقيقة أنه لم يحقق هدفه يشعر بالقلق والوهن. ولو أنه عدَّ النعم المسبغة عليه، ونظر إلى النصف الممتلئ من الكأس بدلاً من النصف الفارغ، لأصبح رجلاً شاكراً وراضياً. كانت جميلة قد حاولت أن تشرح ذلك إلى كامل مرات عديدة، وأن تقنعه بحقيقة الأمر، لكن من دون جدوى. تراجع كامل أكثر فأكثر إلى داخل قوقعته، ورأى نفسه ضحية مصير متقلّب الأهواء.

في البداية، قاومت جميلة وضعها، وكافحت بقوة لتستعيد العلاقة السعيدة التي كانت تربطها بكامل سابقاً، لكن بعد أن فشلت مراراً وتكراراً في إحراز أي تقدم، قرّرت أخيراً أن تتقبل الوضع القائم، وتركّز على أشياء أخرى في حياتها. أصبحت أكثر تفانياً لابنها ضياء، ولحسن الحظ كانت قد أمضت وقتاً طويلاً مع والديها في سنواتهما الأخيرة، وبعد وفاتهما، ساعدت معرفة أنها قد بذلت في سبيلهما كل غالٍ ونفيس في السنوات الأخيرة من حياتهما على إخماد ألمها. أضحت تعتز آنذاك بذكرياتها عن الوقت الذي أمضوه معاً. وبعد وفاتهما بوقت طويل، واجهت جميلة صعوبة في قبول أنها لن تراهما أبداً مجدداً في هذا العالم. بدا أنهما قد رحلا بعيداً مؤقتاً، كما حدث حين ذهبا لزيارة أقارب بعيدين، لكن ببطء وبمرور الوقت بدأت حقيقة الموت تغوص في أعماقها: لم يعد والداها موجودين على هذا الكوكب.

مخر المركب الصغير عباب المضيق بسهولة، وعندما نظرت جميلة إلى سطح الماء الذي يتلألأ تحت أشعة الشمس، رأت دلفينين يسبحان ويثبان في الهواء قليلاً. وجلت في البداية، لكنها رأت بعد ذلك النظرة على وجهيهما، وبدا تقريباً أن الدلفينين يبتسمان لها. نسيت جميلة متاعبها لحظة، وابتسمت لهما، وشعرت أنهما فأل خير.

تابع المركب طريقه، وسرعان ما اقتربوا من رصيف أمينونو. وبعد عدّة مناورات حذرة، شُدَّ بإحكام إلى دعامة خشبية. قفز كبير العمّال من القارب أولاً ثم ساعد النساء على الخروج منه أيضاً، واستأجر إحدى العربات

المزخرفة والملونة التي تقف في مكان قريب وأعان النساء على الصعود إليها، ثم جلس في المقدمة بجانب السائق. تحرّكت العربة التي يجرّها حصان ببطء في الشوارع المزدحمة حتى توقفت أمام السوق المسقوفة. تركت النساء كبير العمّال عند البوابة ودخلن السوق. لم يفشل الجو البهيج المفعم بالحيوية في الداخل في إسعاد جميلة مطلقاً.

كانت هناك صفوف لا تنتهي من المحلات تضم كل نوعٍ يمكن تخيّله من البضاعة؛ من أكوام من التوابل لاذعة الطعم من جزر بعيدة، إلى سجاجيد ملونة يدوية الصنع بتصميمات معقدة، ورفوف وأدوات خشبية صُنعت بمهارة ومطعّمة بلآلئ، وأوانٍ خزفية كبيرة للحلويات، وأوشحة وأغطية مطرّزة على نحو جميل، ومواد جلدية مزيّنة بنقوش نافرة مثل وسائد وحقائب سرج، ونحاس بنقوش رائعة، وأدوات منزلية فضية وبرونزية، ... إلخ؛ كانت مأدبة من مناظر وأصوات وروائح فريدة ومتنوّعة.

تجاوزت جميلة وخادمتاها صفاً طويلاً من متاجر تبيع بضائع حريرية، واستدرن عند الزاوية نحو صفٍّ من محلات الصاغة. كان ينبعث عن المجوهرات الذهبية والحجارة الكريمة التي تتلألأ في علب عرض زجاجية، ضوء في بيئة معتمة بخلاف ذلك. تابعت جميلة سيرها في الممر الطويل بين متاجر الصاغة حتى وصلت إلى محل ابن عمها محمد. لم تكن جميلة تثق به تماماً فقط، وإنما تثمّن عالياً ذوقه الفني الرائع، وقد اشترت مجوهراتها دائماً منه، ولم يخيّب أملها قطّ.

عندما رأى محمد بيك جميلة وخادمتيها، أرسل الفتى الساعي ليجلب لهن شاياً. تكلم محمد بيك بنبرة حماسية، لكنه تفادى التواصل البصري، وسأل أولاً عن كامل وضياء.

"جميلة خانم، أرجو أن يكون الموقر والمرموق كامل أفندي وابنك النبيل ضياء بصحة جيدة".

ردّت جميلة: "الحمد لله، إنهما بخير". سألت بالمقابل: "وماذا عن عمّي الجليل وزوجتك الرائعة عائشة".

بعد أن اطمأنت جميلة إلى أنهما بخير، فتحت موضوع ترتيبات الزفاف، ووصفت نوع المجوهرات الذي تتخيله في ذهنها. فتح محمد بيك صندوقاً معدنياً مغلقاً، وأخرج صُرّتين صغيرتين من الداخل. فكَّ بحرص الغطاء القماشي الذي يخفي الحلي في الصُرّة الأولى، وتبين أنها تحتوي قلادة رائعة مصنوعة من صفوف متداخلة من زمرد وماس صغير. عندما كانت جميلة تفحص القلادة عن قرب، فتح ابن عمها الصُرّة الثانية التي تضم قلادة

ذهبية رائعة مزوّدة بسبع ياقوتات كبيرة. وضعت جميلة القلادة الأولى جانباً، وأمسكت قلادة الياقوت. لاحظت أن كلاً منهما عمل فني متقن، وفريدة بطريقتها الخاصة، ولم تستطع أن تختار بينهما.
سألت جميلة، وهي تأمل أن تتمكن من الاختيار بينهما على أساس التكلفة: "وما قيمة هاتين القلادتين الجميلتين يا ابن عمي العزيز؟".
ردّ محمد بيك: "المال ليس مهماً. المهم أن تعجباك، فسنتفق أنا وكامل أفندي على سعر معقول".
لم تستطع جميلة الاختيار بينهما، ثم تذكرت الدلفينين المبتسمين وقررت أن تشتري قطعتي المجوهرات. ستقدّم إحداهما فوراً هديةً للزفاف، وستحتفظ بالأخرى حتى ولادة أول حفيد ثم تمنحها لكنّتها تقديراً لها. عبّرت جميلة عن خالص شكرها لابن عمها، وغادرت متجره وهي تشعر بالسعادة. كانت ترتيبات زواج ضياء قد اكتملت آنذاك.
عادت جميلة من السوق المسقوفة بالطريقة نفسها التي جاءت بها. عندما أبحر المركب، بحثت عين جميلة عن الدلفينين، لكنها لم تستطع رؤيتهما في أي مكان. سرعان ما توقف المركب عند الرصيف الخاص فغادرته جميلة وخادمتاها وصعدن الدرج إلى المنزل، حيث كان ضياء ينتظر عودة والدته بفارغ الصبر.
سأل ضياء بابتسامة على وجهه: "هل تحملين أنباء جيدة يا أمي العزيزة؟".
ردّت جميلة: "لديّ أخبار جميلة". أضافت، وهي تبتسم لنفسها: "في الواقع، إنها جيدة ضعف ما تتوقع".
أخرجت جميلة القلادتين من صُرّتيهما المخمليتين الناعمتين، وتلألأتا تحت الضوء.
سأل ضياء بإلحاح، معجباً بقطعتي المجوهرات: "لكنني ظننت أن العادة تقتضي إهداء قلادة واحدة. هل نبدأ تقليداً جديداً؟".
"لا يا ابني العزيز، لا نبدأ تقليداً جديداً. لم تستطع أمك أن تختار بين القلادتين، لذا اشترتهما معاً. واحدة لهذه المناسبة، وواحدة لولادة أول أحفادها".
صرخ ضياء: "حفيد! أمي العزيزة، تمهّلي أرجوك، أنا لم أتزوج بعد!".
"لكنك ستتزوج قريباً يا ضياء، وإن شاء الله ستنجب طفلاً في الوقت المناسب. لقد كنت أعظم نعمة في حياتي، وأريد منك أيضاً أن تختبر عروة الحب التي يشعر بها والد تجاه ابنه".
ابتسم ضياء ابتسامة كبيرة لوالدته، وقال برفق: "شكراً لك؛ لأنك تفكّرين

دائماً في مصلحتي".
استيقظت جميلة بعد ثلاثة أيام، في يوم مراسم الزفاف الرسمي، قبل الفجر، وبعد أداء الصلاة جلست وقتاً طويلاً على سجادة الصلاة، وهي تتضرّع إلى الله أن يجعل زواج ضياء مباركاً. شعرت بالحزن؛ لأن والديها ليسا موجودين معها ليشهدا هذا الحدث السعيد... كانت تعرف أن الحياة يجب أن تمضي قدماً من دونهما. حبست الدموع التي بدأت تتجمع في عينيها، وحوّلت أفكارها إلى ضياء ونيلوفر.
شعرت جميلة أنها تكسب ابنة مع نيلوفر، فقد عرفت العروس المستقبلية منذ طفولتها الباكرة وتحبها حقاً. كانت نيلوفر رائعة ومهذبة بطبعها، وفاتنة جداً مثل اسمها الفارسي؛ زنبق الماء. كانت جميلة قد نمّت بدأب علاقتها مع الشابة بمرور السنين، وتوخت الحرص؛ كي لا تؤذيها بأي طريقة، وقد قبلت سلفاً في قلبها نيلوفر ابنة لها، وستوثق مراسم الزواج الرسمية تلك العلاقة.
سمعت جميلة بعد وقت قصير وقع خطوات ضياء، وذهبت فوراً لترى حال ابنها في ذلك اليوم المهم. تبعت جميلة ضياء إلى غرفة الجلوس الرئيسة، ووجدته واقفاً أمام نافذة كبيرة تطل على مضيق البوسفور. عندما سمع والدته تدخل الغرفة، استدار ضياء إليها، ورأت أن وجهه هادئ تماماً.
"أمي، ألا ينبغي أن ترتاحي قليلاً؟ سيكون يوماً حافلاً لنا جميعاً".
ردّت جميلة بحيوية: "وأنا لا أريد أن أفوّت دقيقة منه! ابني الوحيد لا يتزوج كل يوم. أنت تعرف يا ضياء أن اليوم يمثّل مرحلة جديدة من حياتك؛ فهناك مسؤوليات جديدة، وتحدّيات جديدة، وأفراح جديدة. ستكون هناك طبعاً محن مع لحظات السعادة، لكنني أريدك أن تتوثق أنني سأكون إلى جانبك في كل خطوة على الطريق".
ردَّ ضياء بمحبة، والتقدير بادٍ في عينيه: "لا أشك في هذا أبداً يا أمي العزيزة، فقد كنت كذلك دائماً. أنتِ الدعامة الرئيسة للقوة في أسرتنا، فقد رفعتني دائماً حين سقطت، وكنت أفكر كم أنا رجل محظوظ لوجود امرأتين رائعتين في حياتي مثلك أنتِ ونيلوفر. أنا مبارك حقاً".
سألت جميلة: "أنت تحب نيلوفر كثيراً، أليس كذلك يا ضياء؟".
"من صميم قلبي. إنها المرأة الوحيدة التي فكّرت فيها لتكون زوجة لي".
قالت جميلة: "أتمنى من الله أن يبارككما بزواج مديد ومثمر يا بني".
أضافت حين تذكرت زواجها العسير آنذاك: "أتمنى أن يستمر الفرح الذي تشعر به حتى يفرّق الموت بينكما".

قاطع حديثهما الودّي قرع على الباب، وتبين أنها خادمة جلبت قهوة الصباح. جلسا ليشربا القهوة إلى طاولة وجهاً لوجه، واستغرقت جميلة وضياء في تأمل جمال المضيق في الصباح الباكر.
أعلنت خادمة أخرى بعد وقت قصير أن الفطور جاهز. ووفقاً للعادات، أُحضرت صينية نحاسية كبيرة ووُضعت في الغرفة. جلست جميلة على وسادة أرضية، وسألت الجارية المهمة عن مكان كامل أفندي، فردّت الخادمة أنه قد غادر لزيارة مريض مساء الأمس ولم يعد بعد. أزعج النبأ جميلة كثيراً، فكامل كان يمضي وقتاً طويلاً بعيداً عن المنزل في الشهور الماضية، لكن اليوم يوم زواج ابنهما الرسمي، وسرعان ما سيذهبون إلى منزل العروس لإقامة المراسم. هل كان سيتأخر عن زواج ابنه؟ أخفت جميلة غضبها بأفضل ما تستطيع، وبدأت تتناول الفطور مع ضياء، لكنها وجدت صعوبة في بلع الطعام...
بعد الفطور، ذهبت جميلة إلى غرفتها لترتدي ثيابها. كانت الدادي جول - شاه مشغولة في تحضير كسوة الزفاف التي ستلبسها جميلة، لكنها رفعت بصرها حين فُتح الباب. ابتسمت جميلة للمرأة العجوز، فقد أصبحت الدادي جول - شاه بطيئة على نحو محسوس، لكن جميلة لن تفكّر أبداً في الاستعاضة عنها بأخرى. كانت الدادي هي التي طلبت البقاء في خدمة جميلة، على الرغم من أنه كان بمقدورها أن تغادر متى أرادت، فقد انقضت سنوات خدمتها التسع منذ وقت طويل، لكنها لم تستطع أن تتخيل نفسها في أي مكان إلا بجانب جميلة. لم تكن لديها رغبة بالعيش في أي مكان إلا مع جميلة وأفراد أسرتها الذين أصبحوا حقاً أسرة لها، وخططت للبقاء معهم حتى مماتها.
شعرت جميلة أيضاً بسعادة كبيرة من ذلك الأمر، فالدادي جول-شاه أقوى صِلاتها الحية مع طفولتها ووالديها، ولطالما تذكرتا معاً أحداث الماضي. كانت الدادي جول - شاه تعرف جميلة أفضل من أي شخص آخر، وعلى الرغم من أن السيدة رسمت ابتسامة على وجهها، إلا أن المربية أحسّت بالتوتر الكامن تحتها. عرفت أن جميلة توافق تماماً على زواج ضياء، لذا ربما كانت المشكلة تتعلق بكامل أفندي، فقد أضحى مصدر قلقٍ متزايد لجميلة.
في محاولة لصرف انتباه جميلة، قالت الدادي جول - شاه: "يبدو كأن ضياء بيك قد ولد بالأمس. هل تتذكرين كم كان طفلاً صغيراً لطيفاً؟ الاعتناء به سهل جداً".
ردّت جميلة: "لقد ارتقى ضياء إلى مستوى اسمه حقاً. أصبح ضوء حياتي يا

دادي جول - شاه، وكل ما يمكن أن تتمناه أمٌّ من ولدها. أريد أن أبدو مثالية من أجله اليوم، فهو يستحق الأفضل".
أضافت دادي جول - شاه: "أظن أنه يحظى بالأفضل، فنيلوفر خانم مكافأة حقيقية. يمكن أن تكوني واثقة أنها ستبذل ما بوسعها لجعل ضياء بيك سعيداً". لاحظت أن وجه جميلة قد ارتاح قليلاً، لكن إلى متى سيستمر ذلك؟
بعد أن انتهت جميلة من ارتداء ثيابها، أمسكت الصُرّة المخملية التي تضم قلادة الياقوت، ونزلت السلالم إلى حيث يجلس ضياء ينتظرها. عندما أوشكا أن يغادرا المنزل، توقفت عربة كامل أفندي أمام البوابة الأمامية، وحين مرّوا بجانب بعضهم هناك، قال كامل إنه سيأتي بعد أن يغير ملابسه. لم تنبس جميلة بكلمة، لكنها رمقته بنظرة توسّل؛ وكأنها تقول: "أرجوك لا تخذل ضياء اليوم!".
كانت نيلوفر وأسرتها ينتظرون بترقّب العريس ووالديه، وقد وصل الإمام وجاران مقرّبان سيكونان شاهدين، والجميع هناك باستثناء كامل أفندي. جلس الرجال في القاعة الرئيسة في السلملك ، وجلست النساء في غرفة مجاورة. عندما كانوا ينتظرون وصول كامل، انتهزت جميلة الفرصة لتقديم القلادة إلى نيلوفر.
قالت نيلوفر حين أخرجت جميلة القلادة من الصُرّة المخملية: "إنها رائعة. لم أرَ قط شيئاً بهذا الجمال".
"إنها مجرد علامة عن حبنا لك يا نيلوفر. أتمنى أن تتقلّديها بسعادة".
أشادت والدة نيلوفر وزوجتا الشاهدين بالقلادة بكلمات رائعة حين وضعتها جميلة حول عنق الشابة. تراجعت جميلة إلى الخلف، ونظرت بإمعان إلى القلادة التي ازدادت بهاءً من جمال نيلوفر وزادتها تألّقاً. عندما رأت جميلة تورد الإثارة على وجه العروس الشابة، تذكرت السعادة التي شعرت بها يوم زفافها، وجعلت ذكرى فرح ذلك اليوم حزنها الحالي أكثر حدّة. أي ظل حالك قد حال بينها وبين زوجها؟
أعاد صوت كامل جميلة إلى تلك اللحظة، وبعد تبادل التحيات بين الرجال، بدأت مراسم الزواج الرسمي. كان الاحتفال بسيطاً، وقد أُعدَّ عقد الزواج جيداً سلفاً، وحُدّد مبلغ كبير مهراً لنيلوفر ولنفقتها اليومية. قرأ الإمام العقد، وسأل كلاً من نيلوفر وضياء إن كان مقبولاً، وبعد حصوله على جوابين إيجابيين، وقّعه وتبعه الطرفان والشاهدان، ولم يبق آنذاك إلا تسجيله في المحكمة. كانت أسرة ضياء ستدفع معجّل المهر في بضعة أيام،

وستبدأ الأحداث التي ستؤدي إلى إتمام الزواج يوم الاثنين القادم مع نقل جهاز عرس نيلوفر عبر الشارع إلى منزلها الجديد.

هنأ الجميع بعضهم بعضاً، وتمنّوا السعادة المستقبلية للعروسين. عندما قبّلت نيلوفر جبين حماتها، رأت جميلة دموع الفرح في عينيها التي تماثلت مع دموع الفرح في عيني جميلة. أُحضرت صواني طعام إلى كلتا الغرفتين، وبدأت وليمة أُعدّت بعناية. لم تألُ والدة نيلوفر، زينب خانم، جهداً في تحضير الوليمة، وجهّزت الطاهيات عشرين طبقاً مختلفاً على الأقل - من المشهّيات والحساء إلى الوجبات الرئيسة والحلويات - بمهارة وتمرّس. تُوّجت الوليمة الطويلة بمأدبة مسموعة من موسيقى عثمانية تقليدية.

كانت الشمس قد غربت حين طلبت جميلة إذناً بالمغادرة، وبعد تكرار التهاني والأماني الطيبة، انتظرت عند الباب ليرافقها كامل وضياء عبر الشارع.

ظهر ضياء وأشار إلى والدته أن تعبر الشارع معه:

قال ضياء: "أمي العزيزة، دعيني أساعدك، سنعبر الشارع معاً".

سألت جميلة: "أين والدك يا ضياء؟ ألا يجب أن ننتظره؟".

رد ضياء: "لقد غادر. اعتذر في منتصف الحفل الموسيقي نظراً إلى وجود حاجة ماسّة في القصر إلى خدماته الطبية".

دُهشت جميلة من ذلك النبأ، فقد تمنت من دون طائل أن يمنح كامل كل اهتمامه لضياء في ذلك اليوم وأن يضع ابنه قبل عمله. على الرغم من أنها تظاهرت ألا شيء استثنائي في ذلك الوضع، إلا أن قلب جميلة تأثر سلباً بعمق...

أُرسل معجّل المهر بسرعة إلى العروس، وبدأت فعاليات الزفاف يوم الاثنين. حُمل جهاز عرس نيلوفر إلى منزلها الجديد بحُزمٍ كبيرة مربوطة بشرائط حمراء جثمت على رؤوس خدم يرتدون ملابس جديدة، ونُقلت أشياء أكبر مثل صناديق وقطع أثاث عبر الشارع على عربات خشبية. وعلى الرغم من أن درب موكب العروس كان قصيراً جداً، إلا أن ذلك لم يمنع الباعة والأطفال من الوقوف في طريقه حتى حصلوا على بعض القطع النقدية. وصلت مجموعة كبيرة من قريبات نيلوفر وصديقاتها لإعداد عرض العرس، وعملت النساء والفتيات بكد حتى جُهّز جناح العروسين تماماً من أجل احتفال الزفاف.

عندما رأت جميلة عرش العروس يُزّين بأوشحة وشالات أنيقة، لم يسعها إلا أن تتذكر الماضي حين جُهّز عرش عرسها. كانت تلك أياماً رائعة حقاً ليتذكرها المرء، لكن الأدوار قد تغيرت وسترحّب بالعروس الجديدة في منزلها.

فكّرت جميلة أن تلك هي طبيعة الأشياء، وأن كل شيء في الحياة في حالٍ مستمرة من التغيّر والتجدّد: شابات يصبحن عرائس، وعرائس يصبحن أمهات، وأمهات يصبحن جدّات. كان الوقت قد حان آنذاك لتستمتع جميلة بدفء الخريف وجماله الذهبي، في حين تنعم نيلوفر ببهاء الربيع وبهجته.

يوم الثلاثاء، أُخذت العروس الجديدة إلى الحمام العام حيث احتُفل بها بين قريبات وجارات وصديقات. فُركت نيلوفر، وغُسلت تحضيراً لليلة زفافها، واستمرت النشاطات كل النهار. كان هناك غناء، ورقص، وموسيقى، وطعام إلى وقت متأخر من الأصيل حين غادرت كل النساء ليعدن إلى منازلهن قبل حلول الظلام.

وفقاً للجدول الزمني التقليدي لحفلات الزفاف العثمانية، تستضيف نساء أسرة نيلوفر يوم الأربعاء جميلة وقريباتها، وستكون تلك ليلة الحنّة حين تودّع الشابة صديقات طفولتها، لكن بخلاف عرائس كثيرات، لم تشعر نيلوفر بأي حزن على الإطلاق. ولأن أفراد أسرتي العروسين أصدقاء وجيران منذ سنوات عديدة، لن يُحدث زواج نيلوفر تغييراً كبيراً في حياتها، وستنتقل فقط عبر الشارع، على مسافة قريبة جداً من أسرتها، وقد عرفت أيضاً أسرتها الجديدة معظم حياتها. كانت نيلوفر تحب حمويها وتحترمهما منذ وقت طويل، خاصة جميلة خانم التي كانت دائماً مثل أمٍّ ثانية لها. وفي ما يخص ضياء... فقد كان شمس حياتها. هل يمكن أن تشعر إلا بالفرح عند زواجها من ضياء؟

يوم الخميس، ستصطحب أسرة ضياء نيلوفر إلى منزلها الجديد. بدأت كل نساء الحي يتجمّعن في الصباح الباكر أمام منزل نيلوفر ترقباً لرؤية العروس الجديدة في فستان زفافها، ولم يخب أملهن. وبعد وقت قصير، بدأت قريبات يصلن من كل حدب وصوب لمرافقة العروس إلى منزلها الجديد، وجلسن جميعهن إضافة إلى جميلة وكامل أفندي في غرف جلوس كبيرة، وقُدّمت لهن القهوة والحلويات. ظهرت نيلوفر بعد ذلك بوقت قصير وهي ترتدي فستان زفاف مزركشاً أبيض أنيقاً مع عباءة ساتان، وفي خرق للتقاليد، كانت قد فصّلت فستانها وفقاً لنموذج باريسي.

بعد أن أنهت الضيفات قهوتهن، اصطحبن العروس عبر الشارع حيث كان ضياء ينتظر لقاءها. أمسك ضياء ذراع نيلوفر ورافقها إلى عرش العروس، ثم رفع خمارها ونظر إلى عيني عروسه بمحبة وشغف كبيرين، ونظرت نيلوفر إليه أيضاً، وهي ترتعش إثارة.

قال ضياء: "يا حبي، أخيراً أصبحنا معاً. الحمد لله أن سنوات الانتظار قد

انتهت".

لكن، قبل أن تتمكن نيلوفر من الرد عليه، بدأت الضيفات يتدفقن إلى حجرة العرس لتهنئة العروس الجديدة. استأذن ضياء، وذهب ليستقبل الضيوف في السلملك . شكرت نيلوفر ضيفاتها واحدة تلو الأخرى، وقبّلت أيدي النساء العجائز اللواتي كانت العديد منهن من الحي وقد عرفن نيلوفر طوال حياتها.

ذلك المساء، عندما أصبح الزوجان بمفردهما أخيراً، قوّتْ سنوات اشتياقهما لحظة لمّ الشمل، ورفعت سعادتهما إلى مستوى لم يكن أيٌّ منهما قد اختبره من قبل.

ممسكاً نيلوفر بين ذراعيه، قال ضياء برفق: " أيتها الغالية ، لقد ملأت فراغي وجعلتني كاملاً. لقد منحتِ حياتي معنىً جديداً".

ردّت نيلوفر: "ضياء، أنت حياتي".

أمضى الزوجان الليلة مبتهجين بألفتهما المتجدّدة. كانت الشمس قد بدأت تبزغ حين خلدا إلى النوم بين ذراعي بعضهما.

استمرت الاحتفالات يومين كاملين، وفُتحت أبواب القصر للأغنياء والفقراء على حدٍّ سواء، ولم يُبعد أحد عن وليمة الزفاف. رفَّهَ موسيقيون وراقصون عن الضيوف لضمان أن الجميع يستمتعون بوقتهم. كانت مناسبة للعامة حيث يشترك الجميع في الفرح بالعريسين، ويكثر الدعاء والأمنيات الطيبة لسعادة المتزوجين حديثاً.

بعد يوم من انتهاء احتفالات الزفاف، أبحر ضياء ونيلوفر في رحلة بحرية تستغرق أسبوعين على متن سفينة بخارية في البحر المتوسط. ظنّت جميلة أن الوقت سيكون مناسباً لها ولكامل ليخرجا في رحلة بحرية أيضاً، فقد كانا بأمس الحاجة إلى إعادة فتح قنوات اتصالهما وبث بعض الحيوية في علاقتهما. عندما كانا يراقبان المتزوجين حديثاً وهما يبتعدان، اقترحت جميلة: "كامل أفندي، كلانا مرهقان من تحضيرات الزفاف واحتفالاته. كنت أتساءل إن كان بمقدورنا أن نبتعد أسبوعاً أو اثنين في أثناء غياب ضياء ونيلوفر... في رحلة بحرية ربما؟".

رد كامل من دون تردد: "آسف يا جميلة، أود ذلك فعلاً. لكن، لا أظن أن بمقدوري الابتعاد عن عملي في هذا الوقت. ربما في وقت آخر".

الفصل الثامن

بلربي، 1867

أمضت جميلة الأسبوعين التاليين في هدوء منزلها، رغم أنها قد استقبلت في الأصيل صديقات وجارات جئن لتقديم تهانيهن. كان ذلك وقتاً خصصته جميلة للتأمل وتحليل الذات، وحتى أجلٍ قريب كان دور جميلة في الحياة واضحاً، واهتمامها يتركز في المقام الأول على أسرتها. كانت ابنة اهتمت بوالديها ما داما حيين، وزوجة مخلصة لزوجها، ووالدة حنوناً لابنها. لكن والديها لم يعودا بحاجة إلى عنايتها، وضياء لديه زوجة يمكن أن تنجز كثيراً من المهمات التي أخذتها جميلة على عاتقها، وفي ما يخص "كامل" فقد أغلق الباب إلى عالمه الداخلي، ولم تستطع جميلة أن تغوص عميقاً في حياته، وبقيت على الحد الخارجي فقط، وقد أوهن ذلك الوضع عزيمتها. شعرت جميلة لأول مرة في حياتها بعدم الثقة بمكانها في العالم؛ وكأن الأرض تتحرّك تحت قدميها.

شعرت جميلة بالارتياح حين عاد ضياء ونيلوفر إلى المنزل، وسمح لها وجودهما بأن تدفع القلق الذي تحس به إلى مؤخر ذهنها. منعت صحبة نيلوفر الدائمة جميلة من أن تطرح على نفسها أسئلة كثيرة، وأضحت حياتها حافلة بالأحداث؛ فهناك أماكن كثيرة تذهب إليها، وأشخاص تزورهم. إضافة إلى ذلك، استقبلت سيلاً لا ينقطع من الضيفات اللواتي أردن رؤية العروس الجديدة، واستمر النشاط الكبير عدّة شهور، حتى أبلغ ضياء والدته نبأ مدهشاً مساء أحد الأيام وهم يجلسون إلى طاولة العشاء:

"أمي العزيزة، ماذا فعلت بمهد طفولتي حين كبرت؟".

ردّت جميلة: "أظن أننا وضعناه في العلّية يا ضياء. لماذا تسأل؟".

أجاب ضياء بابتسامة واسعة على وجهه: "إن شاء الله سنحتاج إليه. نيلوفر تتوقع أول طفل لنا".

أُخذت جميلة على حين غرة، وبالكاد صدّقت أذنيها. لم تكن تتوقع تقريباً طفلاً بتلك السرعة؛ ربما لأنها بقيت متزوجة سنتين قبل أن تحمل بضياء. شعرت بسعادة غامرة، فالطفل سيمنح حياتها هدفاً ودوراً جديدين: أن تكون جدّة.

بدأت جميلة ونيلوفر التحضير فوراً للطفل الجديد، فأُنزل المهد من العلّية، وأُرسل إلى النجار لتجديده. وخاطت كل النساء في الحرملك بياضات ومناشف وملابس رضيع جديدة، ونبض قصر بلربي حيوية مجدداً.

بمرور الشهور، أصبح لزاماً على نيلوفر أن تستريح مزيداً من الوقت؛ نظراً

إلى حالتها الحسّاسة. لم يمانع أحد، على كل حال؛ لأن الجميع كانوا تواقين إلى مساعدة الوالدة المستقبلية.
راقبتها جميلة باهتمام بالغ، فقد أرادت أن تتوثق أن حمل نيلوفر سينتهي بخير وبأفضل طريقة ممكنة. طلبت حتى من كامل أفندي أن يمضي مزيداً من الوقت في المنزل في أثناء الشهور الأخيرة، على الرغم من أن الترتيبات قد أُعدّت لتقوم قابلة خبيرة بتوليد الطفل.
استيقظت جميلة في منتصف إحدى الليالي قبل ثلاثة أسابيع من موعد ولادة الطفل على صوت قرع على بابها. عندما نهضت وفتحت الباب، وجدت ضياء واقفاً هناك، ووجهه متجهم.
قال ضياء: "أمي العزيزة، تعالي بسرعة، نيلوفر تعاني آلاماً مبرّحة".
أمسكت جميلة ثوبها، وارتدته على عجل، وهي تمشي مسرعة في الرواق إلى جناح ضياء ونيلوفر، وأسرعت إلى جانب نيلوفر، وعلمت أنها في المخاض. طلبت جميلة من ضياء أن يستدعي كبير العمّال فوراً ويجعله يرسل خادماً ليجلب القابلة، وآخر لنقل النبأ إلى كامل أفندي الذي كان مناوباً في القصر تلك الليلة. كان عليه أيضاً إبلاغ والدة نيلوفر، زينب خانم. نزل ضياء بسرعة على السلالم ليستدعي كبير العمّال، وجلست جميلة بجانب نيلوفر وحاولت تهدئتها.
قالت جميلة برفق، وهي تمسّد شعر الشابة: "يبدو أن طفلنا في عجلة من أمره لدخول هذا العالم".
كانت نيلوفر على وشك أن تجيب حين شعرت بانقباض داخل جسدها.
تابعت جميلة: "تنفّسي بعمق. سيساعد ذلك في التخفيف من الانقباض".
عاد ضياء إلى الغرفة. "لا تقلقي يا عزيزتي ، المساعدة في طريقها إلينا. لقد أرسلت بطلب القابلة، وستصل إلى هنا قريباً. وقد أرسلت أيضاً نبأً إلى والدي ليأتي بأقصى سرعة ممكنة".
اختفت ابتسامة نيلوفر حين شعرت بانقباض آخر. تشبّثت بإحكام بأيدي جميلة وضياء، وسالت قطرات عرق على جبين الشابة.
حاولت جميلة أن تهدئ كَنّتها:
"أعرف أن ألمك مبرّح يا نيلوفر، لكنك ستنسين كل أوجاع المخاض حين تحملين ابنك بين ذراعيك. حاولي أن تركّزي على تلك اللحظة الرائعة".
سمعوا أصواتاً خارج باب غرفة النوم فنهضت جميلة فوراً وفتحته، وجدت زينب خانم، والقابلة منصورة باجي، إضافة إلى الدادي جول - شاه وعدّة خادمات أخريات. رحّبت جميلة بزينب خانم وأخبرتها ألا شيء تقلق بشأنه.

طلبت منصورة باجي بتهذيب من ضياء أن ينتظر في غرفة الجلوس، وبعد فحص نيلوفر، أكّدت أن عملية الولادة قد بدأت، لكنها أضافت أيضاً أن هناك متسعاً من الوقت قبل أن يخرج الطفل إلى الحياة. شعرت جميلة بالارتياح لسماع ذلك؛ لأنه سيمنح كامل أفندي وقتاً كافياً للوصول.
أحضرت الخادمات كل الثياب والمواد الضرورية التي أُعدّت سلفاً، إضافة إلى ملابس قماط وبطانيات المولود الجديد، وبدا أن كل شيء تحت السيطرة. حاولت النساء أن يجعلن نيلوفر مرتاحة قدر الإمكان، ومسحت والدتها العرق عن جبينها بقطعة قماش رطبة، ورشّت إحدى الخادمات ماء الورد على رأسها ويديها.
بقيت جميلة إلى جانب نيلوفر أربع ساعات أو خمساً، وهي تتوقع أن يصل كامل في أي لحظة. عندما لم يأتِ، قرّرت أن تذهب وتسأل ضياء عن ذلك. تركت نيلوفر مع والدتها والقابلة، وراحت لتبحث عن ضياء، ووجدته في غرفة الجلوس يقرأ القرآن الكريم.
سأل: "أمي العزيز، كيف حال نيلوفر؟ هل تجري الولادة بخير؟".
ردّت جميلة: "كل شيء طبيعي حتى الآن. قالت منصورة باجي إن الطفل سيولد في غضون ساعات. ضياء، هل سمعت أي شيء من والدك؟ كنت أتوقع وصوله قبل الآن؟".
"أرسلت رجب آغا لإحضاره إلى هنا، لكنه عاد قبل ساعتين وقال إنهم لم يعثروا عليه في القصر".
قالت جميلة: "هذا غريب، كيف يمكن أن يغفلوا عن والدك؟".
على الرغم من شعورها بالألم لرؤية نيلوفر تتألم، إلا أن جميلة عادت إلى جانبها فوراً لتعرض أي مساعدة يمكن أن تقدمها. بدت نيلوفر مرهقة، لكن على الأقل أصبحت المدة الفاصلة بين الانقباضات أقصر. أمسكت جميلة مجدداً يد نيلوفر، وفي الوقت نفسه كانت تتضرّع بصمت أن ينتهي كل شيء بخير.
ظهر الرأس بعد ثلاث ساعات، وتمت الولادة بسرعة عقب ذلك، وكانت بنتاً رائعة. وعلى الرغم من أنها أصغر حجماً مما ستكون عليه لو أنها ولدت بعد انقضاء المدة كلها، إلا أنها بدت موفورة الصحة والعافية. قطعت القابلة الحبل السري، وسلّمت الطفلة إلى جميلة ودادي جول - شاه لتغسلاها.
شعرت جميلة بالبهجة! أي معجزة قد شهدتها آنذاك! نظّفت هي والدادي بحرص المولودة الجديدة بماء دافئ ودثّرتاها بإحكام لتسلّما الطفلة إلى أمها.

عندما استدارت جميلة لتعطي الوالدة ابنتها، طلبت القابلة منها أن تنتظر. ظهرت على كلٍّ من وجهي منصورة باجي وزينب خانم نظرات قلق شديد، وشعرت جميلة بارتباك بشأن ما يحدث، حتى نظرت إلى الأسفل ورأت أن الملاءة تحت نيلوفر منقوعة بالدم. أخرجت منصورة باجي فوراً دواءً عشبياً من حقيبتها ووضعته على لسان نيلوفر، ثم انتظرت خمس دقائق، ثم عشر دقائق ليبدأ مفعول العلاج، لكن النزيف استمر. أعطت القابلة نيلوفر جرعة أخرى من الدواء وانتظرت عشر دقائق أخرى، لكن النزيف لم يتوقف. أخرجت منصورة باجي دواءً مختلفاً من حقيبتها ووضعته في فم نيلوفر، لكن بعد الانتظار عشر دقائق أخرى رأت أنه لا يجدي نفعاً أيضاً. أُحضرت ملاءات إضافية لتمتص الدم الغزير، وكانت نيلوفر تنزف بشدّة، وقد أضحى وجهها شاحباً وشبه شفاف، في حين تتوسل زينب خانم إلى الله أن ينقذ ابنتها.

تملّك شعور حاد بالخوف قلب جميلة؛ إحساس كان قد انتابها أول مرة حين أدركت أنها تفقد والديها. نظرت إلى الأسفل، إلى البنت الصغيرة بين ذراعيها، وتضرّعت بكل قواها ألا تفقد الطفلة أمها. لكن على الرغم من كل جهود منصورة باجي، استمر النزف. ضعفت نيلوفر أكثر بمرور كل لحظة. أجهشت زينب خانم بالبكاء، فأعطت جميلة الطفلة إلى الدادي جول - شاه وركضت لتستدعي ضياء.

صرخت وهي تجري إلى غرفة الجلوس: "ضياء، ضياء، يجب أن تأتي حالاً".

سأل ضياء بقلق: "ما الأمر؟ هل أصاب الطفل مكروه؟".

لم تجب جميلة، وإنما جرت عائدة إلى الغرفة وضياء يجدُّ في أثرها. عندما وصلا إلى الباب سمعت صوت نساء يبكين، وفي لحظة دخولهما الغرفة، أغلقت نيلوفر عينيها للمرة الأخيرة. في البداية، لم يفهم ضياء ما رآه، وأخذت جميلة الطفلة من دادي جول - شاه ووضعتها بين ذراعي الأب. عندما رأى ضياء أن الطفلة حية وبخير، فهم أن الجميع يبكين على نيلوفر، فأسرع إلى جانبها. كان جسدها دافئاً كالعادة. لكن، عندما توثّقت القابلة من نبضها، على كل حال، لم يكن قلبها يخفق.

طلبت جميلة إلى القابلة والخادمات أن يغادرن آنذاك ليسمحن لضياء بتمضية بضع لحظات وحده مع نيلوفر، وتبعتهن مع زينب خانم إلى الخارج، والحزن يفطر أفئدتهن. عرضت جميلة أن تأخذ الطفلة من ذراعي ضياء، لكنه تشبّث بابنته بإحكام؛ فقد كانت كل الحياة التي تركتها نيلوفر لضياء.

استدعت جميلة فوراً كبير العمّال، وطلبت منه أن يبلغ أسرة نيلوفر بوفاتها، وأن يخبر الجيران أنهم بأمس الحاجة إلى مرضعة. أمرت في الوقت نفسه دادي جول - شاه بأن تُحضر لاحقاً قماشاً كان مخزّناً في صندوق في العلّية لصنع كفن للمتوفاة. كان ينبغي غسل جسد نيلوفر وتجهيزه للدفن.
سمعت جميلة بكاء الطفلة فذهبت لتكون بجانب ضياء، ورأت دموعاً تسيل على وجهه أيضاً، وتسقط على بطانية ابنته. حملت جميلة الطفلة الباكية وسلّمتها إلى دادي جول - شاه، ثم عادت إلى ضياء وعانقته؛ ضمّت ابنها إليها بكل قوتها. شعرت بنشيج حزن يجيش في صدرها، لكنها كبتته؛ لأن عليها أن تكون قوية من أجل ضياء. عرفت أنها إذا فقدت السيطرة على مشاعرها، فسيحذو ضياء حذوها على الأرجح، وتضرّعت إلى الله في قلبها أن يمدّها بالقوة. كانت تلك لحظة محنة قاسية لجميلة: شعرت بحزن عميق لوفاة نيلوفر، وتعاطف كبير مع ألم ضياء، وأسى عظيم على الطفلة التي فقدت والدتها، وأحسّت أيضاً بالغضب من كامل...
أمسكت جميلة ضياء بذراعيها، وكانت الدموع تسيل على وجهيهما، لكنهما لم يتكلما. "الحد الذي تنتهي الكلمات عنده..."، لقد سمعت جميلة تلك العبارة من قبل، لكنها لم تفهمها تماماً. كانت وضياء عند ذلك الحد، ولا كلمات يمكن أن تعبر عن فداحة خسارتهما...
سمعا قرعاً على الباب، ودخلت دادي جول - شاه لتعلمهما أنهم قد عثروا على مرضعة ويحتاجون إلى موافقة جميلة عليها. كان باقي أفراد أسرة نيلوفر قد وصلوا أيضاً لتقديم تعازيهم. طلبت جميلة بلطف من ضياء أن يغسل وجهه؛ لأن هناك واجباً ينتظره في السلملك ، ويجب أن يتقبّل تعازي الزوار الذكور.
بعد أن غادر ضياء الغرفة، طلبت جميلة من القابلة وعدّة خادمات أن يغسلن جسد نيلوفر، كما يفترض، قبل أن يكفّنّها، وكلّفت أيضاً إحدى الخادمات أن تقرأ القرآن الكريم إلى جانبها. ذهبت جميلة بعد ذلك لتكون بجانب الطفلة والمرضعة، ووافقت على الشابة ورافقتها إلى حجرة نوم الطفلة لتشرف على أول إرضاع لها.
عندما كانت جميلة في حجرة الطفلة، جاء كامل أفندي إلى المنزل. عندما اقتربت عربته من بوابة القصر، احتار من سيل الناس الذي يدخل منزله ويغادره.
قال كامل أفندي حين دخل عبر البوابة: " ما الأمر ".
قال نديم أفندي، أحد جيران كامل: "نحن آسفون جداً بشأن وفاة كنّتك.

إذا كان هناك ما يمكننا فعله، فأعلمنا من فضلك".
تجمّد كامل في مكانه. كيف توفيت نيلوفر، فقد رآها في الأمس وكانت بصحة جيدة، ولا بد أن هناك خطأ جسيماً. رأى كامل أفندي رجب آغا يخرج من باب السلملك ، فاستدعاه إليه.
قال كبير العمّال بصوت هادئ: " إنني آسف لوفاة كنتك" .
رد كامل: "رجب آغا، ماذا يجري هنا؟ أخبرني من فضلك بما حدث".
شرح الخادم العجوز كل ما يعرفه عن وفاة نيلوفر، وذكر أيضاً أنها أنجبت بنتاً. اعتصر الألم "كامل" حين سمع نبأ موت نيلوفر، وشعر أنه كان يجب أن يبقى في القصر في هذه الليلة، فربما استطاع مساعدتها، وألقى باللوم في تلك المأساة على نفسه.
بدلاً من الذهاب مباشرة إلى السلملك، اتجه كامل أولاً إلى الحرملك ليعثر على جميلة، وقيل له إنها في حجرة الطفلة. عندما وصل كامل إلى الغرفة، كانت جميلة تتكلم مع إحدى الجواري الخبيرات التي عيّنتها للتو آنذاك دادي للطفلة. وضعت الجارية البنت في مهدها لتنام، وخرجت جميلة من الحجرة حتى لا تزعجها.
قال كامل: "جميلة، كنت أظن أن الطفلة لن تولد قبل بضعة أسابيع. أخبريني عن كل ما حدث".
قادت جميلة "كامل" إلى غرفة حيث يمكنهما أن يتكلما بمفردهما وأشارت إليه أن يجلس. أخبرته بعد ذلك تفاصيل الليلة السابقة من وقت قيام ضياء بالقرع على الباب إلى اللحظة الحالية.
"جميلة، هذا خطئي. كان يجب أن أكون هنا الليلة الماضية".
قالت جميلة بنبرة صوت طبيعية: "هذه مشيئة الله يا كامل أفندي، لا تلقِ باللوم على نفسك. لا يمكن أن تمنع وفاة قدّرها الله. لكن، لو كنت هنا وبذلت قصارى جهدك لتمنعها، لكان ضميرك مرتاحاً الآن على الأقل...".
رد كامل: "لن أسامح نفسي أبداً؛ لأنني لم أكن هنا. كيف يتقبّل ضياء الأمر؟".
ردّت جميلة: "ضياء يشعر بألم كبير. فكما تعرف، أحب نيلوفر كثيراً. لماذا لا تقف بجانبه الآن؟ أنا واثقة أنه يحتاج إلى مساندتك كثيراً".
مشى كامل مطأطئ الرأس، نحو القاعة الرئيسة في السلملك حيث كان ضياء يتقبّل التعازي من أصدقاء، وجيران، وأقرباء ذكور.
ذهبت جميلة إلى غرفة نوم نيلوفر. لم يكن بمقدورها أن تصدّق أن الغرفة التي استضافت قبل سنة فقط عرش عرس نيلوفر، تضم آنذاك سرير موتها.

امتلأت كل من غرفة النوم والحجرة المجاورة بنساء جئن لإلقاء نظرة الوداع على نيلوفر وتقديم التعازي للأسرتين الحزينتين. كانت كل النساء يبكين، لكنْ ليس هناك عويل، بل القبول الهادئ بقدر محتوم. استُدعيت شابتان حافظتان لتتلوَا باستمرار القرآن الكريم بجانب سرير نيلوفر.

عندما انتشر نبأ وفاة نيلوفر، تدفق سيل من الزوّار القادمين والمغادرين. جاء أصحاب مقام رفيع في القصر وزوجاتهم، ومسؤولون من النخبة العثمانية، وأقرباء، وأصدقاء الأسرة وجيرانها - أثرياء وفقراء على حدٍّ سواء - إلى قصر بلربي لتقديم تعازيهم ومواساة الأسرتين المفجوعتين. أحضروا جميعهم طعاماً قُدّم بالمقابل للمعزّين، وقد اختُبر القول العثماني المأثور القديم "المشاركة تزيد الأفراح وتخفف الأتراح" مجدداً وثبتت صحته. شعرت جميلة بشكر عميق لتلك المساعدة في وقت حاجتهم إليها.

غادر الزوّار جميعاً بعد صلاة المغرب، وبقي كل من في القصر في حال صدمة. كانت الجنازة ستُقام في اليوم التالي بعد صلاة الظهر، لذا بدا الجميع بحاجة إلى نيل قسط من الراحة. ذهب كامل أفندي إلى السرير في غرفة النوم المجاورة كما يفعل كثيراً في الآونة الأخيرة. وبعد أن توثّقت جميلة من الطفلة وأعطت ضياء دواءً عشبياً يساعده على النوم، أوت إلى فراشها.

كانت النشاطات المجهدة في أثناء النهار قد استحوذت على اهتمام جميلة التام ومنعتها من مواجهة خسارتهم. لكن، بعد أن أصبحت بمفردها آنذاك، أصبحت أبعاد تلك الخسارة واضحة جداً: لقد فقد ضياء زوجته، وشريكته، وحبيبته... وفقدت الطفلة والدتها، أكبر ذُخر يمكن أن تحظى به... وقد فقدت جميلة ابنة تحبها كثيراً... شعرت بحيرة شديدة. كيف سينجحون في تدبّر أمورهم في اليوم التالي والأيام اللاحقة؟ عرفت جميلة أنه لا يوجد إلا جواب واحد فقط عن ذلك السؤال: بفضلٍ من الله. تضرّعت بقوة أن يمنحها الله وأسرتها القوة والجَلَد لتحمّل تلك المحنة القاسية.

كانت جميلة مرهقة، وسرعان ما غطّت في نوم عميق، لكنها استيقظت فجأة قبل الفجر بوقت قصير. رأت جميلة نيلوفر في حلمها: كانت جميلة تركب عربة بيضاء تجرّها أربعة خيول بيضاء، وفي طريقها إلى جنازة المتوفاة. تحرّكت بعض الوقت على طريق تصطف الأشجار على جانبيه، ثم خرجت العربة عن الشارع الرئيس إلى درب ضيق. رأت جميلة على كلا جانبي الدرب حقولاً وووروداً على امتداد بصرها؛ وروداً من كل لون يمكن تخيله، وأكثر جمالاً من أي أزهار قد رأتها على الأرض، وقد فُتنت بها!

أوقفت جميلة العربة، خرجت منها وبدأت تمشي بينها، ثم انحنت وقطفت عدّة وردات خرج منها شذا رائعٌ. شعرت جميلة ببهجة كبيرة من الورود وجلست في الحقل، ونسيت أنها يجب أن تذهب إلى الجنازة. فجأة، ظهرت نيلوفر بجانب جميلة، وهي ترتدي فستاناً أبيض وغطاء رأس أبيض، وتبدو أجمل من ذي قبل. كان وجهها يشرق ضوءاً، وجلست نيلوفر بجانب جميلة من دون أن تقول كلمة. ابتسمت فقط... كانت ابتسامة قناعة ورضا.

استيقظت جميلة بعد ذلك، وشمّت عطر الورود للحظة، وانتابها شعور قوي بالسكينة؛ كأن كل شيء كما ينبغي. كانت نيلوفر بخير، وقد انتقلت ببساطة إلى مستوى آخر من الوجود. لم يكن هناك شيء تقلق بشأنه...

نهضت جميلة، وذهبت إلى غرفة ضياء، ووجدته جالساً على سجادة صلاة.

هتفت جميلة: "ضياء! لقد رأيت نيلوفر في حلم. كانت تبتسم يا ضياء، ولا بد أنها بخير".

وجلاً، رفع ضياء بصره إلى والدته. "لماذا تقولين هذا يا أمي العزيزة؟ أخبريني ما رأيته".

وصفت جميلة بوضوح حلمها لابنها؛ الحقول، والورود، وابتسامة نيلوفر، ثم أخبرته عن السكينة التي شعرت بها حين استيقظت.

قالت جميلة مقتنعة تماماً بصدق كلماتها: "ضياء، لا بد أنها علامة لنا على أن نيلوفر بخير".

أجاب ضياء: "أريد أن أصدّق هذا".

جثت جميلة، ووضعت ذراعيها حول ضياء كما كانت قد فعلت عدّة مرات في الماضي حين احتاج ابنها إلى مواساتها.

قالت جميلة: "ضياء، نعرف أن الرؤى من الله. كان ذلك حلماً جميلاً، وليس مجرد مصادفة. يجب أن تصدّق أن نيلوفر بخير".

أومأ ضياء ببطء، وانفرجت أسارير وجهه قليلاً حين خفَّت وطأة الهم في صدره.

"هذه هي الحياة، أليس كذلك يا أمي؟ الاستعداد لليوم الذي ينتهي فيه كل شيء".

"نعم يا بني، هذه هي الحياة، لكننا ننسى تلك الحقيقة البسيطة بسهولة كبيرة. نحن نُشغل بنشاطات الحياة اليومية، وتحجب احتياجاتنا ورغباتنا وكل الصعوبات التي تواجهنا تلك الحقيقة البسيطة عنا".

نظر ضياء إلى عيني والدته وقال: "أمي، إذا نسيت مجدداً، فذكّريني من

فضلك؛ لأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمنح وفاة نيلوفر معنى".
نهضت جميلة ببطء لتعود إلى غرفتها. كانت تنتظرهم مهمة صعبة جداً ذلك اليوم، ويجب أن يدفنوا نيلوفر. شعرت جميلة في قلبها أنهم سيتجاوزون تلك المحنة وسيخرجون منها أكثر حكمة.
بعد أن ارتدت جميلة ثيابها، ذهبت فوراً إلى غرفة الطفلة لترى حال المولودة الجديدة. كانت مرضعة البنت قد انتهت للتو من إرضاعها، وهي تنام قريرة العين في مهدها. نظرت جميلة إلى الرضيعة بإمعان، وبدت صغيرة وحسّاسة جداً، لكن عليها أن تصبح فتاة قوية لتتغلب على تلك الصفعة التي تلقّتها من القدر.
تركت جميلة الطفلة مع دادي، وذهبت لتتوثق من ترتيبات الجنازة. كانت قافلة من العربات قد بدأت تتشكّل آنذاك أمام القصر، وكان أصدقاء وأقرباء من كل حدب وصوب يتجمّعون لأداء واجبهم الأخير تجاه نيلوفر التي سيُنقل جثمانها إلى مسجد بلربي ويُدفن لاحقاً في مقبرة المدينة. مع اقتراب موعد صلاة الظهر، انطلقت القافلة إلى المسجد، تتقدمها عربة أسرة نيلوفر. بقيت كل النساء في عرباتهن حين أمَّ الإمام الرجال في صلاة الظهر ثم صلاة الجنازة.كانت المراسم بسيطة، لكنها مهيبة. بعد الصلاة، وُضع نعش نيلوفر على عربة جنائز تجرّها ثيران، وصعد موكب الجنازة التلة إلى المقبرة، وبجهد مضنٍ من الخيول والثيران، وصلت القافلة إلى المدافن.
عالياً على التلة، كانت المقبرة تطل على منظر رائع من مضيق البوسفور. مجدداً، بقيت النساء في العربات في حين رتّل الإمام القرآن الكريم وأسهب بالدعاء لنيلوفر عند إنزال جثمانها إلى القبر. كان نسيم عليل يهب من المضيق، ونظرت جميلة حولها إلى المقبرة الهادئة، ورأت شواهد قبور منقوشة بوقار تتداخل كيفما اتفق مع أشجار السرو والورود البرية؛ وكأنها تريد أن تثبت أن الموت جزء من الحياة. كانت علامات الأسى الوحيدة التي رأتها جميلة أغصان أشجار الصفصاف المتدلية، والدموع التي سالت على وجهها حين قُذف آخر رفش تراب على قبر نيلوفر. نزلت القافلة بعد ذلك من التلة مجدداً.
امتلأ المنزل طوال الأصيل بسيل متواصل من الزوّار الذين عبّروا عن مواساتهم للأسرتين الحزينتين، وكانت مناسبة مهيبة لمشاركتهم في ترحهم. جاءت نساء ليرتّلن آيات معينة من القرآن الكريم، وللدعاء من أجل رحمة نيلوفر، وأُنشدت أناشيد تتعلق بالموت.
في المساء، وبعد أن غادر كل الزوار، ذهبت جميلة وكامل وضياء معاً إلى

حجرة نوم الطفلة لرؤيتها.
سألت جميلة: "ضياء، هل تدرك أنك لم تُسَمِّ الطفلة بعد؟".
سأل ضياء: "نعم يا أمي العزيزة. لكن ذهني كان مشغولاً، ولم تسنح لي فرصة التفكير في أسماء. هل لديك أي اقتراحات؟".
ردّت جميلة: "ماذا عن قدرية؟ إنه اسم رائع، ويمكن أن يمنح القوة لابنتنا الصغيرة؟".
سأل ضياء كامل أفندي: "ما رأيك يا أبي؟".
رد كامل: "أظن أنه اسم ملائم تماماً".
حمل ضياء ابنته، وبعد أن أذّن في أذنها اليمنى، لفظ اسمها الجديد: قدرية.
استمر سيل الزوّار الذين يقدمون تعازيهم طوال الأسبوعين التاليين، وساعد اهتمامهم في التخفيف من ألم جميلة وأسرتها، وأعانتهم مساندتهم على التلاؤم مع تلك الحقيقة الجديدة والقاسية.
كانت الطفلة قدرية أحد مصادر الفرح في حياة جميلة. غافلة عن المأساة التي قد ألـمّت بها، ترعرعت الفتاة على الحليب والاهتمام الذي حظيت به. كانت مثل نجم لامع في وسط الظلام، وتجعل الابتسامة تظهر على شفاه الأشخاص حولها الذين يغرقون بخلاف ذلك في الحزن.
مرت الشهور الأولى التي أعقبت ولادة قدرية ووفاة نيلوفر في تفكير عميق ونقاشٍ لا ينتهي عن الحياة والموت. أمضت جميلة وضياء كل مساء تقريباً وهما يناقشان تلك الموضوعات، ويحاولان اختراق طبقات سميكة من الأفكار للوصول إلى الحقائق الأساسية. ماذا كانت الغاية الرئيسة من الحياة؟ هل حققت نيلوفر تلك الغاية؟ في أي مرحلة كانت جميلة وضياء في رحلتي حياتهما؟ ما العبر التي يمكن أن يستخلصاها من وفاة نيلوفر؟ تكلمت جميلة وضياء غالباً حتى ساعات باكرة من الصباح. لم يكن ذلك وقت تحليل الذات فقط، وإنما مدة للمعالجة النفسية أيضاً؛ خاصة لضياء. بدا أن الكلام عن وفاة نيلوفر هو الوسيلة الوحيدة لتهدئة الأفكار والمشاعر التي تجيش في ذهن ضياء وقلبه؛ الطريقة الوحيدة للتخفيف من الألم المبرّح الذي يشعر به.
قال ضياء ونظرة ارتباك تعلو وجهه: "أمي العزيزة، ماتت نيلوفر يافعة جداً. كانت في بداية حياتها الراشدة، وبقيت قدرية من دون أم. أحياناً لا أجد أي منطق في هذا".
ردّت جميلة: "ضياء، أحياناً لا تبدو الأمور على حقيقتها. هل تتذكر حين

سردت لك مرة قصة عن رجل صالح يمشي في الصحراء ويقتله أسد؟ يبدو ذلك فعلاً جائراً لمثل ذلك الشخص الجيد. على كل حال، كان قد تضّرع إلى الله أن يرفعه إلى مكانة عالية في السماء، لكن أعماله في الحياة لم تكن كافية لتضمن له ذلك. لذا منحه الله ميتة شنيعة وجعل منه شهيداً، ما مكّنه من الحصول على المكانة العالية التي طلبها".

سأل ضياء ذاهلاً: "أمي، هل تشيرين إلى أن نيلوفر شهيدة؟".

"نعم يا ضياء، تُعدُّ النساء اللواتي يمتن في أثناء الولادة شهيدات في ديننا. ربما لم تكن أعمال نيلوفر الصالحة في مدة حياتها القصيرة كافية لمنحها مقاماً عالياً في الحياة الآخرة. لكن، بوصفها شهيدة، ستحظى بتلك المكانة. وأيضاً يا بني، هل فكرت يوماً في أن أعمالنا الصالحة ليست كافية لنحظى بالمكانة التي نريدها في العالم الآخر، لكن إذا قبلنا هذه المحنة بصبر، فربما تكون مركبة تنقلنا إلى مقامٍ أعلى".

"لا يا أمي العزيزة، لم أفكِّر في ذلك قطّ. هل تقولين إن شيئاً جيداً لنا جميعاً يمكن أن يتمخض عن وفاة نيلوفر؟".

"ضياء، ذلك يعتمد على تصوّرك للموت. ألا يقول الدراويش: الخير في ما اختاره الله عزَّ وجل".

بمرور الأسابيع والشهور، حاولت جميلة أن تُولي قدرية جُلَّ اهتمامها، وشجّعت ضياء على فعل الشيء نفسه. عقدت جميلة العزم على جعل حياة قدرية طبيعية قدر الإمكان. لذا دعت بعد ثمانية شهور، حين نبتت أولى أسنان الطفلة، صديقاتها وقريباتها إلى عشاء تقليدي يدعى ديس بوغداي . إضافة إلى الوجبة العادية، قُدّم طبق محضّر من قمح محلّى (بوغداي)، وفاكهة مجففة وجوز. أحضرت كل ضيفة هدية للطفلة احتفالاً بسنّها الجديدة.

كانت رابية، صديقة طفولة جميلة، بين الضيفات، وقد استمرت صداقتهما بمرور السنين وتمتنت مع الوقت. انتظرت رابية مغادرة كل الضيفات الأخريات، وبدت نظرة قلق على وجهها. فهمت جميلة أن رابية لديها شيء تتكلمان عنه بمفردهما، لكن لم تكن لديها أي فكرة عنه.

سألت جميلة بقلق: "رابية، ما الذي يزعجك؟ هل يمكنني فعل شيء للمساعدة؟".

ردّت رابية بصوت حنون: "يا أختي العزيزة، كنت أتمنى من كل قلبي ألا أكون الشخص الذي ينقل إليك هذا الخبر".

قالت جميلة: "ما الأمر يا رابية؟ تعرفين أن بمقدورك أن تستودعيني سراً.

هل آذاك أو آلمك أحد بطريقة ما؟ أرجوك أخبريني عمّا حدث؟".
أجابت رابية: "لا يا عزيزتي جميلة، لم يلحق بي ضرر. إنه أنت...".
سألت جميلة مدهوشة: "أنا؟! ماذا تعنين؟".
"جميلة، ذهبت أمس لزيارة ابنة عمي رُقيّة في سارير. كانت قد دعت أيضاً بعض النساء من مناطق مجاورة لتناول الشاي، ومن بينهنّ شابة، بدرية خانم التي تعيش مع زوجها في روملي كافاجي منذ أكثر من سنة. اشتكت أن زوجها لا يقضي وقتاً طويلاً في المنزل بسبب عمله. عندما سألت بدرية خانم عن زوجها، ردّت أنه مساعد كبير الأطباء في القصر؛ كامل أفندي...".
أصبح وجه جميلة أبيض شاحباً، وقالت بصوت خافت: "تابعي...".
تابعت رابية: "إنها جارية جورجية سابقة من حريم أخت السلطان، السلطانة عصمت. هذا كل ما عرفته عنها يا جميلة، باستثناء أنها تتوقع طفلاً بعد ثلاثة شهور".
قالت جميلة: "رابية، لا بد أن هناك خطأ ما. كامل لن يفعل شيئاً مماثلاً. سأذهب إلى هناك في الصباح الباكر لأرى بنفسي".
ردّت رابية: "لن أدعك تذهبين بمفردك. سأعود إلى هنا في الصباح الباكر غداً وسنذهب معاً"، ثم عانقت جميلة بقوة وغادرت المنزل.
انتظرت جميلة عودة كامل إلى المنزل، لكنه بعث رسالة يقول فيها إنه سيبقى في القصر كل الليل...
لم ترغب أن تقول شيئاً لضياء عما أخبرتها به رابية قبل أن ترى الوضع بنفسها. وبعد أن أخبرت ضياء عن وليمة أولى أسنان قدرية، استأذنت وقالت إنها تعاني صداعاً فظيعاً.
أوت جميلة إلى السرير باكراً، لكن النوم جافاها، وبقيت تقلّب في ذهنها ما قالته رابية لها. هل يعقل أن "كامل" قد اتخذ زوجة ثانية؟ لم يلمّح لجميلة قط أنه يرغب بأن يتزوج مجدداً. ووفقاً لما تعرفه، لم يُظهر كامل قط اهتماماً بأي امرأة أخرى، ولا بد من وجود تفسير لذلك. من ناحية أخرى، لم يكن هناك إلا مساعد واحد لكبير أطباء القصر يدعى كامل أفندي... لم تعرف جميلة في ماذا تفكر.
بعد ليلة لم تنعم فيها بنوم هانئ، استيقظت جميلة قبل الفجر في صباح اليوم التالي. أولاً، أدّت الصلاة، ثم تضرّعت بحماسة لكي يهديها الله ويحميها ويحمي أسرتها. وصلت رابية بعد شروق الشمس بقليل، وتناولت المرأتان فطوراً سريعاً ثم نزلتا الدرج إلى الرصيف الخاص. حاول كبير العمال

أن يثني جميلة عن الإبحار في المركب بسبب الطقس السيئ، لكنها صمّمت على الذهاب إلى روملي كافاجي. كانت سحب داكنة تتجمّع فوق المضيق، وهزّت ريح قوية القارب الصغير، وواجه المجدّفون صعوبة في الإبحار بالزورق الخفيف في المياه الهائجة. وبعد رحلة طويلة وشاقة، عبر المركب أخيراً المضيق ووصلوا إلى روملي كافاجي في منتصف الصباح. أمرت جميلة كبير العمال أن ينتظر عند الرصيف مع المجدّفين في حين ستقوم مع رابية خانم بزيارة.

كانت روملي كافاجي أبعد مستوطنة على المضيق قبل مدخل البحر الأسود. وبسبب عدد سكانها القليل، لم تجد جميلة ورابية صعوبة في تحديد المنزل الذي تعيش بدرية خانم وزوجها فيه، وبدا أكبر بيت في المستوطنة الصغيرة.

قرعت المرأتان على الباب، واصطحبتهما خادمة إلى غرفة الجلوس في الحرملك، من دون أن تسأل عن سبب مجيئهما. عندما دخلت جميلة الغرفة، لاحظت رسمة مؤطرة تجثم على طاولة صغيرة، وشعرت فجأة أن أنفاسها قد كُتمت. كانت رسمة لكامل وشابة؛ بدرية خانم على ما يبدو. حاولت أن تتماسك، وتشبّثت بذراع رابية التي قادتها إلى أقرب كرسي. أخرجت رابية قارورة كولونيا صغيرة من حقيبتها، وفركت السائل على جبين جميلة ورسغيها. عادت الخادمة لتبلغهما أن بدرية خانم متوعكة، لكن كامل أفندي سيأتي بعد وقت قصير. طلبت رابية من الخادمة أن تحضر بعض الماء.

كان للماء تأثير مهدئ على جميلة، لكنها شعرت أن طاقتها الحيوية قد استُنفدت؛ وكأنها قد سُحقت تحت وزن ثقيل. أمسكت رابية يد جميلة بقوة.

ظهر كامل أفندي بعد وقت قصير، وعندما دخل الغرفة تجمّد في مكانه وشحب وجهه. بدا كامل مذهولاً حين وجد جميلة أمامه.

سأل كامل بصوت متوتر: "جميلة، ماذا تفعلين هنا؟ كيف وجدت الطريق إلى هنا؟".

سألت جميلة متجاهلة سؤاله: "هل يمكن أن نتكلم على انفراد للحظات؟".

رد كامل بوقار: "نعم، طبعاً، من هنا".

تبعت جميلة كامل إلى غرفة مجاورة بدا أنها مكتبه. قالت جميلة بعد أن جلست:

"كامل أفندي، أظن أنني أستحق تفسيراً. لماذا لم تخبرني عن هذا من

قبل؟".
أجاب كامل: "جميلة، لم أعرف كيف أخبرك. لم أرغب بأن أؤذيك".
سألت جميلة: "هل تحبها؟".
"لم أتزوج بدرية خانم بسبب الحب. تزوجتها بسبب علاقاتها الوثيقة بالسلطان. لقد تربّت في الحرملك بالقرب من الأخت المفضّلة لدى السلطان. جميلة، تعرفين كم عذّبني عدم ترقيتي في مهنتي. ظننت أن زواجي من بدرية سيوفّر لي تلك الترقية".
سألت جميلة: "وهل حدث هذا؟".
رد كامل: "ليس بعد، لكنني حصلت على وعد من أخت السلطانة عصمت أنه عندما تنتهي خدمة كبير الأطباء الحالي، ستوصي بي إلى أخيها السلطان".
قالت جميلة: "فهمت. جئت إلى هنا يا كامل لأعرف إن كنت قد وضعت مصالحك الخاصة فوق مصالح الأسرة. وبعد أن عرفت الآن أنك فعلت ذلك، أود أن أغادر".
قال كامل: "جميلة...".
نهضت جميلة من دون أن تسمح لكامل أن ينهي الجملة، ذهبت إلى الغرفة المجاورة وغادرت مع رابية.
لم تضطر رابية إلى أن تسأل جميلة عن حالها، وفهمت من النظرة على وجهها أن صديقتها مفطورة الفؤاد. عادتا إلى المركب بأسرع ما يمكنهما وبدأتا تعبران المضيق مجدداً.كانت الريح لا تزال قوية والمياه هائجة، وكانت سحب داكنة قد تجمّعت على نحو ينذر بالسوء فوق الرؤوس. عندما وصل القارب الصغير إلى منتصف المسافة بين الشاطئين، بدأ المطر ينهمر غزيراً فجأة. كانت المظلتان اللتان أمسكتهما المرأتان فوق رأسيهما عديمتي الفائدة، ونقع المطر الجميع من أعلى رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم. وبجهد استثنائي فقط استطاع المجذّفون إعادة المركب سالماً إلى رصيف قصر بلربي.
عندما أصبحتا في الداخل، بدّلت المرأتان ثيابهما فوراً. كانت جميلة مرهقة، وأمرت رابية الخادمات أن يحضّرن لها بعض الشاي الساخن ويجعلنها تأوي إلى الفراش، وقالت إنها ستزور جميلة في اليوم التالي.
عندما جاء ضياء إلى المنزل مساء ذلك اليوم، وجد والدته في السرير تعاني حمّى شديدة. غير مدرك الأحداث التي قد جرت في ذلك اليوم، بعث ضياء رسالة إلى والده ليأتي إلى المنزل في أسرع وقت ممكن. لم تنجح جهود الخادمات في خفض الحرارة باستخدام كمّادات الماء البارد، وعندما وصل كامل، أعطى جميلة دواءً، لكن الحمّى لم تختفِ. كانت جميلة على

وشك أن تهذي، وبدا أنها في حالة وسط بين النوم واليقظة. انتابتها كوابيس رهيبة، وجاءت مخلوقات غريبة وذهبت في عالم سريالي، وعاشت لقاءها مع كامل في روملي كافاجي مجدداً. حاولت جميلة أن تستيقظ، لكنها لم تستطع...

الفصل التاسع

بلربي

استمرت الحمّى ثماني وأربعين ساعة قبل أن تزول أخيراً. وعندما استيقظت جميلة، رأت رابية ودادي جول - شاه إلى جانبها.

قالت رابية: "جميلة، الحمد لله أنك بخير. لقد أخفتنا كثيراً".

قالت جميلة بصوت واهن: "لا أتذكر شيئاً. منذ متى وأنا في السرير؟".

ردّت رابية: "أُصبت بحمّى شديدة يا جميلة استمرت ثماني وأربعين ساعة".

دُهشت جميلة حين علمت أنها بقيت في الفراش يومين، ثم تذكّرت الأحداث التي سبقت إصابتها بالحمّى؛ الرحلة الخطرة إلى روملي كافاجي، وحديثها مع كامل، وانهمار المطر الغزير في أثناء العودة... شعرت جميلة بتعب شديد، وبدا وجهها شاحباً. طلبت من دادي جول - شاه بعض الماء، لكنها رفضت أن تأكل شيئاً، وأرادت فقط أن تنام...

أمضت جميلة بعد ذلك أياماً متواصلة في السرير، نائمة معظم الوقت، ولم تأكل إلا ما يكفي ليسد رمقها. شعر ضياء بقلق كبير على والدته، وعندما سأل والده عن سبب حالتها، شرح له كامل أفندي ما حدث. حان آنذاك الوقت ليساند الابن أمه في وقت محنتها، وعندما كان ضياء يعود إلى المنزل من العمل كل ليلة، كان يذهب ليجلس بجانب والدته لمواساتها، ولم يتركها وحدها مطلقاً، وقد أحضر أحياناً قدرية معه، على أمل أن تبهج جميلة.

مرت أيام وأسابيع، لكن جميلة لم تستطع أن تنهض وتستعيد عافيتها، وشعرت وكأنها قد فقدت طاقتها الحيوية، ولم تعرف كيف تستعيدها. حاول ضياء، وكامل أفندي، ودادي جول - شاه، ورابية، وزينب خانم وأخريات إعادة جميلة إلى الحياة الطبيعية لكن من دون جدوى.

كانت جميلة تبحث سراً عن طريقة لتفسخ علاقتها بكامل، وبدا أن خياريها الوحيدين إما أن تقبل زواج كامل من بدرية خانم أو تطلب الطلاق منه. على كل حال، لم يكن أي الخيارين مقبولاً لجميلة، فقد كرّست كل حياتها كراشدة لذلك الزواج، ولم تستطع أن تتخيل أي حياة أخرى لنفسها. فضلاً على ذلك، كانت جميلة لا تزال تكن حباً جماً لكامل، وتخشى من فقدان حبه. وعلى الرغم من أن السنوات القليلة الأخيرة من علاقتهما لم تكن مرضية لجميلة، إلا أنها بقيت تأمل أن زواجهما سيعود إلى طبيعته يوماً ما. شعرت جميلة بارتباك شديد، ولم تعرف ماذا تفعل، لذا لم تفعل شيئاً... باستثناء النوم.

في إحدى الليالي، بعد ستة أسابيع من التزام جميلة الفراش بسبب الحمّى، رأت حلماً: شاهدت حسنو بابا، الشيخ الذي كان صديق طفولة والدها، جالساً يطوي ساقيه تحته على بساط من جلد الخروف في تكيته، والعطر يعبق بالغرفة. كان الرجل يرتدي ثوباً أبيض طويلاً، ويعتمر قبعة دراويش خضراء مدببة على رأسه وعمامة بيضاء تلتف حولها، ووردة حمراء واحدة مثبتة بالعمامة. كانت عيناه الزرقاوان تبتسمان ولحيته بيضاء مثل الثلج، وشعاع ضوء يرتفع خلفه.

قال بصوت حنون: " ابنتي العزيزة جميلة، اطلبي الحب من مصدره، لا من قناته".

استيقظت جميلة في صباح اليوم التالي قبل الفجر، وتذكرت كلمات حسنو بابا: "اطلبي الحب من مصدره، لا من قناته". ماذا كان الشيخ يعني؟ ما مصدر الحب وما قناته؟ فكّرت جميلة طويلاً في كلمات حسنو بابا طوال اليوم، وبدأت تفهم ببطء ما يعنيه بالضبط.

فهمت جميلة أن حسنو بابا يخبرها أن تطلب الحب من الله؛ مصدر كل الحب، فالبشر مجرد قنوات لحب الله. كان كامل قناة لحب الله سنوات عديدة، لكن تلك القناة قد سُدّت آنذاك بأنانيته. لم تعد جميلة تشعر بالخوف من فقدان كامل، وفهمت آنذاك أن خسارته لا تعني فقدان الحب، فهو إحدى قنوات عديدة للحب في حياتها.

شعرت جميلة بارتياح عاطفي كبير، وعرفت آنذاك ما يجب أن تفعله. خرجت من السرير، واستدعت دادي جول - شاه، وسألت المرأة العجوز إن كان كامل أفندي قد عاد إلى المنزل. قالت الدادي إنه في الغرفة المجاورة، لذا طلبت جميلة منها أن تطلب منه المجيء إليها. دخل كامل الغرفة ونظرة دهشة تعلو وجهه.

قال بإثارة: "جميلة، تبدين رائعة. أنتِ تقفين على قدميك مجدداً".

ردّت جميلة: "نعم يا كامل، الحمد لله، لقد عدت إلى الوقوف على قدمي. سألت الدادي جول - شاه أن تطلب منك المجيء إلي؛ لأننا يجب أن نناقش قضية مهمة؛ شروط طلاقنا. إذا كنت تتذكر، وُضع شرط في عقد زواجنا، وهو أنك إن اتخذت زوجة ثانية، فسنفترق. آمل أن تطلّق بأقل قدر ممكن من الإزعاج لنا جميعاً".

بدا واضحاً أن "كامل" قد دُهش من كلمات جميلة، لكن الاقتناع في صوتها، على كل حال، أخبره أن القرار الذي اتخذته نهائي. بدا كامل مرتبكاً ومتألماً؛ وكأنه لم يتوقع هذا النوع من القرارات من جميلة.

أجاب كامل: "كنت آمل ألا تنتهي الأمور بهذه الطريقة. هل أنتِ واثقة أن هذا ما تريدينه؟".
ردّت جميلة: "ليس هذا ما أريده يا كامل، إنما ما يجب أن أفعله. لم تترك لي أي خيار مقبول آخر".
عندما فتح الباب ليغادر الغرفة، قال كامل بهدوء: "يمكن أن نتوصل إلى اتفاق بشأن شروط الطلاق هذا المساء حين يعود ضياء إلى المنزل من العمل".
شعرت جميلة بسكينة بالغة. لم تكن تعرف الاتجاه الذي ستسلكه حياتها بعد طلاقها، لكنها أحسّت بالأمان بين يدي الله. ألا يثبت الحلم أن الله سيسدّد خطاها؟ كانت غايتها الوحيدة آنذاك هي الاقتراب أكثر فأكثر من مصدر الحب.
بعد أن عاد ضياء إلى المنزل تلك الأمسية، أخبرته جميلة عن قرارها، فشعر الابن بالانزعاج؛ لأن والديه سينفصلان، لكنه فهم ألم والدته. عندما جاء كامل أفندي إلى المنزل، جلسوا معاً وناقشوا ترتيبات المستقبل، وقد خطط كامل أن يترك قصر بلربي لضياء بعد مماته، لذا قرروا أن تنتقل حقوق نصف القصر فوراً إلى ضياء والنصف الآخر إلى جميلة بدلاً من مهرها المؤجل، وعند وفاة جميلة سيرث ضياء حصتها من المنزل. سينقل كامل باقي ممتلكاته الشخصية إلى منزله في روملي كافاجي.
عندما انتهى نقاشهم، أوت جميلة إلى السرير لأن لديها شيئاً مهماً جداً تريد أن تفعله في اليوم التالي.
نهضت جميلة باكراً في صباح اليوم التالي وارتدت ثيابها. شعرت أنها أفضل حالاً مما كانت عليه طوال أسابيع. أبلغت كبير العمال أن لديها عملاً تقوم به، وطلبت منه إعداد العربة. بعد تناول الفطور وتمضية نحو ساعة مع قدرية، لبست العباءة والخمار، ثم خرجت وصعدت العربة التي تنتظر عند البوابة، وأخبرت السائق أن يتجه إلى كانليكا.
في أثناء انتقالها على الطريق الساحلي، فتحت جميلة الستارة ونظرت إلى الخارج نحو المضيق. كان يوماً صحواً جميلاً، وأشعة الشمس تتلألأ مثل ألماس على الماء الساكن. شاهدت عشراتٍ من قوارب صيد صغيرة تتحرك ذهاباً وإياباً على سطح الماء، في حين تزعق مجموعات من طيور النورس فوق الرؤوس. عندما رأت جميلة الحياة الصاخبة في المضيق، شعرت بحيوية جديدة تسري في عروقها.
وحين استدارت العربة من الطريق الساحلي إلى الشارع الرئيس في كانليكا،

أغرق طوفان من الذكريات ذهن جميلة. كانت المرحلة الأولى من حياتها قد انقضت هناك في أحضان أسرتها وصديقات طفولتها الدافئة، ثم كوّنت حياتها في بلربي مرحلة ثانية مع أسرتها الجديدة. شعرت جميلة آنذاك أنها على عتبة مرحلة أخرى في الحياة، وأسعدها أنها ستبدأ في كانليكا.

أوقف السائق العربة بجانب الطريق وترجّل.

سأل: "إلى أين بالضبط تريدين أن تذهبي يا خانم؟".

"خذني إلى تكيّة حسنو بابا".

انطلقا عشر دقائق أخرى ثم خرج السائق عن الشارع إلى زقاق ضيق يوجد في آخره مبنى خشبي كبير وقديم. كان البناء في بستان يضم أعداداً كبيرة جداً من أشجار مثمرة مختلفة: تفاح، إجاص، رمّان، دراق، خوخ، سفرجل وكثير غيرها. شاهدا خلف المنزل حديقة خضار تنبسط بعيداً على امتداد البصر، وأزهاراً؛ خاصة الورود، تظهر في كل مساحة خالية. عموماً، كانت صورة عن الخصب نفسه.

ترجلت جميلة من العربة واجتازت ببطء الدرب الحجري الذي يؤدي إلى الباب الأمامي. رأت هرّة أمّاً وصغارها الأربعة مكوّرة إلى جانب الباب، والهريرات مشغولة بالرضاعة. رفعت الهرّة الأم بصرها إلى جميلة حين قرعت على الباب، لكن عندما لم تشعر بتهديد أعادت انتباهها إلى صغارها. فتح شاب يرتدي ملابس فضفاضة ويعتمر قلنسوة ضيقة البابَ، وقالت جميلة إنها قد جاءت لترى حسنو بابا. اصطحبها الشاب إلى غرفة صغيرة قرب المدخل وطلب منها الانتظار، ثم اختفى. عاد الشاب بعد بضع دقائق، وطلب من جميلة أن تلحق به، وقادها إلى قاعة كبيرة حيث كان الشيخ ينتظرها.

كان حسنو بابا يجلس على جلد خروف في زاوية غرفة كبيرة كما رأته جميلة في حلمها تماماً، ويرتدي أيضاً الثوب الأبيض نفسه ويعتمر قبعة الدراويش الخضراء ذاتها. شاهدت أيضاً زهرة مثبتة في عمامته الملفوفة حول قبعته.

قال وكأنه يتوقع مجيئها: "أهلاً يا ابنتي جميلة". دهشت جميلة؛ لأن الشيخ يعرف اسمها، فهي لم تكن قد رأته منذ كانت طفلة.

قالت جميلة: "حسنو بابا، أنا ابنة صديقك القديم حكمت بيك...".

ردّ حسنو بابا: "نعم، طبعاً. أمضيت ووالدك وقتاً طويلاً معاً حين كنا طفلين. شعرت بحزن عميق حين علمت بشأن وفاة والديك. أتمنى من الله أن يرحم روحيهما".

شرعت جميلة تقول: "في السنوات القليلة الماضية واجهت محناً أخرى أيضاً...".

قال حسنو بابا: "دعيني أخبرك إحدى قصص الرومي يا ابنتي العزيزة ".

"في سالف العصر والزمان، كان هناك ملك ثري في مقتنياته الدنيوية وروحه. خرج للصيد يوماً ما مع أفراد حاشيته ورأى جارية في طريقه. تعلّق قلب الملك بالشابة، لذا اشتراها، لكن بعد أن حقق رغبته، مرضت الجارية.

جمع الملك كل الأطباء معاً وأخبرهم أنه سيمنح كنزه إلى من يستطيع مداواة الفتاة. كان الأطباء متغطرسين، وقالوا إن لديهم دواءً لكل داء، لكنهم لم يستطيعوا معالجتها. شعر الملك بحزن شديد وركض إلى المسجد وتضرّع من صميم قلبه، وعندما كان يبكي، غطَّ في النوم ورأى رجلاً عجوزاً في حلمه. أخبره العجوز أن تضرّعه قد قُبل، وأن غريباً سيصل في اليوم التالي، وقال إن الملك يجب أن يثق به؛ لأنه طبيب ماهر.

انتظر الملك في اليوم التالي الطبيب الماهر، وعندما رآه يقترب، ذهب للقاء الرحّالة بنفسه. بعد أن رحّب الملك بالطبيب، أخبره عن مرض الشابة وأخذه إلى جانب سريرها. راقب الطبيب لون وجهها وقاس نبضها، وفهم أن المرض في قلبها، لا في جسدها.

طلب الطبيب من الملك أن يغادر الجميع الغرفة حتى يبقى بمفرده مع الفتاة ليطرح عليها بعض الأسئلة. فعل الملك ما طُلب منه، وبدأ الطبيب يستفسر من الفتاة عن أسرتها وعملها، وراقب وجه الشابة وأبقى يده على نبضها. ناقشا تفاصيل كثيرة عن ماضي الفتاة، والأماكن التي عملت فيها ومالكيها السابقين. لم تصدر عنها أي علامة حتى ذكر الطبيب سمرقند، فأصبح وجهها أحمر، وبدأ نبضها يتسارع؛ لأن الفتاة افترقت عن صائغ من تلك المدينة.

أخبر الطبيب الفتاة ألا تقلق؛ لأنه سيهتم بكل شيء، ثم ذهب إلى الملك وأطلعه على الوضع، وأخبره أيضاً أن يرسل في طلب الصائغ ويغريه بالذهب والملابس الفاخرة.

أرسل الملك ساعيَين إلى الصائغ في سمرقند يحملان ذهباً وفضة وثياباً جميلة، وأخبراه أن الملك قد اختاره ليكون صائغه الشخصي. عندما رأى الصائغ كل تلك الثروة، وافق على أن يغادر مدينته وأسرته ويذهب معهما. رحّب الملك بالصائغ وزوّجه من الجارية، وسمح لهما أن يكونا سعيدين معاً ستة شهور حتى استعادت الفتاة عافيتها.

حقن الطبيب بعد ذلك الصائغ بسم جعل صحته تتدهور ببطء، وأصبح بشعاً ومنتفخ الوجنتين، وابتعدت الفتاة شيئاً فشيئاً عنه. بحلول وقت موته، كانت الفتاة قد شُفيت من حبها له، ثم استطاعت أخيراً أن تحب الملك الحي".

عندما كانت جميلة تمعن التفكير في معنى القصة، سمعت أذان الصلاة، فاستأذنت ليؤم حسنو بابا الدراويش في الصلاة، وقالت إنها ستعود مجدداً قريباً. أومأ حسنو بابا برأسه وغادرت جميلة المكان.

فكّرت جميلة في كل الطريق إلى المنزل في القصة والسبب الذي جعل حسنو بابا يسرد على مسامعها تلك الحكاية تحديداً. فهمت جميلة ببطء أنه كما أحبّت الجارية الصائغ بدلاً من الملك (في إشارة إلى الله)، فإنها هي أيضاً قد وضعت حبها لكامل قبل حبها لله، لكن آنذاك بسبب أنانيته لم يعد كامل مرضياً في عيني جميلة. كانت آنذاك مستعدة أيضاً لوضع الملك الحي أولاً في حياتها. عندما تقدمت العربة نحو بلربي على طول الطريق الساحلي، امتلأ قلب جميلة بالسكينة.

أخبرت جميلة ضياء ذلك المساء عن زيارتها إلى حسنو بابا والتكيّة، وكرّرت على مسامعه قصة الملك والجارية، وأخبرته أيضاً عن السكينة التي اكتشفتها حديثاً. أثار كل ذلك اهتمام ضياء؛ لأنه رأى أن تورداً بدأ يعود إلى وجه والدته، لذا أخبر جميلة أنه يود مرافقتها في زيارتها التالية إلى حسنو بابا.

ذهبت جميلة وضياء معاً بعد أسبوع إلى التكيّة. شعرت جميلة بسعادة غامرة لمرافقة ضياء لها؛ لأنه كان لا يزال يجد أحياناً صعوبة في قبول وفاة نيلوفر. كانت جميلة توّاقة إلى أن تحظى قدرية بأم جديدة، لكنها أحسّت أنه سيكون من الخطأ أن تفتح موضوع زواج ضياء مجدداً قبل أن يتقبّل تماماً فكرة موت زوجته السابقة.

عندما وصلا إلى بيت الدرويش، اضطرت جميلة وضياء إلى الانتظار بعض الوقت؛ لأن مجموعة كبيرة من المؤمنين الأوزبك قد وصلت في طريقها إلى مكة المكرّمة، وأراد المؤمنون أن يحصلوا على بركة حسنو بابا قبل أن يتابعوا رحلتهم. عندما شُغل الحجّاج بتناول وجبة دسمة قد حُضّرت لهم، استدعى حسنو بابا جميلة وضياء إلى مكتبه الخاص.

نظر الشيخ إلى جميلة بإمعان ثم قال مبتسماً: " ابنتي العزيزة جميلة، لديك ابن قلبه من ذهب، ومؤسف أنك لم تنجبي عشرة أولاد آخرين مثله".

ابتسمت جميلة بالمقابل. "نعم، ضياء ذهب خالص، لكن قلبه أُصيب بجرح

عميق نتيجة وفاة زوجته قبل سنة".
استدار حسنو بابا إلى ضياء: "يا بني، الحياة مثل نهر، وإذا سرت مع التيار، فسيشعر قلبك بالاطمئنان. وإذا حاولت أن تعاكس التيار، فلن تجد إلا خيبة الأمل واليأس. إن مقاومة قدر الله سبب كل الصعوبات والأمراض، والاستسلام لقدره مفتاح السلام والسكينة".
بدت كلمات الشيخ صحيحة لضياء، وعلى الرغم من عدم إدراكه ذلك، إلا أن ضياء كان يقاوم قدر الله. فهو لم يرغب أن يقبل وفاة نيلوفر، لكن من ناحية أخرى لم يكن بمقدوره فعل شيء لتغيير ذلك، وقد حصر نفسه في موضوع وفاتها، غير قادرٍ على المضي قدماً في الحياة.
كانت كلمات حسنو بابا موجهة إلى ضياء، لكن جميلة عدّت أنها تخصها أيضاً. ألم تكن تكافح ضد مسيرة الحياة في علاقتها بكامل؟ ألم تحاول أن تجمّد السنوات الجيدة من زواجهما في الزمن؟ لم تسفر جهودها إلا عن الألم والتعاسة. أصبحت أكثر يقيناً آنذاك من أنها قد اتخذت القرار الصائب بالانفصال عن كامل. كان الاستمرار في علاقة لا تحكمها الثقة والاحترام سيعني فقط مزيداً من الأسى لجميلة.
قاطع قرع على الباب الزيارةَ القصيرة، وتبين أن الحجّاج الأوزبك يسألون عن حسنو بابا لأداء صلاة بعد نهاية الوجبة. استأذنت جميلة وضياء بالانصراف، ووعدا أن يعودا قريباً. وعندما غادرا بيت الدرويش، أدركت جميلة أن قلب ضياء ينعم بالسكينة آنذاك، فقد انعكس ذلك على وجهه.
تابعت جميلة وضياء زياراتهما إلى بيت الدرويش بانتظام. وقد ألقى حسنو بابا خطبة كل أصيل جمعة، وحرصت جميلة وضياء على عدم تفويت ذلك. كانت كلمات حسنو بابا الحكيمة مثل مرهم لقلبي جميلة وضياء الجريحين، وبدا أن الشيخ طبيب أرواح حقاً. ونتيجة الأفكار التي كسباها من أحاديث حسنو بابا، استطاعت جميلة وضياء أن ينظرا إلى الحياة بمنظار جديد؛ من وجهة نظر كونية.
لم تعد جميلة ترى زواجها مركزاً لعالمها كما فعلت لسنوات طويلة، بل أضحى قدر الله آنذاك محور اهتمامها، وانصبّت كل جهودها على محاولة اكتشاف دورها في ذلك المصير وفهمه.
اتخذت حياة جميلة اتجاهاً ومعنى جديدين، وأصبحت أكثر نشاطاً في مساعدة آخرين أقل حظاً منها. كانت قد ورثت عدّة متاجر ومزرعة عن والديها، إضافة إلى منزلهما وأملاك أخرى، فأنشأت وقفاً للأيتام، وبدأت تستخدم الدخل من أملاكها لتغطية مصاريف تعليم أيتام فقراء. منحت

الابتسامات على وجوه هؤلاء الأولاد جميلة شعوراً رائعاً بالرضا، وجاءت مع تقديمها هباتٍ لآخرين من دون توقّع أي شيء بالمقابل - باستثناء رضا الله - مكافأته الخاصة. عمل ضياء أيضاً في نشاطات الوقف، ونتيجة جهوده اتسع نطاق برنامج الأيتام عدّة أضعاف. كانت مساعدة الآخرين هي الدواء الذي يحتاجان إليه لمداواة قلبيهما.

أضحت الحياة ذات مغزى ومرضية مجدداً، والشيء الوحيد المفقود أمٌّ لقدرية التي بلغت من العمر آنذاك سنتين ونصف السنة. كانت جميلة قد فتحت الموضوع مرة، لكن كل ما قاله ضياء هو "ربما في وقت ما". وعلى الرغم من افتقار ضياء إلى أي اهتمام بالزواج مجدداً، إلا أن جميلة أبقت عينها مفتوحة بحثاً عن مرشحات محتملات، لكن أياً من الشابات اللواتي تعرفهن لم تبدُ مناسبة كفاية له. كان قد تعرض لمحنة قاسية ولن يكون العثور على شابة يمكن أن تفهم وتقدّر حقاً ما عاناه سهلاً.

تابعت جميلة وضياء حضور جلسات حسنو بابا كل جمعة، وأصغت جميلة إلى خُطبه من خلف شرفة مزوّدة بستار خشبي تطل على القاعة الرئيسة مع باقي النساء. ونظراً إلى الازدحام الشديد في المكان عادة، كانت جميلة تحب أن تأتي باكراً حتى تستطيع الجلوس قرب المقدمة لتسمع الكلام بوضوح. وفي أصيل جمعة قبل أن يصبح المكان مزدحماً، لاحظت جميلة شابة لم ترها من قبل، وبدا أن هناك شيئاً خاصاً بشأنها، وبعد إلقاء نظرة متفحصة أخرى، أدركت جميلة أن الذي جذبها إليها هو إشراقة وجهها. امتلأت الشرفة بسرعة، وكانت الخُطبة على وشك أن تبدأ، لذا قررت جميلة أن تعرّف الشابةَ بنفسها بعد انتهاء كلام الشيخ.

تكلم حسنو بابا عن موضوع الإنسان الكامل ، قائلاً إن الوصول إلى مرحلة الإنسان المثالي هدفُ رحلته في الحياة، وتحدّث عن طريق الوصول إلى هذه الغاية. قال إن الأمر كله يتعلق بالتوازن بين القلب والعقل، فعندما يسيطر العقل على عالم الشخص الداخلي، يمكن أن يبرر أي عمل فيصبح المرء قاسياً وعدائياً. من ناحية أخرى، عندما يسيطر القلب، يصبح المرء رقيقاً وخانعاً تماماً. لكن عندما يصبح القلب والعقل متوازنين، يمنع القلب الجور في حين يمنع العقل التذلل، وبذلك تسود العدالة. تابع حسنو بابا القول إن مثالاً آخر على التوازن بين القلب والعقل هو الحب والحكمة. من دون حكمة، يكون الحب دائماً أعمى. لكن عندما يتوازن الحب مع الحكمة، لا نؤذي الآخرين ولا نسمح لآخرين أن يؤذونا، وتسود العدالة مجدداً.

أصغت جميلة إلى كلمات حسنو بابا بحرص، وعندما طبّقت هذه الحقائق على حياتها، أدركت أنها لم تحب بحكمة. لقد أحبّت "كامل" على نحو أعمى، فسبّب لها ألماً كبيراً في النهاية، وتمنّت أن تكون قد عرفت تلك الحقائق في وقت سابق. لكن، من ناحية أخرى، كانت شاكرة لمعرفتها في ذلك الوقت، فبعض الناس لا يتعلّمونها أبداً.

عندما انتهى حديث حسنو بابا، نظرت جميلة حولها لترى إن كان بمقدورها أن تعثر على الشابة التي رأتها سابقاً. شقت طريقها بصعوبة عبر الحشد إلى المكان الذي شاهدت الشابة تجلس فيه، لكن خاب أمل جميلة، إذ كانت قد غادرت.

بدأت نشاطات جميلة المتعلقة بالأيتام تستنفد مزيداً من وقتها، وأرادت أن تفعل كل ما بوسعها لتساعد أشخاصاً آخرين في باقي حياتها. كانت جميلة قد أقنعت عدداً كبيراً من صديقاتها بالعمل في المشروع، وبدأ عدد الأيتام الذين يمكن مساعدتهم يزداد بسرعة. وكالمعتاد، أثبتت رابية أنها أكثر الشخصيات اجتهاداً بين كل المتطوعات، وتقيم دائماً حفلات كبيرة في منزلها لنساءٍ من النخبة العثمانية اللواتي يقدّمن تبرعات إلى الوقف. كانت رابية منظّمة ممتازة، ولم تقدم طعاماً فاخراً شهياً فقط، لكنها رتّبت برامج موسيقية للنساء أيضاً، ونتيجة ذلك أضحت ولائمها مشهورة جداً.

كانت رابية تقيم وليمة أخرى ذلك اليوم، لكن لسوء الحظ تأخرت جميلة عنها، فقد فقدت الإحساس بالوقت في أثناء اللعب مع قدرية، وسيكون عليها أن تسرع. اندفعت جميلة إلى عربتها، وطلبت من السائق أن ينقلها إلى منزل رابية خانم في كانليكا في أسرع وقت ممكن. عندما وصلت جميلة إلى هناك، اندفعت إلى داخل القصر، وفي أثناء صعودها على السلالم سمعت صوت موسيقى، وعرفت أن البرنامج قد بدأ.

كانت القاعة الكبيرة مليئة بالنساء، لذا جلست جميلة في الجزء الخلفي من القاعة بجانب الباب. لم تستطع رؤية الفتاة التي تعزف على البيانو، لكن الموسيقى بدت رائعة، ولم تسمع جميلة قط أحداً يعزف على البيانو بمثل ذلك الإحساس والجمال. بدا أن عازفة البيانو تضرب أوتاراً في روح جميلة، ولم تخرج همسة من أحد، وابتهج الجميع بصوت الموسيقى الذي يسلب الألباب. عندما انتهى العزف، وقفت كل النساء وصفقن وقتاً طويلاً. كانت عينا جميلة تبحثان عن رابية، وعندما شقّت طريقها عبر الحشد رأت صديقتها تقف بجانب البيانو، وأشارت رابية إلى جميلة أن تأتي إليها.

عندما وصلت جميلة إلى حيث تقف صديقتها، قالت رابية إنها تريد أن

تعرّف جميلة إلى عازفة البيانو. نهضت الشابة واستدارت نحو جميلة.
قالت رابية: "جميلة، أريدك أن تتعرّفي بعازفة البيانو البارعة جداً، ديدنور خانم".
دُهشت جميلة، ولم تعرف ماذا تقول.كانت عازفة البيانو هي الشابة التي رأتها في التكيّة...
بعد أن حدّقت إلى ديدنور بذهول، ردّت جميلة: "أوه... اعذريني... أنا سعيدة جداً بلقائك. موسيقاك رائعة".
ردّت ديدنور: "إنه لطف كبير منك. أنا سعيدة جداً لأن الموسيقى أعجبتك".
أحاطت بديدنور نساء يهنئنها على أدائها، وتحرّك معظم الحشد نحوها.
أشارت جميلة إلى رابية أن تتبعها إلى الغرفة المجاورة.
قالت جميلة بإثارة: "رابية، من هي ديدنور خانم؟ ماذا تعرفين عنها؟ كيف عثرت عليها؟ أخبريني كل شيء".
ابتسمت رابية من حماسة جميلة، وفهمت أن أسئلة صديقتها تنطوي على أكثر من الإعجاب بالموسيقى.
"التقيتها في قصر الأميرة عليا. يبدو أنها تعيش هناك منذ بعض الوقت. إنها سرايلي عملت في خدمة الأميرة عليا حين كانت الأميرة صغيرة. تزوجت ديدنور خانم سابقاً من عقيد في الجيش، لكنهما انفصلا قبل عدّة سنوات. عندما سمعت عزفها على البيانو، فتنني ذلك، لذا دعوتها فوراً إلى هنا".
سألت جميلة: "هل لديها أي أولاد من زواجها الأول؟".
استفسرت رابية: "ليس على حد علمي يا أختي العزيزة. لكن، لماذا تسألين؟".
"لست واثقة، لكن عندما رأيتها أول مرة شعرت أن هناك شيئاً خاصاً بشأنها. اليوم، بعد أن استمعت إلى عزفها، أضحى شعوري أقوى. ما رأيك يا رابية؟".
ردّت رابية: "أنت محقة يا جميلة. إنها تتألق بهاءً، ويمكن رؤية ذلك في وجهها، والإحساس به في موسيقاها...".
قاطع حديثهما دخول عدد من النساء الغرفة. كان ذلك وقت تناول الطعام، لذا ينبغي على كلٍّ من رابية وجميلة أن تعتنيا بالضيفات. أمرت رابية خادماتها أن يحضّرن صواني الوليمة في أسرع وقت ممكن، وسرعان ما حوّلت الخادمات الخبيرات والماهرات ما كان قاعة حفل موسيقي سابقاً إلى غرفة طعام أنيقة. بعد أن جلست كل الضيفات براحة، أمرت رابية بإحضار الطعام، وتبع طبق شهي آخر بفارق زمني قصير.

بعد أن أكلت كل النساء ملء بطونهن ورفعت الخادمات الطبق الأخير، بدأت خدمة القهوة. عندما كانت الضيفات يرتشفن قهوتهن، شكرت رابية الجميع على المجيء، وقدّمت جميلة لتلقي خطاباً قصيراً. بدأت جميلة تخبر النساء عن وقف الأيتام والعمل الذي يؤديه.

قالت جميلة: "بمساندتكن نما عمل الوقف بسرعة فائقة. بدأنا بتقديم مصاريف التعليم لعشرة أيتام، لكننا الآن على وشك بناء منشأة دائمة ستتسع لخمسين يتيماً. الأرض جاهزة، وقد أنهى ابني التصميم الهندسي للمبنى. إذا حصلنا على دعمكن المتواصل، يمكن أن نبدأ بالبناء قريباً.كما نعرف جميعاً، دعم الأيتام عمل يستحق الثناء، وأود أن أشكر سلفاً كرمكن ولطفكن".

وُضعت سلتان كبيرتان عند باب القاعة حين غادرت الضيفات من أجل التبرّعات. وفي نهاية اليوم، امتلأت كلتاهما بقطع نقدية ذهبية.

انتظرت جميلة عودة ضياء ذلك المساء بترقّب؛ لأن لديها بعض الأشياء المهمة لتناقشها معه. كانت في حجرة الطفلة تلعب مع قدرية حين وصل ضياء، وفهم من الابتسامة الواسعة على وجه والدته أنها قد أمضت يوماً رائعاً. قبّل ضياء جبين قدرية، واستدار إلى والدته:

سأل ضياء: "أمي العزيزة، هل تخبرني ابتسامتك أن بمقدورنا أن نبدأ فوراً ببناء الميتم؟".

ردّت جميلة: "فعلاً، يمكننا هذا. الحمد لله، جرت الوليمة كما نريد، وأسهمت النساء بسخاء يا بني. يمكن أن تبدأ فوراً".

علّق ضياء: "أنا فخور بك يا آن. كان هذا الميتم مجرد حلم قبل سنة".

"نعم يا ضياء، كان مجرد حلم. لكن المهم هنا ليس القدرة على الحلم، وإنما الحلم بما يرضي الله، ثم سيصبح كل شيء سهلاً؛ أسهل مما قد يتخيل المرء".

قال ضياء مبتسماً: "كيف يمكن أن أشك في هذا يا أمي العزيزة؟ أنا أرى حلمك يتحقق أمام عيني".

تابعت جميلة: "ضياء، لقد حدث شيء آخر اليوم. عندما وصلت إلى منزل رابية، كان الحفل الموسيقي قد بدأ آنذاك. كانت أجمل موسيقى سمعتها، وفتنتني حقاً. بعد انتهاء الحفل، عرّفتني رابية بعازفة البيانو، ديدنور خانم. لدهشي، كانت الشابة التي ذكرت لك أنني رأيتها في التكية. عرفت من اللحظة التي رأيتها فيها أول مرة أن هناك شيئاً خاصاً بشأنها، واليوم تأكد انطباعي الأول تماماً. تتميز بهالة ضوء جميلة، ويمكنني رؤية ذلك في وجهها

أيضاً ضياء، أريد أن تلتقيها".
ردَّ ضياء غير مبالٍ: "آن، أنا واثق أنها شخص رائع جداً، لكنك تعرفين أنني لا أبحث عن زوجة".
أصرّت جميلة: "ضياء، ربما أنت لا تبحث عن زوجة، لكن يجب أن تبحث عن أمٍّ لقدرية. إنها تحتاج أماً يا بني. أرجو أن تلتقي ديدنور من أجل قدرية على الأقل".
نظر ضياء إلى قدرية التي كانت تهز دمية بين ذراعيها، وعرف أن والدته محقة.
قال ضياء: "لا بأس يا أمي، لكنني لا أوافق إلا على لقائها فقط".
ابتهجت جميلة، فقد كانت واثقة أن ضياء سينتابه الشعور نفسه الذي خالجها حين التقت ديدنور خانم.
ذهبت جميلة في اليوم التالي إلى التكية لاستشارة حسنو بابا. فتحت موضوع زواج ضياء وديدنور خانم، ووافق حسنو بابا، واقترح أن يلتقيا في مكتبه في التكيّة قبل خُطبة أصيل الجمعة.
في طريقها إلى المنزل، توقفت جميلة لترى رابية، وأخبرتها عن حديثها مع ضياء وحسنو بابا. طلبت جميلة من رابية زيارة ديدنور خانم وترتيب لقاء مع ضياء في التكيّة يوم الجمعة. قالت رابية إن ذلك يسعدها، وأرسلت فوراً خادمة إلى ديدنور خانم لتبلغها أنها تود زيارتها، إن كان مناسباً، بعد ظهيرة ذلك اليوم. ردّت ديدنور أنها ستكون مسرورة باستقبال رابية خانم.
شعرت رابية بسعادة غامرة للقيام بدور فاعل في جمع ديدنور وضياء.كانت أفضل صديقاتها، جميلة، قد عانت كثيراً في السنوات القليلة الماضية: أولاً، خسرت والديها المحبوبين بسبب وباء الكوليرا، ثم كَنّتها، وترافقت تلك الخسائر مع طلاقها من كامل أفندي. كانت رابية تأمل أن يتغير حظ جميلة...
عندما وصلت رابية بعد ظهر ذلك اليوم إلى قصر الأميرة عليا، اصطُحبت إلى غرفة جلوس حيث كانت ديدنور تعزف على البيانو. نهضت ديدنور من على كرسي البيانو ورحّبت برابية.
قالت رابية: "لا أريد أن أقاطع عزفك".
ردّت ديدنور: "لا، إطلاقاً. كنت أمضي الوقت فقط في عزف البيانو حتى وصولك".
قرعت خادمة على الباب ودخلت الغرفة وهي تحمل قهوة وحلويات. عندما غادرت، أفصحت رابية عن هدف زيارتها، وشرحت ظروف السنوات

القليلة الماضية: زواج ضياء، ووفاة نيلوفر، وولادة قدرية... ذكرت أيضاً رغبة جميلة القوية في وجود أمٍّ صالحة لقدرية.
قالت رابية: "تركتِ انطباعاً إيجابياً جداً على جميلة خانم. وهي تود كثيراً أن تلتقي ابنها ضياء، في التكيّة. أيضاً، حظينا بموافقة حسنو بابا. ما رأيك؟".
ردّت ديدنور: "لا أعرف. بعد محنة زواجي الأول، أنا مترددة في الزواج مجدداً".
تابعت رابية: "أفهم هذا، لكن الرجال مختلفون. لقد عرفتُ ضياء بيك طوال حياته، ويمكن أن تطمئني إلى أنه شخص فاضل ومنفتح الذهن".
ردّت ديدنور بتهذيب: "لا أعرف ما أقوله. دعيني أفكر في الأمر بضعة أيام".
وافقت رابية واستأذنت بالانصراف.
فكّرت ديدنور بإمعان في فكرة الزواج مجدداً، خاصة من أرمل آخر. على الرغم من أنه كان شائعاً في المجتمع العثماني أن يتزوج كل من النساء والرجال مجدداً بعد الطلاق أو وفاة أزواجهم، إلا أن ديدنور لم تكن واثقة بذلك. ماذا إن كان ضياء بيك، مثل العقيد داوود، متعلقاً بذكرى زوجته السابقة؟ ماذا إن كان لا يزال يحب نيلوفر؟
كانت ديدنور قد تلقّت في السنوات القليلة الماضية عدّة عروض زواج، لكنها رفضتها كلها بتهذيب، وقد دفعت فكرة الزواج مجدداً إلى أعماق تفكيرها، وكتمت حتى رغبة قوية في إنجاب الأطفال. كان التركيز على عزف البيانو أكثر أماناً.
كانت ديدنور لا تزال مترددة صباح الجمعة، لذا ظنّت أنها ستكون فكرة سديدة أن تستشير الأميرة عليا. وبعد أن شرحت ديدنور الظروف، سألت الأميرة عليا عن رأيها.
"ديدنور، أفهم مخاوفك التي تتعلق بالزواج مجدداً. لكن، ليس عليك أن تتخذي ذلك القرار بعد. اذهبي فقط للقاء ضياء بيك، وإذا لم ترغبي بالمضي قدماً بعد لقائه، فذلك امتياز لك. ونظراً إلى أن حسنو بابا يوافق على هذا اللقاء، أظن أنك يجب أن تذهبي".
بتردد، وافقت ديدنور على لقاء ضياء، وأرسلت نبأ إلى رابية خانم أنها ستلتقي ضياء بيك في مكتب حسنو بابا قبل الخُطبة.
ذهبت جميلة وضياء بعد الظهر إلى التكيّة باكراً كالمعتاد. جلست جميلة في مكانها المعتاد قرب مقدمة الشرفة في الطابق الأعلى، في حين انتظر

ضياء في مكتب الشيخ للقاء ديدنور خانم. قبل مرور وقت طويل، دخل حسنو بابا الغرفة تتبعه ديدنور، وطلب من كليهما أن يجلسا، ثم جلس الشيخ أيضاً.

بعد تعريف ديدنور بضياء، سأل حسنو بابا عن صحتهما وحالهما عموماً، وعن قدرية خاصة. سأل بعد ذلك ديدنور عن تدريس البيانو وامتدحها لبراعتها الموسيقية. بعد ذلك، تكلم مطولاً مع ضياء عن مشروع الميتم، وناقش حتى تفاصيل معمارية عديدة، وأثنى حسنو بابا أيضاً على ذلك المشروع وقال إنه مستعد لدعمه بأي طريقة يستطيعها. شكر ضياء حسنو بابا وقال بصدق:

"بابا، سيكون دعاؤك أفضل مساعدة ممكنة".

كان وقت الخُطبة يقترب وحسنو بابا يستعد لمغادرة الغرفة. لم ترغب ديدنور أن تقترف الغلطة نفسها التي ارتكبتها مع داوود، وقررت أن تنظر إلى عيني ضياء لتحاول أن تعرف إن كان لا يزال حزيناً على زوجته السابقة. رفعت ديدنور رأسها بخجل ونظرت نحو وجه ضياء، ورأت أنه ينظر إلى وجهها أيضاً. التقت عيونهما وثبتت لحظة، وعرفت ديدنور أن ضياء يراها وحدها ولا أحد سواها.

بعد توديعهما بعضهما، تبعت ديدنور وضياء حسنو بابا إلى خارج المكتب. ذهب ضياء ليجلس مع الحشد الذكور، وصعدت ديدنور إلى الطابق الأعلى إلى شرفة النساء. أرادت ديدنور أن تعبّر عن احترامها لجميلة خانم، لكن المكان كان مزدحماً جداً.

واصل ذهن ديدنور شروده في أثناء خُطبة حسنو بابا، وكانت تفكّر في اللقاء الذي حضرته آنذاك. هل يجب أن تسمح لنفسها بالتفكير في الزواج مجدداً إن أظهر ضياء بيك اهتماماً بها؟ هل يمكن أن تقدم على مثل تلك المخاطرة؟ كانت تلك أول مرة تطرح فيها على نفسها تلك الأسئلة منذ طلاقها من العقيد. كان ذهن ديدنور مرتبكاً، لكن قلبها بدأ يخفق.

في الأسفل، كان ذهن ضياء بعيداً أيضاً عن خُطبة حسنو بابا. بعد وفاة نيلوفر، لم يكن ضياء قد نظر عن كثب إلى أي امرأة غريبة حتى اليوم. عندما نظر إلى وجه ديدنور، شاهد الضوء الذي كانت والدته واثقة أنه يشع منها. رأى ضوءاً خافتاً في وجهها، ربما انعكاساً لطهارة الروح عبر الألم، وشعر ضياء برابطة مشتركة مع ديدنور.

بعد انتهاء خُطبة الشيخ، تبادلت جميلة خانم وديدنور التحيّات. حاولت جميلة أن تعرف كيف سار اللقاء مع ضياء من النظرة على وجه ديدنور،

لكنها لم تر أي إشارة، وعرفت أنه سيكون عليها أن تنتظر وتسأل ابنها. استفسرت جميلة من ضياء في الطريق إلى المنزل عن لقائه بديدنور، ولسعادتها أكّد ضياء أيضاً أنه قد رأى إشراقاً في وجه ديدنور. قال، على كل حال، إنه يحتاج إلى بعض الوقت ليفكّر في الموضوع قبل أن يُقدم على أي خطوة أخرى، ولم يكن واثقاً بما ينبغي فعله. لم ترغب جميلة أن تضغط على ضياء، لذا قرّرت أن تنحّي الموضوع جانباً حتى يصبح مستعداً لمزيد من النقاش.

الفصل العاشر

بعد ثلاثة أيام من لقاء ضياء ديدنور في مكتب حسنو بابا، دخل ضياء حجرة ابنته حين كانت جميلة تلعب مع قدرية.

قال: "أمي، كنت أحاول في الأيام القليلة الماضية ترتيب حياتي. لقد سألت نفسي إن كنت مستعداً حقاً لتجاوز وفاة نيلوفر أم لا. إذا لم أستطع، فستكون قسوة مني فعلاً أن أدع ديدنور خانم تدخل حياتي. لقد بحثت في روحي بأقصى استطاعتي، وقد طلبت الهداية من الله، وآمل أن أكون قد توصلت إلى القرار الصائب".

سألت جميلة بترقّب: "وما ذلك القرار؟".

ردَّ ضياء: "لقد قررت أن أطلب يد ديدنور خانم للزواج. أمي العزيزة، هل تظنين أنها ستوافق؟".

قالت جميلة: "آه يا ضياء، أظن حقاً أنك قد اتخذت القرار الصائب. لا يسعنا إلا أن نأمل أن تتخذ ديدنور خانم القرار المناسب أيضاً".

ذهبت جميلة في اليوم التالي لترى رابية، وأخبرتها عن قرار ضياء، وطلبت منها أن تزور ديدنور خانم وتعلم إن كانت تقبل عرض الزواج أم لا. قالت رابية إنها ستكون سعيدة للقيام بذلك.

زارت رابية بعد ظهر ذلك اليوم ديدنور، وبعد تبادل مجاملات مهذبة، قالت رابية:

"ديدنور خانم، لقد أبلغتني والدة ضياء بيك أنه ردَّ إيجابياً على لقائكما الجمعة الماضية في التكيّة. آمل أن يكون ضياء بيك قد ترك انطباعاً جيداً لديك أيضاً".

ردّت ديدنور: "لم يكن إلا انطباعاً أولياً بالطبع، لكنه كان جيداً".

سألت رابية: "وهل يعني هذا أنكِ ستفكرين في عرض زواج منه؟".

ردّت ديدنور: "لست واثقة إن كنت مستعدة لاتخاذ القرار بعد. لأكون صادقة، بعد زواجي الأول الفاشل، أجد صعوبة في الوثوق بحكمي مجدداً".

اقترحت رابية في محاولة لمساعدتها: "ربما يجب أن تؤدي صلاة الاستخارة . ما رأيك؟".

ردّت ديدنور: "نعم، لقد فكّرت في ذلك. ربما ستمنحني صلاة الاستخارة إشارة واضحة".

شعرت رابية بالسعادة؛ لأن ديدنور خانم كانت منفتحة على الأقل للتفكير في عرض الزواج، وطلبت إذناً بالانصراف.

قررت ديدنور القيام بالصلاة الخاصة مساء الخميس. وبعد تأدية صلاة

الاستخارة ، طلبت الهداية من الله في ما يتعلق بالزواج من ضياء بيك ثم أوت إلى السرير.

حلمت ديدنور تلك الليلة أنها قد عادت إلى وطنها شركسيا. كان يوماً صحواً ومشمساً، وكانت تقف وحيدة في مرج أخضر يمتد نحو الأفق على امتداد البصر. عندما كانت تقطف بعض الورود، رأت حصاناً بعيداً، بدأ يجري نحوها، وعندما توقف أمامها، رأت ديدنور نجماً كبيراً على جبين الحصان. سألت ديدنور مذهولة: "نجم، هل هذا أنت؟". كان "نجم"! بعد أن عانقته من رقبته، امتطت ديدنور الحصان وانطلقا خبباً. ازدادت سرعتهما شيئاً فشيئاً، وارتفعت قوائم نجم عن الأرض وبدأا يحلّقان في الجو. ارتفعا كثيراً حتى هبطا وسط ساحة كبيرة مليئة بالناس، وبدا أن الجميع يحتفلون. كانت كل النساء يرتدين ثياباً جميلة لم تر ديدنور لها مثيلاً من قبل، وبدت الفساتين تلمع بألوان مختلفة؛ كأنها مضاءة من الداخل. كان شبان يمرّرون لبعضهم بعضاً أكواباً كبيرة من شراب العسل الذي يتدفق على نحو طبيعي من ينابيع في سفوح التلال. عندما نظرت ديدنور إلى الأسفل، رأت أنها هي أيضاً ترتدي أحد تلك الفساتين اللامعة، لكن ثوبها مختلف قليلاً، وبدا أنه مصنوع من كريستال. عندما جالت في أرجاء الساحة على متن نجم، صفّق الجميع وأمطروها وروداً.

استيقظت ديدنور عند الفجر، وتذكرت حلمها بوضوح فسرت رعشة إثارة في جسدها. كان الحلم رائعاً حقاً، ولم تعرف ديدنور المكان الذي ذهبت إليه. كانت الثياب أكثر جمالاً من أي شيء قد رأته في هذا العالم، وعطر الورود شذياً. ونجم... كان نجم رائعاً. بدا واضحاً تماماً لديدنور أن حلمها يبشّر بالخير.

كان ذلك يوم الجمعة، يوم خُطبة حسنو بابا. ذهبت ديدنور إلى التكيّة باكراً؛ لأنها أرادت أن تقص حلمها على الشيخ، وبعد وصف ما رأته، أكّد حسنو بابا ما كانت ديدنور تعرفه آنذاك في قلبها:

قال الشيخ: " ابنتي العزيزة ديدنور، زواجك من ضياء بيك لقاء روحين في السماء".

شعرت ديدنور بإثارة كبيرة جعلتها لا تعرف ماذا تفعل. شكرت حسنو بابا، وطلبت الإذن بالانصراف. عندما كانت تصعد على السلالم، التقت رابية خانم.

قالت رابية: "ديدنور خانم، لقد كنت أبحث عنك. أردت أن أسأل إن كنت قد أدّيت صلاة الاستخارة ".

ردّت ديدنور: "نعم، لقد سردت حلمي للتو على حسنو بابا".
سألت رابية بحذر: "وماذا قال؟".
أجابت ديدنور مبتسمة: "قال إنه لقاء روحين في السماء".
سألت رابية بإثارة: "إذاً، يمكن أن نأتي مع ضياء بيك لطلب يدك للزواج؟".
ردّت ديدنور: "نعم، سيشرّفني ذلك. سيكون مساء الخميس القادم موعداً مناسباً".
بعد الافتراق عن ديدنور، أسرعت رابية لتزفَّ النبأ السعيد إلى جميلة وضياء.
بدا الأسبوع التالي حافلاً بالنشاط لضياء. كان قد فكّر بإمعان في موضوع الزواج مجدداً بعد وفاة نيلوفر. لكن، عندما عقد العزم بشأن خطبة ديدنور، أصبح تواقاً إلى العمل. على كل حال، لم يكن لديه خيار إلا انتظار مساء الخميس.
أرادت جميلة أن ترى ديدنور خانم قدرية قبل مساء الخميس، لذا دعتها لتناول الشاي بعد ظهر الاثنين. عندما وصلت ديدنور، اصطحبتها جميلة إلى الغرفة التي تلعب فيها قدرية مع مربّيتها.
راقبت ديدنور بإمعان قدرية وهي تلعب، وقبل مرور وقت طويل تعبت قدرية ووضعت رأسها، على نحو غير متوقع، في حجر ديدنور. أمسكت الشابة الفتاة الصغيرة بين ذراعيها وحملتها في أثناء نومها، وطفا شعور الأمومة الذي كانت ديدنور قد كبتته سنوات عديدة إلى السطح مرة أخرى، فقد وجدت طفلة واحدة على الأقل يمكن أن تدعوها ابنتها.
راقبت جميلة موقف ديدنور الحنون نحو قدرية، وابتسمت لنفسها. لقد علمت ما أرادت أن تعرفه: ستكون ديدنور خانم أماً لطيفة ومُحبّة...
ذهب ضياء وجميلة مساء الخميس إلى قصر الأميرة عليا، وطلب ضياء يد ديدنور للزواج فوافقت. ونتيجة إصرار ضياء، حدّدوا موعد مراسم الزفاف الرسمي بعد أسبوع، وكان سيقام في قصر الأميرة عليا. اتفقوا في ذلك المساء أيضاً على مقدار المهر ونفقات المعيشة التي ستُدفع إلى ديدنور.
علّق ضياء لجميلة في طريقهما إلى المنزل: "أمي العزيزة، قبل ثلاثة أسابيع فقط لم أكن قد سمعت حتى بديدنور خانم، والآن أنا أخطط للزواج منها. أليست الحياة مدهشة؟".
ردّت جميلة: "ضياء، عندما تقبل بقدر الله، يصبح كل شيء مدهشاً، ويحدث كل شيء بسهولة".
ذهبت جميلة وضياء ورابية بعد أسبوع إلى قصر الأميرة عليا بعد ظهر

الخميس.
عندما اقتربوا من القصر، رأت جميلة كامل أفندي يدخل من الباب، وبدا أنه قد كبر كثيراً منذ رأته آخر مرة. كانت الأميرة عصمت - الأخت المفضّلة لدى السلطان - قد توفيت في السنة الماضية بذات الرئة. وعندما عيّن السلطان أخيراً كبير أطباء جديداً، لم يحظ كامل بالمنصب مجدداً.لم يعد يحدو كامل أي أمل في تلك الترقية، وأصبح شخصاً مفطور الفؤاد.
عندما دخلت جميلة ورابية الحرملك، استقبلتهما ديدنور والأميرة عليا وسرفتسزا. وكما شاطرت تانك المرأتان ديدنور أحزانها وأوقاتها العصيبة، كانت ستشتركان آنذاك في فرح تلك المناسبة، وسيكون زوجا الأميرة عليا وسرفتسزا شاهدين على الزواج.
بعد مراسم بسيطة، بدأت وليمة الزفاف، وأكل الرجال والنساء منفصلين إلى طاولات طعام أنيقة. بدت ديدنور فاتنة في عباءة حريرية رقيقة زرقاء فاتحة أهدتها إياها الأميرة عليا. وبعد العشاء قدّمت لها جميلة قلادة من ماس وياقوت أصفر، وقد أُرسل إليها سابقاً خاتم ماسيّ.
بعد إصرار الأميرة عليا، عزفت ديدنور عدّة مقطوعات موسيقية على البيانو. وعند انتهاء العزف، علّقت سرفتسزا:
"ضياء بيك محظوظ جداً فعلاً. فهو لا يحظى بزوجة رائعة فقط، وإنما بعازفة بيانو بارعة أيضاً".
ابتسمت كل النساء، وردّت جميلة: "يمكن أن تطمئني أن كل مواهب ديدنور خانم ستُقدّر جيداً".
علّقت الأميرة عليا: "ديدنور وسرفتسزا مثل أختين لي. ترعرعنا معاً في القصر، ولديّ ذكريات جميلة عديدة من تلك الأيام. كنت محظوظة أيضاً بصحبة ديدنور المتواصلة في أثناء السنوات الأربع الأخيرة، ويجب أن أعترف أنني سأفتقدها كثيراً".
ردّت ديدنور: "يا أميرتي، لقد قدّمت لي ملاذاً آمناً في وقت الحاجة، وسأبقى شاكرة لك إلى الأبد".
بعد أن انتهت النساء من تناول قهوتهن، استدعت الأميرة عليا بعض الراقصات والموسيقيات للترفيه عن الضيفات. كانت أمسية لا تُنسى للجميع.
عندما انتهى الترفيه، طلبت جميلة والضيفات الأخريات إذناً بالانصراف، ومنحتهن الأميرة عليا ذلك بتردد. كانت هناك عربات تنتظر في الخارج لتقل جميع النساء إلى منازلهن.
عندما دخلت ديدنور منزلها الجديد في بلربي، كانت مفاجأة بانتظارها في

قاعة استقبال الحرملك، ودُهشت لرؤية بيانو ستاينواي جديد.
سأل ضياء ديدنور: "سمعت كثيراً عن موهبتك الموسيقية. ألن تعزفي لي؟".
ردّت ديدنور: "كما ترغب". جلست إلى البيانو وبدأت تعزف. لم يعد البيانو وسيلة للتعبير عن حزنها ومحنتها، وعكست موسيقاها تلك الليلة الأملَ الجديد في قلبها.
قال ضياء، وهو يظن أن موسيقى ديدنور تعبّر بالتأكيد عن روحها المتناغمة: "الجميع محقون، موسيقاك رائعة حقاً".
بعد أن ألقى ضياء وديدنور تحية المساء على جميلة، ذهبا إلى جناحهما. شعرت ديدنور ببعض التوتر، ولم يسعها إلا أن تتذكر خيبة الأمل والرفض اللذين شعرت بهما في الليلة الأولى من زواجها من داوود.
أحس ضياء بارتباك ديدنور، فأمسك بها بين ذراعيه، ونظر إلى عينيها وقال: "ديدنور، أنت زوجتي الآن وتستأثرين بحبي. ليس هناك أحد آخر يقف بيننا، وحبنا الوليد سينمو ويزدهر باعتنائنا به".
فطرياً، وثقت ديدنور بضياء...
لم تكن ثقتها في غير محلها، فقد تولّى ضياء زمام المبادرة في رعاية حبهما. كان حبيباً لطيفاً ومجاملاً، وزوجاً متفانياً ومسؤولاً، وصديقاً وشريكاً مخلصاً ومهتماً. استجابت ديدنور له بودّ، فقد وجدت في ضياء رجلاً يمكن أن تحبه وتثق به وتحترمه حقاً، وبذلت قصارى جهدها لإظهار تقديرها له.
كانت جميلة كل ما ليست عليه والدة العقيد؛ فهي لطيفة، ودمثة، وداعمة، وتحترم الآخرين. قبلت بصدقٍ ديدنور ابنة لها، وامتدحتها دائماً على علاقتها بقدرية.
كانت ديدنور أماً حنوناً بطبعها، لكن فقدان قدرية والدتها في أثناء ولادتها جعل ديدنور أكثر حساسية لحاجات الفتاة الصغيرة. بدت ديدنور عاقدة العزم على بذل قصارى جهدها من أجل قدرية.
بمرور الوقت تلاشت تحفّظات ديدنور السابقة بشأن إنجاب طفل. وشعرت بالأمان والطمأنينة في حب ضياء، وأرادت أن تُرزق بأولاد أكثر من أي وقت مضى. لم ينقضِ وقت طويل قبل أن تتحقق رغبتها. وبعد سنة من زواجهما، أنجبت ديدنور توأماً.
كانت سعادة ديدنور لا حدود لها، مع وجود طفل على كل ذراع وقدرية في حجرها. تذكّرت كلمات الغريب الذي أطعمها يخنة ساخنة حين كانت في الأسر: "لا تخافي أيتها الصغيرة، فقد قامت كثيرات بهذه الرحلة قبلك. وإن شاء الله ستكون حياتك أفضل مما قد حلمت به يوماً...". كان محقاً،

ولم يكن بمقدور ديدنور أن تتخيل هذه النعمة؛ فلديها زوج متفانٍ، وحماة تدعمها، وصديقتان مخلصتان تهتمان بها، وثلاثة أولاد موفورو الصحة، ومكانة مرموقة ومريحة بين النخبة العثمانية. اضطرت ديدنور في الماضي إلى تحمّل بعض المحن الصعبة والمؤلمة، لكن تلك اللحظة جعلت الأمر يستحق العناء...
ابتهجت جميلة أيضاً من ولادة التوأم: فمن ناحية، شعرت أنه سيكون جيداً لقدرية أن تحظى بأخٍ وأخت. ومن ناحية أخرى، كانت تعرف كم ترغب ديدنور وضياء بإنجاب أطفال. على كل حال، لم تكن جميلة تستطيع آنذاك أن تخصص وقتاً طويلاً للمولودَيْن حديثاً؛ لأنها مشغولة بترتيبات افتتاح الميتم الجديد.
كان الميتم - الذي بُني على أرض فسيحة في أوسكودار ورثتها جميلة عن والديها - قائماً على تلة تطل على البوسفور. أشرف ضياء على تشييد المبنى بعد وقت قصير من زواجه بديدنور. تكوّن البناء الخشبي من مطبخ وحمام كبيرين في الطابق الأرضي، وغرفتي استقبال واسعتين في الطابق الأول، وغرف مكاتب محاطة بأربعة مهاجع في الطابقين الثاني والثالث.
كان تشييد الميتم قد انتهى، وبعد أن وضعت جميلة اللمسات الأخيرة على الأثاث، ذهبت إلى التكيّة لتدعو حسنو بابا لأداء صلاة في مراسم الافتتاح، فقبل حسنو بابا الدعوة بسرور. عندما كانت تحظى بانتباه الشيخ، قرّرت جميلة أن تسأل أيضاً عن شيء يدور في ذهنها منذ وقت طويل:
"حسنو بابا، عندما طلب كامل يدي للزواج، أدّت والدتي صلاة الاستخارة لتعلم إن كان ذلك الزواج جيداً لي. رأتني أجلس في غرفة وأنا ألعب بدمية في الطابق السابع من مبنى. سألت في الحلم عرّابتها خيرية خانم عمّا أفعله هناك، وردّت خيرية خانم قائلة إن والدتي لا تعرف ذلك، لكنني سأرتقي عالياً في هذه الحياة".
قالت جميلة: "أراد والداي أن يطلبا منك تفسير هذا الحلم، لكنك كنت في مكّة المكرّمة في ذلك الوقت، لذا لم يكن الأمر ممكناً. ظنّاً منّا أن ذلك الحلم يبشّر بالخير، مضينا قدماً في الزواج. وكما تعرف، أنا وكامل بيك منفصلان الآن، لذا أتساءل إن لم يكن الحلم إشارة جيدة بالمحصلة".
ردَّ حسنو بابا: " ابنتي العزيزة جميلة، ألم ترتقي عالياً في الحياة؟ لقد ارتقيت فوق سيطرة احتياجاتك ورغباتك، وحياتك تتركز الآن على تلبية حاجات الآخرين. صحيح أنك قد فقدت زوجك في أثناء ذلك، لكن ذلك يرجع إلى أنّ كامل أفندي لا يزال يركّز أساساً على احتياجاته الخاصة. لم

يعد هدفكما في الحياة مشتركاً، لذا لم تعودا تجذبان بعضكما بعضاً. الرحلة الروحية لكل إنسان فريدة، وأحياناً قد تنسجم مع شخص آخر، وفي أحيان أخرى ربما لا.
من ناحية أخرى، نحن نُختبر بواسطة أقرب الناس إلينا، ونصبح وسائل للتطور الروحي لبعضنا بعضاً. أحياناً على نحو إيجابي وأحياناً أخرى على نحو سلبي. كانت علاقتك بكامل أفندي تجربة واختباراً لك يا ابنتي العزيزة جميلة، لكني أود القول إنك قد نجحت في ذلك الاختبار على نحو يثير الإعجاب".
ردّت جميلة: "شكراً يا حسنو بابا. لم أنظر إلى الأمر بتلك الطريقة مطلقاً".
في يوم مراسم الافتتاح، ذهب ضياء وجميلة إلى الميتم في الصباح الباكر للتوثق من اكتمال كل الترتيبات. قال ضياء في الطريق:
"أمي العزيزة، أشعر وديدنور أننا قد أنجزنا الكثير مع ثلاثة أطفال، لكن لديك خمسين ولداً. من الصعب مضاهاة نجاحك".
ابتسمت جميلة وسألت: "ضياء، هل تريد أن تعرف سر هذا النجاح؟".
ردَّ ضياء: "طبعاً، كلي آذان صاغية".
"يتعلق كل شيء بوجهة نظرنا إلى العالم يا بني. عندما نكون صغاراً، يكون عالمنا محدوداً باحتياجاتنا وسعادتنا، وفي تلك المرحلة من الحياة لا نعرف أساساً إلا أن نأخذ. عندما نكبر، يتسع عالمنا ليتضمن احتياجات الآخرين وسعادتهم؛ أقصد أسرنا تحديداً، وفي تلك المرحلة نعطي ونتوقع أن نأخذ. لكن هناك عالماً أوسع من ذلك يا ضياء، لا يتصوّره أشخاص كثيرون. يتعلق الأمر كله بحب أشخاص آخرين في الله، والاهتمام بهم من دون توقع أي شيء بالمقابل. هذه المرحلة من الحياة تختص بالعطاء، لكن المثير للاهتمام هنا هو أنه كلما زاد عطاؤك، ازداد ما يعود إليك من الكون؛ إذ تحصل على أشياء لم يكن ممكناً أن تفكر في طلبها مطلقاً. صدّقني يا بني، لم أطلب قط أن أحظى بخمسين ولداً، وإنما أردت فقط أن أساعد بعض الأيتام، ولم أقطع إلا الخطوة الأولى، وحدث كل شيء آخر من تلقاء نفسه".
قال ضياء: "أعرف تماماً ما تعنينه يا أمي العزيزة. لقد راقبت منذ البداية مشروع الميتم هذا وهو يتحقق مثل كرة غَزلٍ تتحلل. أشعر بالفضول لمعرفة كيف ستجري الأمور من الآن فصاعداً".
قالت جميلة مبتسمة وهناك وميض يبدو في عينيها: "في الواقع، لقد كنت أفكّر في هذا. نظراً إلى أن هذا الميتم للصبيان، ألا يجب أن نبني واحداً

للبنات أيضاً؟".
ردَّ ضياء على ابتسامة والدته بإعجاب وحب واضحين في عينيه...
توقفت العربة أمام الميتم، وترجّلت جميلة وضياء ثم دخلا المكان، وبدا الجو مفعماً بالإثارة في كل مكان. في اليوم السابق، كان قد أُحضر خمسون يتيماً من أماكن مختلفة في إسطنبول ليسكنوا معاً في الميتم، وقد أمضوا ليلتهم الأولى في منزلهم الجديد برعاية مشرف وخمسة مساعدين. كان الأولاد قد استيقظوا باكراً وارتدوا ثياباً جديدة استعداداً للاحتفال في ذلك اليوم. بعد مراسم الافتتاح، حصل كل الأولاد على هدايا أعدّتها بحرص نساء من الوقف، ونُصبت أراجيح صغيرة وألعاب أخرى في ساحة الميتم للترفيه عن الفتيان.
عبقت رائحة لحم الضأن المشوي والحلوى في الهواء كلما فتُح باب المطبخ وأُغلق. ذهبت جميلة إلى المكتب الصغير في الطابق الأول وانتظرت حسنو بابا، في حين تفقّد ضياء العقار مرة أخيرة. نظرت جميلة إلى خارج النافذة التي تطل على المضيق، وانتابها شعور غامر بالسكينة والطمأنينة الداخلية.
وصل حسنو بابا بعد وقت قصير إلى الميتم، وبدت ابتسامته الدائمة أوسع ذلك اليوم.
قال: " ابنتي العزيزة جميلة، لقد وجدت المفتاح الذهبي للسعادة: مساعدة الآخرين. عندما كان ضياء يكبر، تمكّنت من المساعدة في تشكيل مستقبل طفل واحد. لقد ازدادت فرصتك الآن خمسين ضعفاً، وها أنت تساعدين في صياغة مستقبل خمسين طفلاً. أتمنى من الله أن يبارك لك ويزيد نجاحك".
ابتسمت جميلة وقالت بلطف: "أنت محق يا حسنو بابا، فأنا من ناحية أساعد في صياغة مستقبل خمسين طفلاً. ولكن، من ناحية أخرى، أنا أفتح خمسين قناة جديدة للحب...".

الكاتبة في سطور

ولدت أسلي سانكار وترعرعت في الولايات المتحدة، وانتسبت إلى المدرستين الابتدائية والإعدادية في أوهايو. أنهت لاحقاً تخرّجها من جامعة أوهايو الحكومية، وحصلت على شهادة في الأدب الإنكليزي. بعد العمل مع الحكومة الاتحادية مدة سنة، درست عدّة مقرّرات على مستوى شهادة الماجستير لعام واحد، وعملت مدرّسة مساعدة في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة أوهايو.

بعد الاقتران بزوجها التركي، تحول اهتمام سانكار نحو تعلّم اللغة التركية والثقافة التركية ودينها الجديد: الإسلام. استقرت في تركيا في العام 1976 مع زوجها وولدين، وفي العام 1978 ولد ابنهما الثالث في أنقره. بعد الانتقال إلى إسطنبول في العام 1984، بدأت سانكار تكتب مقالات عن النساء والأسرة لمجلة كادين في أيل الجديدة آنذاك، وألّفت في العام 1986 كتاباً صغيراً عن رحلتها إلى الإسلام بعنوان إسلامين إسيجينا يانمق .

في بداية التسعينيات أصبحت سانكار مهتمة بموضوع النساء العثمانيات، وأثار فضولها الاختلاف بين المستشرقين عن صور النساء العثمانيات الموجودة في كتب مشهورة والإرث التركي عن النساء العثمانيات، وقرّرت أن تبحث في الموضوع بنفسها. بدأت بحثها في إسطنبول مع ترجمات تركية لتقارير رحّالة أوروبيين، لكن هذه المهمة قادتها في نهاية المطاف إلى وثائق أصلية في مكتبة جامعة رئيسة في أمريكا الشمالية. تعرّفت هناك إلى أعمال أدباء غربيين كانوا قد ذهبوا إلى تركيا وفحصوا سجلات البلاط السلطاني والقصر، ووثائق قانونية أخرى تتعلق بحقوق النساء العثمانيات ونشاطاتهنّ. وبناءً على النتائج، كتبت سانكار في نهاية المطاف كتاباً بعنوان عثمانلي توبلوموندا كادين في أيل نُشر عام 1999.

أرادت سانكار أن توثق نتائج بحثها عن النساء العثمانيات بالإنكليزية، وكتبت نساء عثمانيات: الأسطورة والحقيقة ، وحاز كتابها سنة 2008 جائزة بنجامين فرانكلين في فئة السياسة/التاريخ التي تمنحها IBPA أكبر جمعية لناشري الكتب المستقلين في أمريكا. رُشّح الكتاب أيضاً مع اثنين آخرين لنهائي أفضل غلاف. استلمت سانكار الجائزة في احتفال أُقيم في لوس أنجلوس في أيار من العام 2008. تكلمت بعد ذلك عن النساء العثمانيات في جولة ترويج للكتاب في مدن أمريكية رئيسة مختلفة، مثل نيويورك، وأتلانتا، ولوس أنجلوس، وواشنطن العاصمة. في أيار 2009، نُشر كتاب سانكار بالتركية بعنوان عثمانلي كاديني، إفسين في جيرسك . سانكار مترجمة

محترفة أيضاً، وهي تتابع الكتابة عن النساء العثمانيات.